
أوديسا العصر الحديث
"غالانوس"
للروائي اليوناني ميشيل بيريديس
ترجمة وتقديم دكتور حسن عون

أوديسا العصر الحديث

غالانوس

للروائي اليوناني : ميشيل بيريديس

ترجمة وتقديم : دكتور حسن عون

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

مقدمة المترجم

كنت متعودا القاء نظرة على الكتب المعروضة فى المكتبات الواقعة فى مواجهة الاكاديمية الاثينية (جامعة اثينا) وأنا ذاهب لالقاء محاضراتى عن اللغة العربية أو الأدب العربى أو الحضارة الاسلامية لطلاب كرسى اللغة العربية وآدابها فى جامعة أثينا ٠

كنت ألمح من بين هذه الكتب المعروضة كتابا بعنوان «غالانى» بمعنى « أصحاب العيون الزرقاء » للمؤلف « ميشيل بيريذيس » ٠ لم يكن العنوان يثير شيئا فى نفسى ، ولكن اسم المؤلف كان يذكرنى بصورة صديق يونانى عرفته فى أثينا ، ووجدت فيه صديقا وفيا لمصر وللمصريين ٠ تجلت أمارات ذلك فى عديد من المناسبات وبصفة خاصة أثناء العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ ، حيث ساد اليونانيين فى أثينا شعور غريب : من يتردد على السفارة المصرية فى أثينا ، ومن يظهر تودده للمصريين هناك ، يعتبر فى نظر الآخرين غير متعاطف مع الفرنسيين والبريطانيين ، وما أكثر عدد هؤلاء وأولئك فى أثينا ، ثم ما أشد نفوذهم الثقافى والسياسى فى اليونان ، فى أثناء هذه المحنة القاسية كان الصديق م٠ بيريذيس يتردد يوميا تقريبا على السفارة المصرية ويمكث فيها أكبر وقت ممكن ، يتلطف مع من فيها ، ويتحدث اليهم ، ويسرى عنهم، وينشر الثقة والطمأنينة فيما بينهم ، ويدعوهم من وقت لآخر الى منزله لايناسهم والحفاوة

بهم واتاحة الفرصة لكى يلتقوا فى بيته مع بعض الاصدقاء اليونانيين، الذين احجموا عن الذهاب الى السفارة المصرية عقب العدوان ايثارا للراحة والهدوء والسلام ٠

لم أكن متأكدا تماما ان المؤلف هو صديقى اليونانى بالرغم من التشابه فى الاسم ، فما أكثر تشابه الأسماء بين اليونانيين مع اختلاف ذواتهم !! لم أترك للتردد مكانا فى نفسى للعزوف عن اقتنائه ، بالرغم من غلاء الكتب وضآلة المرتب هناك ٠ وما كدت أتصفح بعض الصفحات حتى تأكد لى أن المؤلف هو صديقى نفسه، وأن المؤلف هو عبارة عن قصة تحكى رحلة أسرة يونانية من احدى الجزر اليونانية الواقعة فى بحر ايجة الى مصر ، واستغلالها لكل الامكانيات لكى تصبح بعد سنوات من أغنى الأسر فى وادى النيل، ومن أكثرها يسرا وثراء ٠ أحد أفرادها يعمل فى تجارة الخمور ، والثانى يعمل فى التجارة بواسطة القوافل بين مصر والسودان ، والثالث يعمل فى تجارة المخدرات واعطاء النقود بالربا ـ كل هذا يروى بألفاظ مختارة فى عبارة أدبية منتقاة ، وتركيب مهذب سلس، وأسلوب سهل ممتنع ٠

من يقرأ هذه الرواية من اليونانيين يجد فيها قصة عمل وكفاح وصراع وبطولة لأولئك اليونانيين الذين يخرجون من ديارهم وهم لا يكادون يملكون شيئا ، ثم يبدءون الكفاح فى بلد غير بلدهم، وبعد سنوات يصبحون من الأثرياء وأصحاب الملايين ، الامر الذى يشعل حماسة اليونانيين الآخرين ، ويحببهم فى الهجرة ٠

ومن يقرأها من المصريين يجد فيها قصة جرأة وكد ودأب ومثابرة واستغلال ، الأمر الذى يشعل نار الحسرة فى نفوسهم ويدفعهم دفعا الى أن يثوروا ضد الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة اذ ذاك فى وادى النيل ٠

وعنـدئذ لم أترك للتردد مكانا فى نفسى لتأخير ترجمتها الى العربية ، ولم أنتظر لقاء المؤلف الصديق لكى أستأذنه فى الترجمة، وانما اتصلت به تليفونيا وجرى بينه وبينى حديث طويل لم يكتف بأن أذن لى فقط بهذه الترجمة ، بل أظهر حفاوة وترحيبا واستعدادا للتعاون معنا فيها ان احتاج الأمر ٠

ومنذ ذلك اليوم مضيت فى الترجمة حفيا بها ، مشدودا اليها، راغبا فيها ، مستعذبا ما أجده من رقة اللفظ ، ودقة المعنى ، وروعة الوصف ، وجمال الاسلوب ، ونبل القصد ، وجلال الافكار ٠

ان رحابة صدر المؤلف الصديق ، واهتـمامه البـالغ بأمر الترجمة ، واحساسى من جانبه بأنه يؤمل كثيرا فى أن يقرأ روايته أكبر عدد من المصريين ، نقول ، ان ذلك كله قد جعلنا نلجأ اليه من حين لآخر لكشف الخفى من الافكار وتوضيح المضمر من المعانى ، مما كان يضطره أحيـانا الى ترجمة بعض العبـارات اليونانية الى الفرنسية ، ثم ننقلها نحن بدورنا من الفرنسية الى العربية ٠

ولم نكد نفرغ من الترجمة حتى انبثقت لدينا رغبة قوية فى زيارة الجزيرة اليونانية التى كانت مهـدا لتلك الأسرة اليونانية المهاجرة الى مصر ، والتى كانت موضوع الحديث فى هذه الرواية٠

لم يكن ذلك بالأمر السـهل أو الهين ، بل كانت تقف دونه صعاب وعقبات : فى أعقاب الثورة الشيوعية فى اليونان بعد الحرب العـالمية الثانية ، حيث اتخـذت الحكومات اليونانية المتعاقبة هذه الجزيرة الرابضة فى بحر ايجة ، والمنقطعة عن العالم الخارجى ، قلعة ومعتقلا للشيوعيين اليونانيين ٠ ومن أجـل ذلك كان الذهاب اليها محرما على الزائرين وجميع المدنيين اللهم الا اذا كانوا من أهل الجزيرة وأصحاب المصالح فيها ، وحتى هؤلاء لا يستطيعون الذهاب الا باذن خاص من وزارة الداخليـة ، ويضـاف الى تصريح وزارة

الداخلية تصريح آخر من وزارة الخارجية اذا كان الزائر أجنبيا لمهمة خاصة •

وبعد التغلب على هذه المصاعب الادارية تجد مصاعب من نوع آخر : ان وسيلة الوصول اليها سفينة واحدة تبحر من ميناء بيريه مرة واحدة في الاسبوع ، وتصل الى الجزيرة فى نحو يوم وليلة ، تطوف خلالها بشواطىء اليونان الشرقية ، وفى مواضع تكاد تكون دائمة الاضطرابات والعواصف ، مما يجعل الرحلة بالسفينة قطعة من العذاب • وبعد أن تصل السفينة الى الجزيرة لا تستطيع أن ترسو بمحاذاة الشاطىء ، فليستهناك ميناء مهيأة ولا أرصفة معدة، مما يضطر السفينة الى أن ترسو فى عرض البحر ، بعيدة عنشاطىء الجزيرة بنحو نصف كيلو متر ، ثم تجيىء القوارب من الجزيرة الى السفينة لنقل من فيها وما فيها من رسائل وهدايا وطرود الى الجزيرة •

ان فرحة سكان الجزيرة بمقدم هذه السفينة اسبوعيا لا توصف ولا تقدر ، فهى الوسيلة الوحيدة التى تصلهم بالعالم الخارجى والتى تنقل اليهم الهدايا والرسائل من سائر بلاد العالم• ومن أجل ذلك يستقبلونها بالطبول والزمور والحفاوة والترحاب البالغ •

وبفضل المؤلف الصديق حصلت على تصريح بزيارة هذه الجزيرة ، وذهبت اليها بصحبته ، وأقمنا فيها نحو أسبوعين ، ورأينا فيها ما هو أغرب من الغريب ، وأندر من النادر ، وأعجب من العجب ، وتحققنا من كثير من الظواهر التى كانت موضع دهشة عند قراءتها وترجمتها فى الرواية •

ونعترف أن مقامنا في هذه الجزيرة قـد أوحى الينا بكتابة رواية نسجل فيها أفكارنا ومشـاهداتنا وعواطفنا وأحاسيسنا عن هذه الجزيرة وعن سكانها ، عنوناها بـ «من وحى الجزيرة» ، ونرجو ان يقدر لها قريبا أن تنشر وتقرأ .

هذا وقد تخيرت لهذه الرواية عنوانا جديدا هو «أوديسا العصر الحـديث » للتشابه القائم بين « أوديسـا » هوميروس وأوديسا بيريذيس ، فكلاهما يصور رحلة محفوفة بالمخاطر والأهوال ، الأولى تصور رحلةاليونانيين الى طروادة ، والثانية تصور رحلتهم الى مصر .

الاسكندرية في ديسمبر سنة ١٩٦٧

حسن عون

الفصل الأول

ظلت الريح الصيفية العاتية التى تهب على بحر ايجه اسبوعين بين الشدة والهدوء تعنف بغتة لتسكن فى المساء ثم لاتلبث بالليل أن تصرخ وتولول ثم تستكن عند الفجر كما لو تلاشت ولكنها تنبعث بوحشيتها حين ينبثق أول شعاع من أشعة الشمس ·

كان ذلك فى شهر أغسطس سنة ١٨٨٠ حين بلغ ستراتس الرابعة عشرة من عمره وقد اقترب موعد رحيله الى الاسكندرية وكم حاول أن يؤجل هذه الرحلة كي يعاون أباه فى درس القمح لولا أن خاله أغابيتوس فارلاميس بالاسكندرية كان يرسل الرسائل متعجلا سفر ابن أخته اليه ليملأ عليه حياته الفارغة فقد كان هذا الخال أعزب ويملك متجرا صغيرا فى مصر يرجو فيه من يخلفه وما كان للأبوين أن يفرطا فى سفر وحيدهما لولا أنهما على طمع فى أن يرث ابنهما هذا الخال حتى تصلح حاله ويخلص من غلظة العيش ومن خشونة الريف فى جزيرتهما ·

والحق أن دعوة الخال وجدت صداها البليغ فى نفس الصبى فقد أشعلت في صميمه لهفة السفر الى ذلك المكان البعيد الذى هاجر اليه كثير من أبناء جلدته حيث نعموا وحدثوا بالنعمة فى كل زمان٠

انتظر القارب سكون هذه الريح ليشق عباب الاميال العشرين التى تفصل جزيرته عن ليمنوس وكان من ركابه قروية تدعى فانى تبغى الذهاب بدورها الى مصر لتواسى ابنا لها يفترسه الطاعون ٠

وآنت ساعة الابحار ذات صباح مبكر فكنت ترى الربان الذى طالما كان يتربص للقيـــام فيغلبه الريح على أمره فينام ملء جفنيه ينتظر ســكينة الريح ثم يعـاود الكرة ولكن فى ذلك الصباح كان الربان شديد اليقظة دائب النشاط يهرول الى بيت غالانوس ثم الى منزل فانى يستحثهما على المبادرة بالرحيل ٠

انتفض استراتس كما انتفض والداه ولبسا ما استطاعا أن يلبسا وحملا صندوقه الخشبى مسرعين الى الميناء حين كان المركب يتراقص على صفحة الماء كما لو كان يتلهف بدوره الى الرحيل ٠

ضمت الأم وحيدها الى صــدرها فى قوة تخنقها العبرات ثم قبلته فى وجنتيه فانحنى الصغير على يديهما باللثم وهى تستودعه الله ٠ وفعل أبوه ما فعلت الأم دون أن تنحدر دمعة من الماء الغزير الذى كان يترقرق فى مآقيه ٠

وسار الصبى كالمسحور خفاق الفؤاد وئيد الخطى لا يهزه تردد ولا يفزعه رهب سار ممسكا فى شدة بالحلقة النحاسية منصندوقه ذلك الخشبى حتى استقر فى بطن القـارب ومن ورائه زميلته فى الرحلة ٠

أخذ الزورق طريقه فى البحر سريا وكان الموج لا يزال يتخبط دون أن يعلوه زبد أو يبدو عليه غضب سار الزورق الى عرض البحر

وكأن الرياح كانت معه على موعد للانتقام فارتفعت الأمواج كالأبراج وظلت تتلقف الزورق وتضمه بشدة بينها والصبى دائخ .. زائغ البصر مستلق على خشب هذا الزورق العارى . واستمر القارب تحت رحمة الاقدار تحدق به الاخطار والربان ثابت العزم رابط الجنان حتى أوصلها بسلام الى جزيرة ليمنوس على انه ما كاد يصل حتى تبين لهم جميعا أن باخرة ليمنوس قد غادرت الميناء ولن تقوم باخرة أخرى الا بعد اسبوعين .

رجع الصبى الى أهله على القارب عينه والعم ينتظر والوالدان فى حيرة وأخيرا اهتديا الى ألامانا ذلك الزورق الكبير الجديد الذى يحمل شحنة من ثمر الصنوبر اشترتها شركة من ساموس(١) وقد قبل الربان أن يأخذ معه ستراتس ليوصله الى جزيرة خيو بدلا من ليمنوس حيث يستطيع أن يستقل باخرة منهـا الى الاسكندرية . واستقر ستراتس ثانى مرة ببطن الزورق والى جانبه السيدة فانى . أخذ الزورق يبحر فى اتجاه معاكس وبسرعة حتى ان الطفـل أثناء مروره على منزل والديه لم يستطع أن يلقى نظرة متأنية عليه .

طفا القـارب خفيفا مسرعا ولكنه ما كان يبتعد حتى استقبله موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض وظل هـذا الزورق تحت رحمـة الريح يثب متراقصـا طورا كما يتراقص النشوان ومضطربا أخرى كما يضطرب المحمـوم والربان بأعلى صوته يصيح فى ملاحيه وهم ينهمكون فى لف القـلاع وربط الحبال والاستعداد للخطر وقد أمر الركاب أن يكونوا على أهبة واستعداد .

---

(١) ولما كان الزورق الكبير لم يتجاوز السنتين من حياته فقد كان فى استطاعته ان يشق عباب البحر بالرغم مما يحكيه العقلاء (ليس من الحكمة أن تبتعد عن الارض ما لم تكن هناك ضرورة) .

في هذه اللحظة العصيبة كان ستراتس والسيدة فاني وهما منزويان في جحر لهما بهذا الزورق التعس على يقين بأنهما ينحدران الى نهايتهما ٠

وبعد صراع دام ساعتين استطاع القارب أن يكسر دائرة الجحيم ليشق طريقه الى مجرى حيث أرسى وأمسى يستريح ٠

وعندما أصبح الصباح استيقظ ستراتس وكأنه البعث فأطل من جحره ثم تعلق بيديه ليعلو سطح الزورق فلمحه الربان وناداه في حنو خشن : تعال اشرب الشاى فقد انتهت متاعبنا وصلح الحال٠

شرب الصغير ثم خطا ساهما ثم جلس القرفصاء عند مؤخر الزورق وقد تصدت الشمس للكون بجـــلالها فوق الأفق ونفحت نسيم الصباح دفء الحياة كما أسبغت من ضيائها على البـحر ذى الزرقة الداكنة لونا عسجديا يأخذ بالالباب فتراقص الموج وانبعثت الحياة فى انسجام خلاب وتآلف بديع ٠

لم يكن الصبى فى جلسته تلك غير نفس قد انسحبت الى غير هذا الوجود اذ راح فى ماضيه يتمثل فى خاطره حادثتين مماثلتين صافح فيهما الموت ٠ كانت الاولى قبل عامين حين كان يعود الى قريته بعد أن قضى زمنا فى واد بعيد يدعى القديس ديمترى به كوخ لأسرة الغلانيين (أسرته) وحظيرة وجرن وحقول كان المطر قد اشتد وانهمر غزيرا وكأن السماء قد بيتت للأرض شرا ثم أوتيت فرصة الانتقام ولم يتوقف المطر الا مساء حيث بدا قوس قزح يؤكد للخلق نهـاية غضب الله ٠ واستطاع الصغير أن يصل فى ظلام الليل الى الساحل الرملى وكانت قريته على السفح الشمالى للجبل ولم يكن بين الصغير وبينها الا أن يعبر سيلا قد اشتد انحداره فى ذلك اليوم حتى ليكاد المرء يتصوره طوفانا ٠ وكان هذا السيل يكتسح كل ما يصادفه من أســوار وحواجز ونصب قائمة على الارض ٠ فخلع ستراتس نعليه

ووضعهما فى جيب سرواله ثم خلع سرواله ولفه حول عنقه وماكان يخوض فى ماء السيل حتى جره التيار أمتارا كما لو كان نبتا صغيرا جافا ولكن صخرة شاء القدر أن ترسخ لنجاة الصبى فاحتضنها وظل يزحف من فوقها حتى وقف على قدميه وما كان أمامه بعد ذلك الموت الا أن يثب مسافة قليلة الى ناحية قريته والرعدة تسرى فى جسده النحيل ٠

وكانت المرة الثانية حين كان يقضى الليل مع والده فى ذلك الوادى فى جرن حقلهما نائمين بعد كدح النهار القائظ وكان البدر يتوسط السماء ولا يسمع فى هذا الليل الا زقزقة حشرة الزكزك المعروفة فى هذه الجبال ٠ واستطاع ضوء القمر الفضى الساحر أن يذيب هذا الكون العريض فى عالم النشوة والاحلام ٠

ولكن نباح الكلاب الذى ارتفع بغتة أيقظ الصبى ووالده فتفتحت جفونهما ولكنهما لم يلبثا حتى سمعا طلقتين اسكتتا نباح الكلاب وفى تلك اللحظة شعر ستراتس كما تبين أبوه ظلالا تغطيهما ونهضا ليجدا نفسيهما أمام رجال ثلاثة شاكى السلاح ومن ورائهم عند الحظيرة ضجة وضوضاء لقد كانوا لصوصا من أولئك الذين يغيرون على هذه الجزيرة آتين من جزيرتهم الجرداء المقفرة غرب هذه الجزيرة كى يغتصبوا نصيبا من الحياة غذاء وماشية ٠ ولم تكن الجزيرة فى حراسة وكل ما فيها رجلان مسيحيان من غير سلاح وهما يقومان بعمل الشرطة ٠

ساق اللصوص جميع الماشية والاغنام الى زورقهم ثم رجع منهم عشرة عمالقة مدججى السلاح يأمرون الشيخ وابنه أن يقوداهم الى القرية بعد أن قيدوهما كأسيرين وكان اللصوص يطلبون من أسيريهما أن يسيرا بهم الى بيوت بعينها بيوت وجهاء القرية وأعيانها

وهنـــاك استفرغت خيرات القرية(١) فى صمت ليس بعده صمت والسكان ينظرون من خلف النوافذ والثغرات وهم يمسكون أنفاسهم. ثم سار اللصـــوص بعد أن صافحوا القرية الساكنة ببعض طلقات هتكت هذا السكون الرهيب .

وكان الخوف فى تلك اللحظة قد ملك على الصبى حياته وكيانه فكان يستشعر الموت فى كل دقيقة مرت به وظـــل يســتعيد هذه الذكريات يتمثلها ويعيشها حتى عادت نفسه الى وجوده ذاك على ظهر هذا القارب الجديد الذى صافح الموت بالأمس وهو اليوم فى طريقه الى جزيرة خيو والشمس تأخذ سمتها فى وسط السماء .

كان الزورق يسير فى هدوء حين بدا فى الأفق شىء صغير ظل يكبر كلما اقترب الزورق منه ومالبث الربان أن تبين فيه سفينة كبيرة(٢) فأسرع بقاربه حتى اقترب منها .

رأى ستراتس عجبـا فى هـــذه السفينة ذات الطلاء الاسود والأشرعة البيضاء المنتفخة والأشكال الغريبة عليه(٣) ، لقد كان هذا أول عمل انسانى ضخم مر أمام عينى ستراتس فقد كانت الطبيعة العذراء وحدها هى كل ما يملأ نفسه .

مرت الســفينة متعـــالية على الزورق الذى به ستراتس(٤) وما لبثت ان اختفت رويدا بعد أن خفت فى المسير مسافة ربع ساعة ولم تترك الا الأثر الذى أخذ على الصبى اعجابه وأنفاسه جميعا .

---

(١) من بيض وزيت وعيش .

(٢) تسير بسرعة أكثر من سرعته وما لبثت ان اقتربت من الزورق .

(٣) ولقد سارت هذه السفينة فى عجب ورزانة وخيلاء كما تتراءى للخيـــال سفينة فى عالم الاحلام .

(٤) وعندما اقتربت من الزورق رفع ربان الزورق قبعته محييـا ربان السفينة الذى رفع بدوره قبعته وهو ينظر من عليائه هذا الزورق الضئيل ..

وصل الزورق أخيرا بعد الظهر الى خيو(١) فنزل ستراتس والسـيدة فانى فى خان يبيتـان فيه ليلتهما حتى تأتى السفينة المسافرة الى الاسكندرية • أما الزورق الصغير فقد أخذ طريق العودة الى جزيرة ساموس •

وكان ضـوء النهار على وشـك الزوال فأظلمت نفس الغلام واستولت عليه روح الكآبة حين شعر بأنه قد انقطع عن ذويه ووطنه وبدأ الشعور بالندم ينتابه على ان ترك جزيرته فماله وما للسفر الى مصر ؟ لم لايعود قبل فوات الأوان ؟ (٢) ولو لم يعد القارب الذى جاء به لرجع فيه كى ينعم بما ارتبط فى نفسه من حيوات جزيرته عند القديس ديمترى وهناك فى حظيرته حيث ولد والحمار الصغير بفروته الناعمة كالقطيفة • لكم كان شديدا على النفس أن ينتزع ذلك البرعم الغض من الجذع الذى يطعمه ويسقيه •

سار الصبى بهذه الأحلام على شاطىء البحر حين رآه غلامان من أهل الجزيرة على هيئته الغريبة الشـاذة التى تبعث على الضـحك والاشـفاق حلة خاطتها له خيـاطة بالجزيرة لهـا جرأة على الفن والصنعة • ـ فالجاكتة من الخلف تصل الى ساقيه وصدرية ترتفع عن بطنه وتكاد تخنقه وبنطلون ضاقت أرجله وارتفعت أطرافه وحذاء غليظ الجلد كقاربين صغيرين يجرهما أو يجرانه جرا وقلنسوة تهبط الى أذنيه وتخفى حاجبيه •

ومع هذا المظهر المضحك لاتلبث أن تقف فى حيرة واعجاب حين ترى الوجه الصغير ذا السـمات المعبرة وحين ترى الرأس الكبير الأشقر والعينين ذواتى الزرقة والنظرة القوية الحية •

---

(١) وعندئذ رفع الربان على زورقه العلم التركى بهلاله ونجمته كان الجو جميلا ممتعا ننزل استراتسب •

(٢) ولكم كان البرد قاسيا فى ذلك المكان الذى يوجد فيه •

التفت الصـــبى الى الغـــلامين اللذين يضحكان منه ورشقهما بنظرة حادة وزمجر فيهما فانفضا هاربين فكان فى هذا لنفسه شفاء مما يجد من أسباب الفرقة والبين والحنين ·

رجع الصبى ليطعم شيئا فأخرج من صـــــندوقه ذاك الخشبى بالفندق كسرتين من الخبز الجـــاف وقطعة من الجبن الجامد وظل يغمس الخبز فى كوب المـــاء ويقتضم الجبن به حتى شبع ثم نام · وقبل أن تشرق الشمس كان واقفا على قدميه ·· على أتم استعداد وكانت الســـــفينة قد أتت بعـــد ذلك لتتأهب للسفر الطويل الى الاسكندرية· وماهى الا أن استقر استراتس وفانى بين ركابها كانت هذه السفينة باخرة تسير بقوة البخار والشراع جميعا فانشغل الصبى بالتطلع الى كل ما فيها وبخاصة آلاتها فهو لم ير فى حياته آلة قط · وعندما همت الآلة بالحركة ودارت عجلتها تضرب بزعانفها البحر فاضطرب ماؤه واهتز كيانه وتحركت السفينة للمسير · ابتهج قلب الصبى وشعر بنصر الانسان على قوة الماء والبخار ·

سارت السفينة ولم تتوقف الا فى رودس والجو حار والبحر هادىء ساكن · وكان الاثنان ينامان كل ليلة على حرام (فراش من الصوف) فوق أرض العنبر ثم يطويانه فى صبيحة كل يوم وفى النهار تراقب السيدة رفيقها الصبى فى حذر وعطف واشفاق وهو لا يكاد يهدأ طول النهار وقد صادق رئيس عمال السفينة ولايزال يمطره بسيل من اسئلته المستطلعة فقد سأل ذات يوم عن سبب اطـــلاق اسم اشيل على السفينة فمن هو اشيل فقال له العامل انه اسم يونانى قديم وهو اصطلاح يسمعه لأول مرة فى حياته اذ لم يكن لدى الغلام معرفة أو ثقـــافة نظرية انه لم يتلق من العـــلم الا حروف الهجاء وقاعدتين من قواعد الحساب وبعض رســـوم من الكتابة وشيئا من الكتاب المقدس · وأحيانا كان معلمه قسيس القرية يتـــحدث عن الجنس الاغريقى وعظمته وقدمه فى التاريخ ولكنه لم يكن يزيد فى

الحديث . وكانت مدة الدراسة للصبى بالجزيرة لا تتجاوز ستة أشهر .

أما القومية دلالتها فى الجزر فقد خدرت تمام التخدير منذ زمن طويل بسبب العزلة والاحتلال ان القومية لايلهبها الا العلم والشعور بالاضطهاد(١) فالاحتلال التركى تركها فى عزلتها سادرة ففى ذاكرتها الموروثة رسبت ذكريات الماضى وغطى عليها طبقة من العفن.

ولكن التخدير ليس موتا فالقومية كالبذرة تستطيع أن تحتفظ بخصوبتها وحيويتها قرونا حتى ولو كانت بعيدة عن الارض تنتظر فرصتها للنمو والحركة والحياة ـ على ان الدين لم يصبه من أسباب التخدير ما أصاب القومية فغذاؤه مايصيب الانسان من جزع فى الحياة اليومية المضطربة وما فيها من صراع بين الانسان وبين الطبيعة أو بينه وبين أخيه الانسان أو بينه وبين نفسه أو بينه وبين القدر .

فهذه القرية ذات الالف نسمة تقوم بها عشر كنائس وعشرون أخرى من حولها استحكامات حفظت للدين فيها حياته كما رعت ايمان أهل القرية فى حماه وكان صاحبنا الصغير يؤمن كما كان يتنفس .

وفى صبيحة يوم من أعياد الميلاد كان صاحبنا فى السابعة من عمره وقد ذهبت به أمه للصلاة وألبسته لتلك ملابس نظيفة وكان ضوء الفجر يشق لنفسه طريقا فى الظلام الدامس وحبات الصقيع تتدلى على واجهات المنازل ولم يتنفس الصبى فى حياته مثل نسيم ذلك الصباح المنعش(٢) ولما اتخذ مكانه بجانب المرتل وجاء دوره فى الترتيل صاح بصوته الرفيع وكان جزاؤه ان كافأته جدته بقطعة من السكر أكلها على الخبز ولم يلتذ بمثل طعمها فى حياته .

(١) ولم يكن لدى أهل الجزيرة فرصة لاحياء هذا الشعور
(٢) وحينما دخل الكنيسة وجدها زاهية بأضوائها الذهبية

ولنعد الآن بعد هـــذه الذكريات ففى اليوم الرابع من سير السفينة بعد أن غادرت خيو اقتربت بعد الظهر فجأة من الاسكندرية وكانت الشمس تميل حين ظهرت الارض خطا رماديا يكتنفه بخاره وكان هذا الخط يبيض كلما اقتربت السفينة من مدخل الميناء ومعه تهتز نفس الصبى كلما شعر بشدة اقترابه من مصيره الموعود ولما تبين الميناء بمراكبه وألوانه الغريبة عليه شـعر بالروعة والانطلاق جميعا • وقد استطاع ركاب السفينة أن ينزلوا الى البر قبـل أن يخيم الظلام •

وقف الصبى ينظر ذات اليمين وذات الشمال وهو يضم شفتيه فى عصــــبية وحيرة فرآه أحد المصريين الذين يعملون فى القوارب فحدثه باليونانية عن وجهته فابتدره الصبى فانه ذاهب عند الخواجه أغابتوس فالامى وسرعان ما عرفه ذلك الرجـــل وحمل عن الصبى صندوقه وأوصله الى « بار » حان خاله فى شارع الجمرك • أما السيدة فانى فقد أخذها صديق لابنها الذى أخذ طريق الشفاء كان لها فى انتظار •

وقف ستراتس على عتبة باب خاله ينظر ولا يجرؤ على الدخول ولكن بارلامى من وراء النضد تبين فى الصبى ملامح صهره كومنينو غالانو فتحفز ثم رحب بابن أخته مهللا وهرول لاستقباله وأخفاه بين أحضانه •

الفصل الثانى

قبل قرن من الزمن لم يكن ينتظر من مدينة الاسكندرية أكثر من أن تكون ميناء بحرية ومدينة تجارية ومن آجل ذلك كان شارع الجمرك أهم شوارعها على الاطلاق ٠ وكان هذا الشارع يبتدىء من المنطقة التى تفصل بين الميناء الشرقية والميناء الغربية كما كان ينتهى عند شارع البحرية الذى يتصل مباشرة برصيف الميناء الغربية ٠

وكانت أهم المؤسسات العـــامة فى المدينة مبنى الجمرك ٠ وبجانب هذا المبنى من جهة الأمام على الرصيف أقيمت مجموعة من المخازن العامة والخاصة كما أقيمت مبان أخرى كانت تستخدم اما ملحقات لتلك المخازن واما مكاتب لادارة الجمرك ٠ وعلى بعد من هذه المبانى ولكن على نفس الرصيف أيضا اقيم مبنى الترسانة الضخم بأجنحته المترامية وأحواضه الواسعة وأجهزته ومصانعه العديدة ٠

وفى نفس الوقت الذى تبدأ فيه قصتنا كانت ادارة الجمرك قد فرغت من أعمال هامة قامت بها فى الميناء الغربية من تلك الاعمال

تنظيف الميناء وبناء الأرصفة والحواجز وانشاء عدد آخر من المخازن والمكاتب كما أقيمت أسوار ضخمة ذات أبواب كبيرة لتفصل كل مؤسسات الجمرك عن المدينة . وقد ترتب على تنفيذ هذه الاعمال الجديدة اهمال أو ازالة الكثير من المباني القديمة .

ومنذ ذلك التاريخ بدأ شارع الجمرك يستعيد أهميته ويأخذ من جديد في نشاطه كما شقت شوارع أخرى تصل المدينة بالميناء.

كان البار الذى يملكه أغابيتوس بارلاميس يقع على زاوية يكونها شارع الجمرك قرب نهايته مع أحد الشوارع المتقاطعة معه .

كان مجيء بارلاميس الى مصر في شبابه المبكر وقبل مجيء استراتس بنحو ثلاثين سنة . وبدأ حياته فى مصر بالعمل كأجير أو موظف فى احدى البقالات ثم أخذ ينتقل من بقالة الى أخرى لعدة سنين . وكان يشاركه فى نفس العمل زميل له استطاعا معا أن يدخرا جزءا من المال . وتمكنا بواسطة هذا المال أن يستأجرا سويا ذلك الدكان الواقع فى شارع الجمرك . وبالرغم من أنهما بدآ بسيطين وبامكانيات ضيقة فانهما استطاعا مع اليقظة ومرور الزمن أن يملآ ذلك الدكان من البضاعة . وبعد سنين بدأ الخلاف يدب بينهما فقررا الانفصال وهكذا أصبح البار ملكا لبارلاميس وحده .

كان بارلاميس يحب عمله ويتفانى فيه ولا يدخر وسعا فى النهوض به . ومن أجل ذلك فقد أصبح هذا البار أكثر استعدادا وأوسع سمعة من أى بار آخر فى شارع الجمرك . كان الرواد يجدون فيه ما لذ من طعام المشهيات وأصناف المشروبات . كانت معرفته بالقراءة والكتابة محدودة ولكنه كان يستطيع أن يسجل بالكتابة والأرقام ما هو فى حاجة ماسة اليه من بيع أو شراء ومع ذلك فقد كان يجد صعوبة فى قراءة ما كتبه هو بنفسه . ومنذ مغادرته للجزيرة لم يعد اليها سوى مرة واحدة وفى تلك المرة رأى

وعرف زوج أخته ووالد استراتيس • ولم يتمكن من العودة ثانية بالرغم من رغبته الشديدة وتشوقه المتزايد • ولعل ذلك هو الذى دعاه الى أن يطلب من ذويه أن يرسلوا اليه استراتيس ليأنس به في منفاه ويشغل بواسطته جزءا من وقته ويجد فى قربه منه قربا من ذويه •

عرف فى حياته الكثير من النساء وجرى وراء الكثيرات منهن ولكنه كان يخفي رغبة فى نفسه تولدت منذ زمن طويل تلك الرغبة هي أن يتزوج بفتاة من سكان جزيرته وكان في هذا أيضا ارضاء لأماني والدته • غير انه عرف ضمن من عرف امرأة منفصلة عن زوجها فارتبط معها بصلة أكثر من ارتباطه مع أية امرأة أخرى كان ينفق بسخاء عليها وعلى ولديها • ولم يلبث طويلا حتى تأكد له أن هذه المرأة كانت قبل أن يعرفها ذات مسلك مشين • حز ذلك فى نفسه وحاول أن يخلى لها الطريق ويبتعد عنها ولكنه عجز اذ انه كان يريدها كما كان شديد العطف عليها • ولو أنك نفذت الى عقله وسألته الرأى فى ذلك لقال لك انه لا يمكن أن يغفر لها ذلك أبدا • كان يحرم على نفسه الخروج معها كما كان لا يراها الا خفية • كان هذا الموقف مبعث ألم له ولكنه مع مضى الايام ازداد فيه تورطا •

كان منذ معرفته بالحياة مدمنا على الشرب ومع هذه الظروف التى كانت تحيط به قد ازداد حبا في الشراب ومداومة عليه رغبة في أن يغرق فيه همومه ويوفق بين احساساته المتناقضة • كان كلما يملأ لأحد المترددين على البار كأسا ملأ لنفسه كأسا آخر من الويسكى أو من الروم وابتلعه فى مرة واحدة وكثيرا ما كان يفعل ذلك حتى ولو لم يكن هناك أحد المترددين • وبالرغم من اكثاره من الشراب فقد كان قوى الاحتمال ولم ير فى مرة ثملا • غير أن أصدقاءه كانوا يقولون عنه انه يحرق كبده •

أما سكنه فكان في بيت كبير لا يبعد كثيرا عن البار ويقع فى حارة من الحوارى المتصلة بشارع الجمرك · كان هذا البيت عبارة عن وكالة ضخمة أمامها فضاء فسيح ولها باب كبـــير مغلق بالنهار ويلازمه حارس بالليل ولو دلفت من البـــاب وجدت طريقا عريضا يقودك الى فضـــاء داخلي يحيط به كثير من الاقبيه والاعمدة · وبداخل كل قبو كان يوجـــد مخزن · وكان صاحب الوكالة يستخدم هذه المخازن في حفظ ما لديه من بضاعة تتصل بشئون البحر · وأهم ما يفاجئك وأنت داخل انما هى رائحة خاصة قوية ليست بالكريهة هى رائحة ماهنالك من حبال وأصباغ وشحم و «أسفلت» ولا تفارقك هذه الرائحة التى تملأ جو الفناء الكبير والسلم العام ·

وأما الطوابق العليـــا فكانت معـــدة للسكنى وكانت تتصل اجزاء كل طابق بممر دائرى يضيئه عدد من النوافذ المطلة على الفناء · وكانت الشقة التى يقيم فيها بارلاميس فى الطابق الأول· ومنذ سنتين أعدت الشـــقة المجاورة له لتكون مدرســـة يونانية خاصة يديرها اثنان هما استيفانوس روتاكيس الحاصـــل على دكتوراه الآداب من جامعة أثينا والمدرسة ايرينى كازيرا · وفى الليلة الأولى من وصـــول استراتيس جاء الى شقة فارلاميس كل من روتاكيس وايرينى ليروا ابن أخت جارهم · وفى أثناء ذلك عرف استراتيس كلا من الاثنين · غير أنه طول زياراتهما لم يغادر كرسيه ولم يتحرك بل بقى منكمشا فى مكانه كحيوان مستوحش قد أسر من غابة وجىء به للمرة الأولى فى مدينة آهلة . وكل ما كان يبدو عليه من أمارات الانسانية هو أن وجهه كان يحمر خجلا · وأشار فارلاميس الى ابن أخته ثم قال تروتاكيس ·

ــ ارجو ان تتعهده بالدراسة والتهذيب يا سيدى الأستاذ ولن يكون ذلك دون جزاء ·

ـ بكل سرور سيدى أغابيتوس فكل ما يخصني هو أن أعطيه ما يلزم من دروس وكل ما عليك أمام ذلك هو أن تقدم لى من حين الى حين قليلا من الشراب .

لم يجيء استراتيس الى الاسكندرية ليدرس وانما جاء ليعمل ولكن رغبة خاله اتجهت الى أن يحصل فى فترة العمل جانبا من المعرفة والثقافة على ألا يضر ذلك بطبيعة العمل ومن أجل ذلك نهض استراتيس بالمهمتين في وقت واحد ولم يجد فى هذا عناء ولا غضاضة ٠

كان الغد لوصول استراتيس هو اليوم الوحيد الذى مكثه بدون عمل ليستريح من عناء السفر وليوطن نفسه على الحياة الجديدة التى سيبدأها فى الاسكندرية ٠ وفى اليوم التالى استيقظ مبكرا ونزل سريعا الى البار فوجد العاملين قد سبقا الى فتحه واعداده ٠ وعندئذ لم يكن له الا آن يروح ويغدو فى البار بخطوات وئيدة ريثما يجيء خاله ويبين له نوع العمل الذى ينبغى أن يباشره ٠ وفى ذلك اليوم كان استراتيس يلبس « بذلة » اشتراها له بالأمس خاله كما كان يلبس حذاء جديدا أيضا احضره له خاله واستطاع استراتيس أن يدرك الفرق البعيد بين هذا الحذاء الجديد وذلك الذى جاء به من الجزيرة فالأول لين مريح مربع والثانى غليظ جاف ٠

ولم يكد يراه خاله حتى طلب اليه أن ينزع جاكتته ويرتدى رداء العمل وهو وقاية طويلة بيضاء ثم أراه بعد ذلك كيف ينظف الأطباق والأكواب فى حوض الماء قد أعد فى « كونتوار » البار ٠ وهكذا بدأ استراتيس مهنته الجديدة ٠

كان استيفانوس روذاكيس فى الأصل من جزيرة كريت ولكنه فى الخامسة عشرة من عمره قد غادر عاصمة هذه الجزيرة مع أسرته ليستقر فى أثينا ٠ وهناك وجد لنفسه عملا كاستاذ فى احدى

المدارس (جيمناز) بأثينا . وحينما انفجرت الثورة ضد الأتراك في كريت سنة ١٨٦٠ غادر استيفانوس أثينا مع الضباط الذين استقالوا من الجيش اليوناني ليقوموا بواجبهم في تحرير الجزيرة . وهناك انخرط استيفانوس في فرقة من الجيش كانت تحت امرة قريب له عرف بالاقدام والشجاعة . وشارك استيفانوس في بعض المعارك ضد الترك ولكنه دفع ثمن ذلك جرحا أصابه في صدره فاخترقت رصاصة رئته اليمنى وخرجت من بين ضلعين . وتقدم الأتراك ضد الثائرين واقتربوا من القرية التي كان استيفانوس يعالج فيها من جرحه . وعندئذ أعانه السكان بالقرية على الهرب ففر مع زوجه وأولاده الى الشاطىء الجنوبى للجزيرة ومن هناك رحل مع من معه في سفينة الى الاسكندرية كان اذ ذاك في الثلاثين من عمره . وأول شيء صنعه هو اعطاء دورس خاصة لابناء بعض التجار الأثرياء في بيوتهم وكان هؤلاء التجار شديدى الحرص على أن يتثقف أبناؤهم ثقافة متينة في اللغة اليونانية . ولم تستطع الجالية اليونانية اذ ذاك أن تنتفع بثقافة روذاكيس العالية اذ أن مدرسة الجالية كانت حتى ذلك الوقت بفصولها الستة أولية وثقافة صاحبنا ثقافة عميقة واسعة : كان يعرف اللغة اليونانية القديمة معرفة تامة كما يعرف التاريخ معرفة واسعة وكان يعرف الفرنسية ويتحدث بها في بيته اذ أن جدته لابيه كانت فرنسية جاءت مع والدها التاجر من مرسيليا لتستقر معه أيضا في كانى عاصمة كريت .

واستدعت الجالية اليونانية من أثينا الآنسة كازيرا ايرينى لتقوم بالتعليم في مدرسة البنات . وماكادت تستقر في الاسكندرية حتى عرفها استيفانوس ولم يلبثا حتى تأكدت بينهما روابط الصداقة .

كانت ايرينى متخصصة في مسائل التربية وكان يغازلها من حين لآخر حلم تتمنى تحقيقه : كانت تطمع في انشاء مدرسة لها

تطبق فيها بعض نظريات فى التربية فكرت فيها وآمنت بصلاحها ٠ كانت ترى أن تعليم الاطفال ينبغى أن يكون فى السنتين الأوليين من المدرسة الأولية شخصيا بمعنى ألا يفرض على الطفل أى شيء وأن تسير الدراسة وفق استعداد ومواهب ورغبة كل طفل وبعد هذه المرحلة تكون الدراسة عامة للجميع ٠ وأبانت ايرينى رغبتها لروذاكيس ثم شرحت له وجهة نظرها بالنسبة لذلك واقترحت عليه أن ينشيء هذه المدرسة وأن يكون هو مديرها ٠ وسمع روذاكيس فى عطف واصغاء الى أفكار ايرينى ومشروعها وتمنى أن يشاركها فى تنفيذ هذا المشروع ٠ وبعد أن نضجت الفكرة فى أذهانهما وتبين لهما ما تجره المدرسة من نفع أدبى ومادى صمما على انشاء المدرسة فى حى الجمرك حيث يقطن مئات من الأسر اليونانية ولن يحرما من أن يجدا عشرات التلاميذ من بين تلك الأسر التى تفضل مدرستهما على المدرسة التابعة للجالية وذلك لقربها من بيوتهم ولعنايتها الشديدة بأطفالهم ٠ ولم ينخدعا فى هذا التقدير فانتسب الى مدرستهما فى عهدها الأول عدد كبير من التلاميذ ٠

كانت مدرستهما تحتوى على أربعة فصول للدراسة الأولية وعلى فصل للدراسة العالية ٠ وقامت ايرينى بمهام ثلاثة فصول من الفصول الأولى كما قام روذاكيس بمهام الفصلين الآخرين فى حجرتين مستقلتين كانت ايرينى تقطن فى نفس المدرسة مع خادمة تسمى بليتو وهى فى الأصل من جزيرة أمورجوس ٠ أما روتاكيس فكان يقطن حجرة فى شارع فرنسا كما بقى محتفظا بدروسه الخاصة ٠ ووجد كل من الزميلين عونا كبيرا من جانب فارلاميس الذى سهل لهما انشاء المدرسة وعمل أن يدعو لهذه المدرسة بين معارفه وأصدقائه وعملائه مما أكد رابطة الصداقة بينهما وبينه ٠

كان يتردد على بار فارلاميس بعض هواة الشراب من مدينة الاسكندرية وبعض المسافرين أثناء اقامتهم القصيرة فى المدينة

وخصوصا بحارة السفن وضباطها وعمالها الذين كانوا يتحرقون شوقا للشراب وهم مستقرون على الأرض ٠

كانت أماكن اللهو فى المدينة موزعة الى مجموعات كل مجموعة منها تختص بنوع من اللذة أو المتعة فكانت هناك مجموعة من البارات التى تقدم المشروبات وقليلا من « المزة » على أيدى الغانيات كما كانت هناك مجموعة أخرى من البارات التى لا تقدم الا « المزة » والشراب ٠ وكانت هناك مجموعة من المقاهى التى تقيم سهرات من الرقص والغناء ٠ ولم يكن بار شارع الديوان الذى نتحدث عنه هنا الا من المجموعة الثانية ٠

وأظهر استراتيس يقظة فى العمل وحماسة من أجله فلم يكتف بما وكل اليه من غسل الأكواب بل كان يساهم فى تنظيم أدوات البار وحينما تشتد حركة الرواد ويكثر عددهم يقوم بتقديم الشراب و « المزة » كان أقدم العاملين اللذين يعملان فى البار قبل أن يجىء استراتيس شابا يونانيا يدعى كوستا وكان من أهم صفات هذا الشاب الطموح ٠ ومن أجل ذلك كان الأمل يداعبه من حين الى آخرفمرة ينتظر تقدما كبيرا فى عمله لكى يصبح مديرا أو شريكا ومرة أخرى يأمل كسبا وفيرا يجعله يفكر فى تغيير مكانته الاجتماعية غير أن مجىء استراتيس وهو القريب المحبب الى صاحب البار احدث له انزعاجا نفسيا واضطرابا فى الآمال وذات مساء طلب احد البحارة كأسا من « الروم » فملأ الكأس كوستا ووضعه على « الكونتوار » ثم تظاهر بأنه يعنى بعمل شىء آخر ٠ ولما رأى استراتيس الكأس مملوءا قدمه بنفسه الى البحار ٠ ولم يكد هذا البحار يذوق طعم الكأس حتى رفع عقيرته بالشتائم والسباب ولم يكتف بهذا بل نهض من مكانه متجها نحو « الكونتوار » حيث يقف استراتيس وأخذ يسبه باللغة الانجليزية السقيمة ٠ وآلم فارلاميس هذا المنظر فنهض من مكانه تاركا صديقا له فيه وتحسس

الخبر فعرف أن هياج البحار كان من أجل طلبه كأسا من «الروم» الاجنبى فقدم اليه كأس من «لروم» المحلى · وعندئذ اتجه استراتيس فى غضب وقال له :

ـ لا تحشر نفسك فى أشياء لم تعرفها بعد ولا تدخل فى دائرة عملك · أقول لك هذا للمرة الأولى والأخيرة ·

وحاول استراتيس أن يشرح موقفه ويبرر عمله فأخذ ينتزع الكلمات من نفسه انتزاعا محاولا أن يبتلع ريقه ويخفف جفاف حلقه من لحظة الى أخرى وقال :

ـ ليس هذا من خطئى ولكنه من عمل كوستا فهو الذى ملأ الكأس ولم أقدمه الى هذا الزائر الا بعد استئذانه ·

وعندئذ تصدى كوستا للكلام فقال :

ـ هذا غير صحيح انه هو الذى ملأ الكأس ذلك لأنه يريد دائما أن يظهر بمظهر النشيط المتوقد الذكاء وحز فى نفس استراتيس وملأه غيظا هذا الافتراء وأحس بأن الدم يغلى فى قلبه ويكاد ينفجر من وجناته ولم يتمالك أعصابه فألقى بنفسه على كوستا وانهال عليه ضربا فكال له اللكمات على صدره ·

وأمام هذا المنظر نسى البحار ماكان فيه من غضب وهلل قائلا ها هو ذا الديك الصغير الذى يجرؤ على قتال أخيه الأكبر ·

ومن هذا المنظر أيضا ايقن فارلاميس أن استراتيس لم يكن مخطئا ومع ذلك فقد جرى نحو المتخاصمين ونحى استراتيس عن خصمه وقال له فى هيئة تعلن عن الغلظة والقسوة :

ـ ماذا دهاك ؟ أتظن أننا نعيش فى وسط الجبال ؟

وعندئذ لم يستطع استراتيس أن يتمالك شعوره فانفجر نهنهة وبكاء ·

وهنا أرسله خاله ليهدأ وينام .

ان من واجب الشاب الذى يتغرب ليعمل اذا اراد ألا ينهار من أول صدمة أن يكون لديه شيء من الحكمة وحسن التصرف حتى يمكنه أن يوقف نتائج تهوراته . وكان من طبيعة استراتيس الحماس والكبرياء وعدم العدول عن أفكاره بسهولة . ولم تغمض له عين فى ليلته تلك وبعد تفكير طويل حكم على نفسه بأن مسلكه لم يكن سليما . وقرر أن واجبه كان يقضى عليه بأن يتمالك نفسه ولايعتدى بالضرب على كوستا متناسيا ولولوقت ما ما كان يدور فى خلده من معنى الشهامة وعزة النفس اذ أن هذه المعانى الكبيرة لا تتلاءم مع سنه الصغيرة .

ومنذ تلك اللحظة أحس استراتيس بكره شديد نحو كوستا ولكنه صمم فى قرارة نفسه ألا يصطدم به احتراما لخاله وحرصا على مصلحة البار . وفى الصباح بكر كعادته بالذهاب الى العمل وهو مصمم على التسلح بقوة الاحتمال . ولم يجيءكوستا كالمعتاد فقد أعفاه بالأمس فارلاميس وقطع كل صلة بينه وبين العمل فى البار .

وفى يوم من أيام الآحاد طلب روذاكيس الى فارلاميس أن يأذن له فى أن يصطحب معه استراتيس الى الكنيسة وكان يوما صحوا وشمسه صافية عكس ما هو مألوف فى أيام الاسكندرية خلال شهر أكتوبر حينما يكون الجو مشبعا بالرطوبة والشمس فى وكنتها فينعكس هذا الجو المقبض على احساس الناس ومشاعرهم . اخترق الاثنان شارع الديوان الضيق فامتداده ثم انخرطا فى شارع فرنسا .

حينما كانت الاسكندرية فى عهد تدهورها أصبحت قريبة الشبه بقرية صغيرة فانكمشت وصارت كالزجاجة بطنها منطقة

رأس التين التى هى عبارة عن المنارة القديمة (فاروس) وعنقها عبـــارة عن البرزخ الذى يفصـــل بين الميناءين الشرقية والغربية والذى لم يكن سوى الهيبتاستاد القديم · ولكن منذ أكثر من قرن من الزمن حينما بدأت الاسكندرية تستعيد ماضيها فتزهو وتتسع امتدت من ناحية العنق وتفرعت شوارعها وأحياؤها ناحية مرتفعات كوم الدكة وقنال المحمودية ومنطقة القبارى ·

ومن شارع فرنسا الذى كان مملوءا بالمنازل التى يطلق على كل واحد منها اسم وكالة كانت توجد هذه الوكالات فى الشوارع المعترضة لشارع فرنسا حيث يقطن الأوربيون الوافدون للاقامـة الدائمة نقول ومن شارع فرنسا وصل روتاكيس واستراتيس الى ميدان القناصل الفســـيح الذى يوحى مجرد النظر اليه بالرهبة والعظمة والأبهة ·

كان يوجد فى مدخل هذا الميدان من ناحية الشـــمال قصر زيزينيا ببواكيه العديدة ومن ناحيـــة اليمين قصر أناسناسى وفى نهاية الميدان يوجد قصر توسينا الرائع بشرفاتة القائمة على الأعمدة الضخمة التى تشغل كل مواجهة الميدان وعن يمين هـــذا القصر وشماله قد أقيمت بيوت متشابهة فى الضخامة والارتفاع والثقل وفى وسط هذا الميدان غرست الأشجار على امتداده وأحيطت هذه المنطقة المفروشة بسلاسل من حديد متعرجة على شكل أقواس ومثبتة فى قضـــبان قصيرة من الحـــديد أيضـــا وفى منتصف هذه القطعة المفروشة بالاشجار والتاركة على جانبيها ممرين عريضين منذ البداية حتى النهاية ينهض على قاعدة ضخمة تمثال محمد على وهو على جواده المتحفز ·

ومنذ الصباح حتى جزء كبير من الليل يغدو الناس ويروحون فى هذا الميدان بلا انقطاع كقطعان النمل لا تمل السير هنا وهناك أو كخلايا النحل يملأ الجو دويا وطنينا ٠

وكنت ترى فى الجهـة المنخفضة من هـذا الميدان جمعا من عربات « سوارس » وعربات « الحناطير » ذات الجواد الواحد أو ذات الجوادين وكنت ترى كذلك جمعا من الجمال الباركة برحالها وقد كسيت بأغطيـة متعددة الألوان وبجانب كل جمـل قد وقف صاحبه مرتديا قفطانه الأخضر أو البني ومتمنطقا بنطاقه الأطلس الأصفر كما كنت ترى أخيرا عددا من الحمير القصيرة القوية ٠ وكل هؤلاء وأولئك كانوا فى انتظار المارة الذين يريدون أن ينتقلوا الى الأماكن النائية سواء أكان ذلك فى داخل المدينة أم فى خارجها ٠

ولقد بهر استراتيس هذا المنظر الغريب الأخاذ فلم ينقطع عن الأسـئلة يوجههـا الى أسـتاذه ليشرح ما يراه ، وانتهى استراتيس من كل ما رأى الى حقيقة ثابتة لا يشك هو فيها تلك الحقيقة هي أن الاسكندرية يجب أن تكون أهم مدينة فى العـالم ماذا يمكن أن يوجد فى المـدن الأخرى لكى تفوقها عظمة وأبهـة وجمالا ؟ كان كلما اشار اليه روتاكيس بأن هـذا البيت أو ذاك يمتلكه يونانى وبأن هذا الدكان أو ذاك يؤسسـه ويديره يونانى شعر بشيء من الرضى وأحس بأنه يساهم الى حد ما فى ملكية هذه البيوت وتلك الدكاكين اليونانية ٠

وصلا الى كنيسة الجالية اليونانية ايفانجيليزموس ٠ وهناك فى صحن الكنيسة أراه روتاكيس المؤسسات العامة التى تحيط بهـا ثم جانبا من مدرسـة توسيتسا التى كانت توجد فى نهـاية الصحن ٠

وعندما دخلا الكنيسة وتقدما فيها لم يكد روتاكيس يصل الى الحاجز الحديدى فى منتصفها حتى وقف فجأة لديه وقد ملأه احساس غريب فلم يعد يدرك من حوله سوى معانى الصلوات ونغمات المصلين ٠

كان سمهرى القامة أسود الشعر هديلا وكان له شارب مجعد ولحية مقصوصة تحيط بوجهه المستطيل وتنتهى عند ذقنه بشعرات طويلة ٠ كان أزرق العينين شاحب الوجنتين وديع الملامح تدرك منها فى تلك اللحظة أنه منصرف الى عالم روحانى آخر ٠

وازداد عدد المصلين فى الكنيسة ووفدت الشخصيات البارزة التى خصص لها المكان الداخلى من الكنيسة كانت هذه الشخصيات تمر فى رزانة وتؤدة براقة المظهر أنيقة الهندام ٠ وكان بعض هذه الشخصيات يرتدى جاكتة طويلة وصدرية متداخلة الجانبين وكرافتة عريضة وبنطلونا ضيقا ملتصقا بالساقين قد شدت أزراره من تحت الحذاء ممسكا بيده قبعته الطويلة ٠ وكان كل واحد من هذه الطبقة الممتازة يمضى بخطوات وئيدة ليشغل الكرسى الذى خصص له أثناء الصلوات ٠

وبعد أن فرغ الناس من صلاتهم هرعوا الى خارج الكنيسة وفى الشارع قال روتاكيس لتلميذه والسرور يملأ جوانحه :

ـ اننا ضيوف خالك اليوم فقد دعانا مع الآنسة ايرينى لنأكل طعامه المشهور الذى يجيد طهوه : صحن من اللحم والبطاطس يطهوه فى الفرن ٠ وبعد أن يعده بنفسه يقدمه الى الفران طالبا منه أن يضيف اليه قليلا من الماء فى الوقت المناسب وويل للفران لو لم ينفذ هذه الوصية ٠٠ وهنا صفق بلسانه وبعد لحظات وجه الكلام الى استراتيس :

ـ متى نبدأ دورسنا ؟ قل لى هل لديك رغبة فى الدراسة ٠

وعندئذ أجابه استراتيس بنفس الطريقة التى سمع التلاميذ في المدرسة يجيبونه بها فقال :

ـ نعم سيدى ·

ـ سنبدأ اذن يوم الاثنين القادم أى بعد ثمانية أيام · ويجب أن تعلم من الآن انك ستعمل بجد وحزم وأنك ستجهد نفسك بعض الاجهـاد ·

ـ سيكون لى حظ وفير أن أتثقف على يديك ·

وبعد أن اكتمل العدد فى بيت فارلاميس جلس الجميع حول مائدة تبهر بالامعان فى النظافة وبالدقة فى النظام فكل شيء عليها قد اعدته خادمة فارلاميس ماريا اعدادا جميلا ووضعته فى المكان المخصص له عليها · وأكل الجميع من الطعام الذى أعده صـاحب الدعوة فوجدوه عند حسن ظنهم به وسماعهم عنه · ثم أكلوا كذلك من الجبنة وشربوا من الخمر المشعشعة اللتين جاء بهما استراتيس من جزيرة سان استراتيس · وعلى نفس المـائدة وجه روذاكيس الكلام الى استراتيس قائلا له :

ـ ماذا خلقته مدينة الاسكندرية عندك من انطباعات ؟

ـ لم أكن أتخيل أبدا أن الاسكندرية تضم هذا الجمع العظيم من الناس وذلك الخليط الهائل من الاجناس التى تعيش معا فى موطن واحد · كان هذا جواب استراتيس بعد أن فكر قليلا ·

ولم يقنع ذلك روذاكيس وعندئذ دار بينهما هذا الحوار ·

ـ وما هو عندك غير هذا من انطباعات ؟

ـ لم أجد أن العرب سود البشرة كما كنت أسمع عنهم من قبل · وأضـاف الى ذلك قوله : حينما كنت فى جزيرة سـان

استراتيس كنت أحس احساسا عميقا بانني من سكان هذه الجزيرة فحسب ولكن منذ حضوري الى الاسـكندرية أصبحت أحس فوق ذلك بأنني يوناني ٠

وأمام هـذه الفكرة الدقيقة وذلك المعنى العميق لم يتمالك روذاكيس نفسه من الاعجاب فصاح قائلا :

ـ برافو استراتيس ٠

ثم أخذ يشرح هذه الفكرة ويوضحها فقال :

ـ اننا في الحقيقة كما بينت ولكي نظهـر ما نمتاز به دون سوانا يجب علينا أن نختلط ببعضنا وأن نتحد أمام العدو أو أمام الأجنبي وعندئذ فقط ندرك قيمة انفسنا كأفراد أولا وكيونانيين ثانيـا ثم نصـبح أكثر نشاطا وابداعا وانتاجا عما نحن عليه في الظروف المعتادة ٠ في مصر الفرعونية وفدت طوائف يونانية متعددة ومن مواطن مختلفة من اليونان فوفد من اليونانيين ومن الدورانيين ومن الأبوليانيين وكل هؤلاء واولئك قبل أن يفدوا الى مصر كانوا يشعلون نار الحرب فيما بينهم ٠ ولعلهم للمرة الأولى حينما خرجوا من أوطانهم المتنافسة ووجدوا في مصر نسوا مابينهم من ضغائن وأحقاد وأحسوا بأنهم يكونون شعبا واحدا أو ينتمون الى قوميـة واحدة هي القومية اليونانية وتبع ذلك أن عملوا على تأسيس جالية واحدة سموها الهلينية ٠

هنا في مصر وفي الاسكندرية بصـفة خاصـــة من الجهات اليونانية المختلفة سواء ما كان يتمتع منها بالحرية وما كان يرسف تحت قيود الاحتلال جئنا من خيوس ومن كاستوريا جئنا من قبرص ومن جانينا جئنا من تريبولي ومن قولة جئنا من كورفو ومن آسيا الصغرى ٠ وكان يدفعنا الى هذه الهجرة فقر أوطاننا وطموحنا في أن نعيش عيشة رغيدة ونحيا حياة ســـعيدة ٠ هنا عرف بعضنا

البعض الآخر وهنا كذلك أحسسنا جميعا بأننا ننتمي الى أصل واحد وكان من وراء ذلك أن حققنا في مصر ما عجزنا عن تحقيقه في بلادنا أنشأنا وطنا واحدا لكل اليونانيين • وكان بعد ذلك أن وفقنا الى النجاح الفردي والجماعي فيما أخذنا أنفسنا به من مشروعات وأعمال بواسطة ما طبعنا عليه من منافسة وما جبلنا عليه من نشاط لا ينفد •

وعندئذ ترك الجميع المائدة وأخذوا أماكنهم في الصالون متلمسين من روذاكيس أن يستمر في حديثه فقال :

ـ ان المهاجرين الأوائل من اليونانيين الذين جاءوا هنا في السنين الأولى من هذا القرن لم يكن من همهم جمع الثروة لارضاء حاجياتهم وحاجيات ذويهم فحسب وانما كان من أهدافهم أيضا أن يمدوا أيديهم الى جميع المحاربين من مواطنيهم الذين اشتركوا في حرب سنة ١٨٢١ م وهذا هو ما صنعوه قبل أن يستقروا تماما في مصر فبعثوا اليهم من النقود ومن مختلف الهدايا الشيء الكثير• وبعد أن استقلت اليونان وتكونت لها حكومة أسسوا لأنفسهم هنا مدرسة ومستشفى • وكان أسبقهم الى ذلك الفضل أولئك الذين يحسون احساسا قويا بمعنى الوطنية ويملؤهم الطموح ويملكون جانبا كبيرا من الثروة • وعلى رأسهم جميعا ذلك الرجل القوي الموجه ميشيل توسيتساس الذي يعتبر واحدا من أولئك الذين يصنعون المبادىء ويخلقون التقاليد • بقي هذا الرجل كالمؤسس الأول والأب الرحيم لكل الجالية اليونانية• ولقد أسعدني الحظ وأنا لا أزال طالبا بمعرفته في أثينا حيث اعتزل حياة العمل والصخب وانزوى هناك في تلك الحياة الهادئة الوديعة ليستريح قليلا في أيامه الأخيرة بعد أن أحس بأغلال الشيخوخة واقتراب المنية ولا تزال صورته ترتسم في مخيلتي حتى لكأني أراه في هذه اللحظة بعينيه البراقتين ونظراته الحادة وشاربه الكثيف المتهدل

وذقنه العريضة وتجاعيد وجهه التي تكشف عن صلابة العزيمة ٠٠ والعمل وعن ارادة لا تقهر لقد منح هو كما منح ذووه الكثير من المال ومن الأرض الى الجالية اليونانية ٠ المدرسة والمستشفى والكنيسة وكثيرا غير ذلك ٠

ولقد تكونت هذه الجالية اليونانية منذ نحو أربعين سنة وكان تكوينها عقب صلاة الأحد في كنيسة سان سابا حيث اجتمع ما يقرب من ثلاثين أو أربعين تاجرا فى الحجرة الخاصة بكبار رجال الدين ولم يخرجوا من هذا الاجتماع الا بعد أن وضعوا أسس هذه الرابطة بين مظاهر الحماسة وعلامات الغبطة كما انهم لم يخرجوا من هذا الاجتماع أيضا الا بعد أن اختاروا لرئاسة هذه الجالية توسيتساس ذلك الرجل الذى لم يكن له أى منافس ٠٠ ولقد عرفت أيضا بعض شخصيات من هذا الرعيل الأول فيهم الشدة والصلابة كما لمست فيهم اليقظة والانتباه فيما يعمدون وكانوا مع ذلك طموحين بالرغم من ضيق أفقهم فى التفكير وقلة معارفهم فى شئون الثقافة ٠٠ ولكنهم كانوا دون شك مثاليين فى تواصيهم الملهم وفى حماسهم المبدع وفى تفانيهم النادر فى حبهم للجالية وفى حبهم للوطن !!

الفصل الثالث

كان التلميذ والاستاذ يلتقيان من أجل الدرس فى كل يوم حتى أيام الآحاد والأعياد وكان لقاؤهما اما فى المدرسة واما فى حجرة روذاكيس • وحينما يتعذر هذا أو ذاك يلتقيان فى ركن من أركان « البار » أثنـــاء تغيب الرواد ــ وكان ذلك نادرا ــ وكان لقاؤهما من أجل الدرس يدوم فى الغالب ساعتين •

كانت المهمة فى الواقع شاقة اذ ليس من المألوف أن يبـدأ شاب كاستراتيس وهو لا يكاد يعرف الكتابة ولا القراءة فى التعليم بعد الرابعة عشرة من حيـاته • غـير أن جهله بالقراءة والكتابة لم يمنع الطبيعة من أن تمنحه قوة ادراك عجيبة وتجارب الحياة من أن تكسبه خبرة ودراية ومعرفة واسعة • لم يكن اذن اعتباره كتلميذ صغير يجهل كل شيء فكان روذاكيس يدخل هذا فى تقديره كما كان يريد أن يعطيه الى جانب القراءة والكتابة قدرا من الثقـــافة الحقة • وأمام هذا الاعتبار واجهت روذاكيس مسألة صعبة تلك

هى مسألة الوقت بالنسبة لتثقيف استراتيس فسنه وطبيعة عمله لا يسمحان له بالمضى فى التعليم وقتا طويلا • وازدادت النظرية التربوية تعقيدا أمام روذاكيس بالنسبة لهذه المتناقضات فى تربية استراتيس ولكنه واجهها فى عزم وتصميم مستغلا فى ذلك كل معارفه وتجاربه • فقد جعل من همه الاول أن يحسن التلميذ القراءة والكتابة وعمليات الحساب البسيطة • ولم يمض أسابيع حتى أصبح استراتيس مجيدا للقراءة والكتابة ولعمليات الحساب الأربع الاولى : الجمع والطرح والضرب والقسمة • وبعد ذلك مباشرة قفز الاستاذ بتلميذه الى ميدان المعارف العامة مستعينا بكل ما منحه التلميذ من مواهب وامكانيات • وكان يكلفه بموضوعات للدرس والكتابة عليها من سائر المواد التى يتعرض اليها معه • وكان استراتيس يخصص الصباح الباكر لأداء هذه الواجبات • وما عدا ذلك من أمور التعليم والتثقيف فقد كان يتم فى أوقات اجتماع الاستاذ بتلميذه حيث يدور الشرح والنقاش والجدل فى مسائل معينة أو فى أمور من وحى الظروف •

وبعد سنتين فى هذا المنهج الدراسى لم يتردد الاستاذ فى أن يبدأ بتعليم اللغة الفرنسية الى تلميذه وبعد سنتين أخريين كان استراتيس فى مستوى تلميذ مجتهد فى أواخر مرحلة الدراسات الثانوية •

لم يكن روذاكيس يستعمل فى تثقيف استراتيس سوى اللغة الأدبية وذلك مع تأثره العميق بالتيارات الخفية التى تتمشى مع التقاليد اليونانية • كان يحفظ عن ظهر قلب ملحمة العصور الوسطى فى جزيرة كريت التى ألفت تحت هذا العنوان : ـ ايرتوكريتوس ـ كان يتمثل بوضوح فى عقله وفى ذاكرته كل ما تحتوى عليه هذه الملحمة من فصول وأغان وأمثال وأساطير •

ومن هذا المصدر كان روذاكيس يستمد أحاديثه ومبادئه ونظرياته أثناء تدريسه لتلميذه ٠

وفي الفترة الواقعة بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من حياة استراتيس تسيطر على الشاب احساس غريب ملك عليه الناحية الجسمانية والروحية في وقت واحد واضطربت كل مشاعره أمام هذا الاحساس العجيب وبدأ يتململ كلما تخيل أن حواسه تلتهب أو تنصهر في داخل نفسه ٠ وعندما تهدأ أعصابه بعض الشيء وتخف حدة الثورة في دمه كان يلقى بنفسه في عالم من الأحلام ولا يخرج منه الا باحساس السخط والكراهية لكل من يتصل به وأخذ من حين الى حين يسأل نفسه ما معنى المجتمع ؟ وما معنى الواجب ؟ وما معنى القرابة ؟ بل وما معنى الله ؟ انه سن الحلم الذى ملأ كيانه حيوية واضطرابا ٠

وأثناء هذه الفترة الزمنية حدث في يوم ما أن استراتيس لم يتمالك حواسه كالمعتاد ليأخذ الدرس بعد الظهيرة فمكث أمام أستاذه بجسمه ولكن تفكيره وحواسه وخياله في بعد عن الدرس وعمن يعطي الدرس وأصابه شيء فشل حركته وخيل اليه أنه ينظر في فضاء لا ينتهى ٠ وعندئذ قال له روذاكيس :

ـ لا تتثاءب وانتبه الى ما أقول ٠

وهنا حدث مالم يكن في حسبان الاستاذ فجعله في حيرة من الأمر اذ نهض استراتيس قائما وصرخ صرخة مدوية جعلته ينكرها من نفسه فيما بعد ويجهل مثلها عنه ولا يدرى كيف صدرت منه ٠

ـ هكذا اريد كفى لا أستطيع أن أحتمل أكثر من هذا ٠

وحدق استراتيس في عيني أستاذه وكأنه يهدده وينذره بشر مستطير ٠ وخيل الى الفتى أن موجة عنيفة في داخله قد

تحركت فاكتسحت كل سيطرة على الحواس وأفقدت كل سلطان على الضمير ٠

وقد أدرك الاستاذ أن تلميذه قد فقد وعيه وأصبح فى حالة لا يدرى فيها ما الذى يفعله ومن أجل ذلك فكر أن العلاج السريع لتلك الحالة الشاذة هو أن يلجأ الى نوع من العقاب البدنى كرد فعل ليرجع اليه وعيه ويرده الى حالتـــه الطبيعيـــة الاولى ٠ ونهض روذاكيس فى حزم وقوة فلطمه على خده لطمة عنيفـة ولم يمكث بعد ذلك فى الحجرة بل خرج منها لا يلوى على شيء ٠

قضى استراتيس بقية يومه فى ضيق وهم وحزن ولم يستطع أن ينتزع من عينه منظر ذلك المشهد الذى مر بينه وبين أستاذه ٠ ولكى يحطم هذا الاطار الحزين الذى يحيط به ويبتعـــد عن ذلك المشهد المروع الذى يلاحقه أمسك فى مساء ذلك اليوم بورقة وقلم وكتب الى أستاذه يقول انه سيكون أتعس انسان فى الحياة لو لم ينل صفح أستاذه عما حـدث ثم حاول أن يشرح له حقيقة نفسه فأخبره بأن مؤثرات شيطانية قـد اسـتولت على حواسه وأفقدته ارادته ٠

ولم يمض أكثر من ساعة بعد وصول الخطاب وقراءته حتى كان روذاكيس في البار وهناك ربت فى لطف على كتف استراتيس وقال :

ـ غدا فى نفس الساعة ٠

كان روذاكيس كلما فرغ من عمله فى المدرسة وأحس بوقت من الفراغ عند ايرينى جلس معها فى الحجرة وأخذ يتحدث اليها عن طريقة التدريس التى يتبعها مع استراتيس وعن بعض الشئون

الأخرى ولم يكن ذلك كله يحدث دون أن يحرك فى نفس ايرينى جانبا من العناية والرغبة والاهتمام •

وكان من الصعب على الآخرين حقا أن يفهموا الرابطة القلبية بين استيفانوس وايرينى وأخذ الناس والمتصلون بهما على الخصوص يتساءلون عن منشأ تلك الرابطة ومداها وأهدافها بعضهم بدافع حب الاستطلاع البرىء والبعض الآخر لارضاء غريزة الشر فى نفسه • ان معنى الاجتماع أو الارتباط بين فرد وآخر فى نظر هؤلاء الناس ليس الا مشاركة تامة فى العواطف والرغبات وبالتالى معنى المجتمع فى نظرهم أيضا ليس الا مشاركة الآخرين فى كل ما يدور بين الصديقين من شئون تتصل بالحياة والأفكار وبالاحساسات وقد نجهل نحن ما عساه يحدث لنا ولكن الآخرين يزعمون دائما أن فى ميسورهم معرفة ما سيحدث • ولعل من واجبنا أمام هذا أن نسهل عليهم ادراك ما عساه يكون •

والواقع أن صلة استيفانوس بايرينى كثيرا ما كانت موضوع حديث الناس بالرغم من أن هذه الصلة لم يكن لها أدنى أثر فى نفس واحد منهما • ولم يترفق حديث الناس كذلك بخادمه ايرينى بليتو التى كانت تقدر أن من واجبها أن تحافظ على سيدتها من دهاء الرجل وغدره ، اذ أنها كانت تعتقد أن أشد عدو للمرأة انما هو الرجل حينما يريد بها شرا يستطيع أن يخدعها بلطفه ووعوده حتى تقع وهى لا تدرى فريسة لنواياه وعندئذ ينال منها بغيته فيشوه سمعتها وكرامتها ثم يلقى بها كالثوب الخليع ويدير لها ظهره • ان كل ما يبحث عنه الرجل بجانب المرأة هو أن يروى ظمأه الجامح دون رحمة من أجلها ولا تفكير فى عاقبة أمرها • ولقد كانت بليتو نفسها ضحية لتلك المبادىء التى رسخت فى ذهنها عن الرجل فبقيت عذراء عانسا من أجل خوفها من الرجال • وقد

رفضت من قبل دون تردد خطيبين طلب كل منهما يدها . ومع ذلك فقد كانت بليتو تقدر في روذاكيس بعض الصفات ولكنها تحذره كرجل . ولم تكن تغفر له عدم زواجه من سيدتها ايريني التي يعرفها منذ زمن طويل وكثيرا ما كانت تقول : ـ

ـ وماذا ينتظر اذن هذا الرجل الملتحى ؟ هل ينتظر أن يكبر أكثر من ذلك ؟ ولكن لعل ما جبل عليه من طيبة ولطف مع ايريني يخفي وراءه أهدافا أخرى .

كانت بليتو ترعى ايريني رعاية كاملة وتراقب كل ما يصدر من حولها خوفا عليها ولم تكن تتردد فى أن تهجم بدون اذن على الحجرة التى اعتادت سيدتها أن تجلس فيها مع استيفانوس ولم تكن تتردد أيضا حينما يكون باب الحجرة مغلقا أن تسترق السمع من وراء الباب أو أن تنظر من ثقب المفتاح لكى تتأكد من أن سيدتها لم تخدع وكانت ايريني تترك لها الحرية فى أن تصنع ما تشاء وتراقب ما يحلو لها أن تراقبه ذلك لأنها لم تكن تفعل ما ينبغى أن يكون فى خفاء فليس هناك اذن ما تخشاه .

كان استيفانوس يخشى الحب كثيرا بعد أن جرح منه جرحا بالغا . فقد أحب وهو طالب صديقة لأخته اسمها هيلليني كانت سمراء اللون في الثامنة عشرة من عمرها كانت تغلب الحمرة على خدودها وتشع الحرارة من عينيها ويكسو شفتيها لون قرمزى أشبه بلون الكريز . كانت هي البادئة بالحب كما كانت هى السبب فى اشعال ناره فى نفسه . ومن أجل ذلك فقد عاش استيفانوس فى السنين الأخيرة من دراسته وفى السنين الأولى من ممارسته مهنة التدريس فريسة لاضطرابات الحب ونهبا لتأثيراته . وكان كل من أسرة الفتى والفتاة يوافق على هذه العلة العاطفية كما كان الجميع ينتظرون بفارغ الصبر أن يباركوا زواجهما .

وفي صيف أحد الأعوام ذهبت هيلليني مع أمها الى جزيرة كورفو تلبية لدعوة قريبة لهما • وفي أثناء تنزهاتها ورحلاتها وتنقلاتها بين القرى والحقول عرفت رجلا من أثينا يناهز الثلاثين من العمر وقد جاء مع والدته أيضا لقضاء بضعة أيام في جزيرة كورفو • ورث هذا الرجل عن أبيه الذى مات منذ شهور قليلة ثروة طائلة كانت موضوع حديث الناس وتقديرهم في كل أنحاء الجزيرة •

كانت هيلليني تحب استيفانوس من قلبها ولكن كان هناك عاملان يستطيعان أن يعصفا بأسس ذلك الحب وهما البعد والثروة • فبعد المسافة بين كورفو والاسكندرية خلق سحبا في الجو أخذت تتكاثف مع الزمن حتى استطاعت أن تحجب عنها تماما ذلك الوجه الذى لم تعد تراه ولا تحس به • وأما الثروة فقد خلقت من حولها أيضا جوا غريبا فوقعت تحت تأثيرها السحرى وأخذت تحلم بها وبما تجره من وسائل الترف والسعادة المادية حتى لقد أصبحت تشعر بالغيرة الشديدة من أولئك الأغنياء رجالا كانوا أم نساء • غدت تحس بظمأ شديد الى الترف والى الملابس الجميلة والحلى الثمينة والبيت الرحب يملؤه الخدم وتجرى فيه الحفلات والاستقبالات • وكانت كلما تقدمت في السن ازداد احساسها بوخز ابر الطموح التى تلهب حواسها بدون انقطاع • لم يكن استيفانوس من أولئك الذين يستطيعون كسب المال فلم يكن والده ثريا • كما لم يكن في استطاعته أن ينحرف أبدا عن مهنة التدريس • وكان مما يزعج هيلليني وهي بجانب استيفانوس ما كانت تلحظه فيه من عدم اكتراث للمادة • غير أن حبها له ووجوده بجانبها وما كانت تلقاه منه باستمرار من حنان وعطف وقبلات كل ذلك كان يطفىء في نفسها ظمأها للثروة وينسيها حبها للمادة •

ومنذ اللحظة الأولى التى ظهرت فيها هيللينى للوارث الاثينى وقعت من نفسه موقع حب واعجاب • وبعد أيام مليئة بالمواعيد واللقاء والمناجاة دفعته الرغبة فيها الى خطبتها ولكنه لم يلبث أن تبين أن قلبها لم يكن خاليا ولا حرا • ولما كان هذا الوارث خبيرا بأمور النساء وما تنطوى عليه أنفسهن كما كان يزعم ذلك ويفخر به فقد شرع يسلك معها مسلكا يغاير مسلكه الأول فقطع غزله معها وصار يلقاها فى أدب جم ويظهر لها نوعا من الصداقة البريئة التى لا تهدف الى مصلحة ولا يشتم منها أدنى غرض • وقف الثرى من هيللينى هذا الموقف بضعة أسابيع ولكنها وهى الهائمة فى عالم الأحلام لم تفهم هويته ولم تدرك مرماه وعندئذ لم ير بدا من أن ينقطع فجأة عن الذهاب الى الأماكن التى اعتادت هيللينى أن تذهب اليهـا •

وأذاع الثرى فى الجزيرة أنه ذاهب الى أثينا اثر تسلمه وثائق هامة تتصل بتركة والده وأنه لابد له من دراستها • وربما كان فى ذلك بعض الصدق غير أنه لم يكن قد وصل الى درجة اليأس التام بالنسبة لصلته بهيللينى • ومن أجل ذلك فقد وكل الى فتاة أن توالى صلتها بهيللينى أثنـاء غيبته لكى تستمر فى اغرائها وتحاول أن تفهمها ما هو عليه من ثراء وما فيه من مكانة اجتماعية مرموقة كما تفهمها ان أجمل النساء من الطبقة الأرستقراطية فى أثينا يتنافسن فيه ويتسابقن عليه • وظهرت آثار هـذه المحاولات البارعة بعد عودته الى الجزيرة فلم يكد يرى من جديد وجه هيللينى ويظهر لها شـيئا من الحب والعـاطفة حتى اقتنعت واستسلمت وأبانت عن طريق خفى أنها لن ترد له طلبا • ثم تصرح له بكل ما كان بينها وبين استيفانوس ولكنها صممت فى قرارة نفسـها أن تقطع كل صلة بينها وبين حبيبها القديم •

ذهبت هيلليني الى أثينا يتبعها الحبيب الجـديد ودعيت الى المنزل الذى تقيم فيه صديقتها أخت استيفانوس وأسرت اليها :

ـ ان بعـدى من الاسكندرية أتاح لى فرصة التفـكير المنطقى الهادىء الذى لا تشوبه شائبة الأنانية • اننى أحب استيفانوس ولكن الحب الحقيقى فى حاجة الى تضحيات غالية • اننى أنظر الى استيفانوس وكأنه ملك لأسرته لأخته لك أنت • ان واجبه الأول هو أن يشغل بزواجك ولن يقبل ضميرى أن أكون عقبة فى سبيل هذا الهدف النبيـــل واذن فمن واجبى أنا أن أنســـحب وأترك استيفانوس حرا •• وكل ما أرجوه منك هو أن تنقلى اليه صدى هذا الحديث وتحاولى اقناعه بأننى على حق فيما قررت • لا تحاولى أنت الاجابة على ما قلت فلن أسمع منك شـــيئا • وثقى أن ذلك ليس بالأمر الهين على نفسى فسأعيش فى ضيق وألم من أجل هذا التصميم الذى صممت عليه •

عرف استيفانوس من أخته عودة هيلليني الى أثينا ثم ما دار بينهما من حديث بشأنه غير أن دهشته وهو يسمع من أخته هذا الخبر كانت عظيمة وألمه كان بالغا وخيل اليه أن انسانا أخـــذ يمزق قلبه بسكين • غير أنه لم يستسلم طويلا لهذا اليأس وذلك التشاؤم وتلك الآلام بل بدأ عقله يتدخل فيبحث ليفهم ويحاول أن يجد التفسير لما حدث • ولمعنى حديث هيلليني ؟ هل هى فى أزمة نفسية ؟ ربما كانت مخلصة فيما تصورت وفيما قالت وربما لا تزال تبقى على شىء من حبنا •

ذهب استيفانوس مسرعا الى منزل هيلليني ليلقاها بنفسه ولكنه لم يجدها وقال ذووها أنهم لا يعرفون مقرها الآن ولا متى تعود الى المنزل • واختفت هيلليني فى منزل قريبة لأمهـا يجهله استيفانوس لأنها لم تجرؤ على لقائه • غير أن استيفانوس كان يود

أن يراها بأى ثمن وأن يسمع بنفسه حديثها ففى اليـــوم الاول ذهب الى منزلها أربع مرات وفى المرة الرابعة دخل المنزل ليتأكد حقا من أنها ليست فيه ولكى يتحدث مع والدتها بخصوص ذلك • وأعلنته والدتها فى صراحة وجفاف ان ابنتها حرة فى أن تتصرف كما يحلو لها وأنها لا تعلم شيئا من أمر التغير الذى طرأ على هيللينى وأن كل ما تعلمه الآن هو أن ابنتها توجد خارج أثينا • وحـــاول استيفانوس بكل الوسائل وبواســـطة من تجمعهم بهيللينى أية صلة أن يعرف المكان الذى تختفى فيه ولكنه لم يحصل على نتيجة ايجابية • وأخيرا توسل الى قريبة لها تكن له فى نفسها شيئا من العاطفة وألح فى التضرع بأن تجمعه بهيللينى ولو لبضع دقائق ووعدها مخلصا بأن يكون هادئا معها وبألا يســـلك أى مسلك يزعجها بل انه سيخضع لمشيئتها • ومع ذلك فقد رفضت هيللينى من قريبتها هذا الرجاء وعادت هذه القريبة الى استيفانوس تحمل اليه تمرد هيللينى ورفضها للقائه فقالت :

ـ ان قسوة المرأة يابنى التى تعلم ما تريد والتى تصمم على أن تقطع كل صلة لها مع رجل ما لا يمكن أن تقف عند غاية •

ولكى تضطره الى أن يرضخ للواقع ولكى تضع حدا لهـــذه المضايقات التى تشقى بها ويعيش فيها ذووها فقد صممت هيللينى على أن تسرع فتتزوج من الوارث الاثينى وهذا ما فعلته بعد خمسة عشر يوما من عودتها من كورفو الى أثينا •

وقرأ استيفانوس خبر زواجها فى الصحف فاضطرب كيانه وتحطمت آماله •

كان حبه لهيللينى يشغل أحــلامه وآماله وكل وجوده • لم يبق له فى الحياة أى عزاء كما لم يجد فى الدنيا بعد هذه القطيعة أية سلوى • كانت هذه القطيعة شاقة على نفسه كما أنه نظر اليها

كخيانة لا تغتفر من الفتاة التى أحبها من كل روحه وأخلص لها من كل قلبه ووضع فيها كل آماله وسعادته • ومن أجل ذلك فقد أحس بأن قلبه يتمزق وكبده يتفتت وروحه تطير شعاعا •

وأمضى استيفانوس شهورا يرزح تحت أثقال هذه الأزمة النفسية ويتململ بنار تلك الآلام اللاذعة حتى أصبح هيكلا عظميا غائر العينين ممتقع اللون عليه سمات الشيخوخة • ولولا ما كان فيه من صلابة البنية وقوة الاحتمال لانهار تماما تحت قسوة تلك الهموم •

ومهما يكن من شيء فقد أكسبته هذه الأزمة تجربة صادقة فى الحياة بالرغم مما صاحبها من مرارة • ولم يفقد استيفانوس مثله العليا فى الحياة غير أن هذه المثل أخذت صورا غير الصور التى يتخيلها من قبل وأصبح رجلا ناضجا قبل الأوان ففقدت روحه نضرة الشباب وحيويته كما فقد عقله الايمان بوظيفة الحب والثقة فى فائدته • وانقطعت لديه الصلة بين اللذة والعاطفة فنامت العاطفة ولم يعد لقاء المرأة فى نقديره سوى اشباع لغريزة حيوانية •

أحست ايرينى بجاذبية نحو استيفانوس منذ عرفته • كانت تشعر بلذة فى اخلاصها له • ولقد أتاح لها لقاؤهما المتكرر واشتراكهما فى العمل فرصة مثالية لكى ينمو هذا الاحساس فى نفسها • كانت تجهل كل شيء يتصل بحياته الخاصة فكانت تفترض أمورا كما كانت تخشى أن يكون مرتبطا بصلة حب مع امرأة أخرى • غير أن ذلك كله لم يمنعها من أن تتعلق به دون أن تحاول كشف حقيقته واختبار قلبه اذ أن كل ما كانت تريده هو أن تهب له قلبها حتى ولو لم تجد من جانبه استجابة سريعة فقد استيقظ فى قلبها عاطفة من الحب العنيف فى الثلاثين من عمرها •

لم تكن ايريني تعد من النساء الجميلات حقا غير أن ملامح وجهها الهادئة وبريق عينيهـــا ذواتي اللون الضارب الى الصفرة كلون عسل النحل وبيـــاض بشرتها وسمرة شــــعرها الشبيهة بالكستناء واعتدال قامتها كل ذلك كان يكسبها شيئا من الجاذبية •

وكان استيفانوس يستظرفها ويقدرها ويشعر نحوها بصداقة أكيدة • واستطاع على مر الأيام أن يكتشف عاطفتها نحوه ولكنه لم يستطع أن يقاسمها تلك العاطفة فكان يعرف نفسه أكثر من أي انسان آخر وكان يعلم أنه لو استسلم لتلك العاطفة لانزلق الى الهوة التي انحدر فيها منذ عشرين سنة أو يزيد • ومن أجل ذلك كان مسلكه مع ايريني لا يمتاز في شيء عن مسلكه مع أية امرأة أخرى لأنه لم يرد لها أن تشقى ولا أن تفقد ثقتها في نفسها ولا أن تشعر في يوم ما بذلة الخضوع والاستسلام • اما أن يتغير هو بعد الخامسة والأربعين من العمر فكان يعتبر ذلك محالا •

كثيرا ما كان يبدو له صعبا أن يتحدث اليها وأن يفضي لها بأسراره • ولكنه حينما أدرك أن ايريني تتألم من هذا المســـلك الجاف ومن تلك الخطة المتحفظة فهم أنه لابد من أحد أمرين • اما أن يتحدث اليها واما أن ينقطع عن رؤيتها • وبعد صراع في نفســه صمم على أن يتحدث اليها • فبقي معها في المدرسة بعد ظهيرة يوم أحد انتهز فيها فرصة تغيب بليتو وقص عليها في هدوء وبساطة تاريخ حبه وشرح لها ما يقدره من أن هذه الأزمة النفســية كانت بمثابة مقبرة لشعوره وعاطفته واحساساته • ولم تتركه ايريني فهمست في خجل وخوف :

ــ ولو أنني أشفيتك مما أصابك من سقم ؟ •

فأجابها على الفور :

ـ سيكون أكبر سعادة لى ولكن مرضى من ذلك النوع المستعصى ٠

وبعد فترة من الصمت قال :

ـ ولو قدر لى أن أحب ثانية ٠ واستطعت أن أحبك كما تستحقين لكنت أنت الوحيدة من بين كل من أعرفه من النساء ٠

كان هذا اللقاء مهدئا الى حد كبير لنفس ايرينى اذ أن أقل ما تعتبره كسبا من ورائه هو أنها تأكدت من أن قلب استيفانوس لا يشغله حب امرأة أخرى ٠ وبالرغم من أن لقاءه لها قد هز قلبها فانها لم تفقد كل أمل فى شفائه ٠ كانت تعتقد أن الرجال من فصيلته الذين يتصفون بالرزانة وعدم التردد ينظرون الى الأشياء نظرة جد وخطورة وتشاؤم ٠ كان حبها الذى يملأ قلبها وحاجتها الى أن تجد موضوعا لهذا الحب يصور لها الأشياء كما تهوى فبقى فى نفسها شىء من الأمل فى استيفانوس واكتفت منه فى تلك الآونة أن يستمر على لقائها وأن تراه كل يوم ٠

أراد روذاكيس أن يشرح لتلميذه استراتيس تاريخ مدينة الاسكندرية أمام مناظرها الطبيعية فحدد معه يوما من أيام الأعياد فى شهر ابريل ليقوما برحلة خارج المدينة ٠ وحبب الى ايرينى أن تشاركهما فى تلك الرحلة ٠

وفى فجر ذلك اليوم استيقظ الثلاثة ٠ وتقابلوا جميعا قبل طلوع الشمس فى ميدان القناصل ٠ وهناك استأجر كل منهم حمارا صغيرا وركب الثلاثة ومن خلفهم يجرى غلامان مصريان فاتجها الى شارع الراهبات ليتخذا طريق الدخيلة ٠ كانت المدينة غريقة فى نومها ولم يكن قد استيقظ بعد سوى بعض الافراد الذين يمسكون

بقضبانهم الطويلة ليطفئوا مصابيح الشوارع وبائعي اللبن والعمال الذين ينهضون في الظـــلام كالاشباح ما بين حين وآخر • واخترق الثلاثة بخطى حثيثة مينية البصل والميدان الصغير الذى يوجد أمام محطة القبارى • وهنا نزل الثلاثة لتســتريح دوابهم وليتناولوا هم أيضا طعام الافطار • وكان فطارهم من العيش والبيض المسلوق الذى أعدته ايرينى •

وتابع الجميع السير في طريق المكس الملىء بالتراب • وهزت الطبيعة روح ايرينى فأخذت تغنى لحنا من ألحانها • وأثنـــاء السير استحث الغلامان الحمير بواسطة النخس ؟ فانطلقت في سباق لمدة بضع دقائق واثرن سحبا من الغبار • وسبق استراتيس زميليه في حين أن ايرينى استولى عليها الرعب ففقـــدت مقدرتها على القيادة وانطلقت في ارسال صرخات من الخوف •

وبدت الشمس فى الأفق وكان جانب من القمر لايزال موجودا في الغرب فشرع يحمر فجأة حينما وقعت عليه أشعة الشمس من الشرق •

وفى المكس خارج الميناء ظهر البحر بلونه الجميل الذى يجمع بين الخضرة والزرقة في وقت واحد وكان يغلب على سطحه الهدوء كما كانت تهب منه نســـمة خفيفة فتحمل الى أنوف الثلاثة رائحته المنعشة • وبعد فترة قصيرة من الراحة امتطوا دوابهم وساروا في نفس الطريق تاركين عن يمينهم قرية الدخيلة وعن شـــمالهم منطقة المحاجر حتى وصلوا الى التلال المرتفعة الواقعة بين البـحر وبحيرة مريوط • وهناك أسلموا زمام دوابهم الى الغلامين وتسلقوا قمم تلك التلال • ومن ذلك المكان المرتفع ألقوا بأبصارهم الى البحيرة في الجنوب فنظروا مياهها الضاربة الى الحمرة وبدت هذه المياه لأعينهم مضطربة في الوسط وهادئة قرب الشواطىء كما بدا جانب منها وقد

علته طبقة من الملح الابيض يفيض بريقا ولمعانا • وفى الشمال كانوا يرون التلال تنحــدر الى البحر فى شــكل أمواج خفيفة قد كستها طبقة من الحصى الابيض • وكان منظر هذه الطبقة من الحصى أخاذا حتى ليكاد يخيل الى الناظر انها قد صنعت بأيد ماهرة • وكنت ترى فوق هذه الطبقة البيضاء أشجار التين والعنب فى غير انتظام ولكن خضرتها قـــد امتزجت ببياض المنطقة فنشأ من هذا التناقض لون جميل يعجز عن صنعه الرسام وفوق هذا المكان الجميل وفى وسط تلك المناظر الخلابة شرع روذاكيس يقول :ــ

ــ لست أدرى كما لا يدرى انسان آخر فى يقينى أين يوجد بالضبط المكان الذى وقف فيه الاسكندر الاكبر منذ اثنين وعشرين قرنا ليشـــاهد منه الموقع الذى كان ينبغى أن تؤسس فيه مدينة الاسكندرية •

« لقد وصل الى بحيرة مريوط مبتدئا من كانوب المعروفة اليوم بأبى قير وكان ذلك بواسطة سفينة مخترقا بهـا القنال الموصل الى البحيرة اذ ذاك •

كان ينــاهز الرابعة والعشرين من عمره ونستطيع أن نتخيل صورته فى شكل شاب أشقر قد أحرقت الشمس وجهه أثناء المعارك التى قام بها فى الشرق مرتديا عباءته البيضاء وقد زين عنقها أطراف أكمامها بنســـيج من خيوط رقيقة حمراء وذهبية كما نستطيع أن نتخيل وجهه وقد علته السمات العالية التى يتحدث عنها بوليب • وجميع الناس متفقون على ان الاسكندر كان فى سمو روحه يتجاوز الحدود التى ألفتها الانسانية •

كان يحيط به اذ ذاك رفاقه من المهندسين والفنانين الذين قدموا له خريطة رسموا عليها هيكل مدينة الاسكندرية وما تشـتمل عليه من ميناء وأسوار ومؤسسات عامة وشوارع وطرق • وأخذ الاسكندر

ينظر بعينه الشبيهة بعين الصقر فيمتدح هـــذا الوضع ويذم ذلك ويقبل هذا التصميم ويرفض ذاك ٠٠٠ »

وصمت روذاكيس بعض الوقت ثم تابع حديثه فقال :ـ

ـ كانت مصر حتى ذلك التـاريخ تتجه الى افريقيا والى آسيا ولم يكن من وجهتها أبدا أن تنظر الى بحر ايجه ومن أجل ذلك فانها لم تنشيء أى ميناء هام على شواطئها الشمالية ٠ وهنا في هذا المكان حيث وجدت ميناء فسيحة الى حد ما فقد استخدمها أمراء مصر منذ زمن قديم لتكون نقطة للحراسة تمنع كل صلة بأوربا فكانوا يخشون غزوا يأتيهم من الشمال أو من الغرب ٠ ولقد تحقق هذا الخوف بعد أن تدهورت مدينة الاسكندرية واستمر الغرب مصدر اخطار لمصر حتى هذه الايام ٠

« ولما أسس الاسكندر مدينة الاسكندرية جعل مصر تتجه نحو البحر الابيض المتوسط ٠ وكان الاســكندر فى حاجة الى أن يربط ما فتحه من بلاد بالعالم الاغريقى ٠ منذ ذلك الحين وبواسطة مدينة الاسكندرية فتحت مصر أبوابها الى حضـــارة الغرب ممثلة أولا فى الحضارة الاغريقية وثانيا فى الحضارة الرومانية وأخيرا فى الحضارة المسيحية وبعد هذه المراحل الثلاث التى كان مصـــدرها على التوالى اليونان وروما وبيزنطه فترت هذه الروابط السحرية وأخذت مصر تعيد ســيرتها الاولى فتــدير ظهرها من جديد الى الغرب ٠ غير انها بواسطة بونابرت ومحمد على واسماعيل الذين كانوا عوامل تطور جديد اتجهت مصر من جديد نحو الشمال عن طريق الاسكندرية ٠٠»

استمر روذاكيس يتــحدث الى رفيقيه عن تاريخ الاسكندرية وتطورها فى عهد البطالمة وهما يصغيان اليه فى انتباه وخشوع ٠

وحينما انتهى من ذلك الحديث انحدر الثلاثة ليعودوا من حيث أتوا • ولكن روذاكيس استمر يفكر فى نفس الموضـــوع وقبل أن يأخذوا طريق العودة الى المدينة أضاف روذاكيس قوله :ـ

ـ ما هى الآن مدينة الاسكندرية ؟ منارة مطفأة مدينة كسائر المدن الأخرى المنتشرة على الأرض أما اسمها الذى كان رمزا لتراثها العظيم فقد ضاع كثير من معناه • ومـع ذلك فاننى لا أزال أتخيله يسبح فى الفضاء كشىء خالد •

وبين الدخيله والمكس أشار روذاكيس على رفيقيه بالتوقف ثم قال :ـ

ـ هل ترون الشاطىء الذى هو أمامنا ؟ هناك أنزل نابليون بونابرت جنوده وأبعد من ذلك بقليل هناك فى مواجهة رأس جزيرة فاروس أنزل يوليوس قيصر جنوده بدوره واذن فعلى هذه المنطقة من الأرض سار أكبر القواد الحربيين الثلاثة فى التاريخ » •

الفصل الرابع

كان يوما من أيام الربيع فى الاسكندرية أعتى من تلك الأيام المبعثرة بين شهرى مارس ومايو • وكان ذلك الفصل من تلك السنة على الخصوص ومن كل سنة على العموم لا يحمل من معنى الربيع سوى اسمه فلا براعم الأشجار متفتحة ولا عبير الزهر يملأ الأنوف كما هو معهود فى البلاد الأوربية •

وعلى حين غفلة سمع الناس طلقات المدافع تدوى فى أرجاء المدينة على نسق واحد وبدون انقطاع • دخلت البوارج الحربية الانجليزية والفرنسية ميناء الاسكندرية وأخذت تعلن عن مقدمها ولكنه اعلان أريد منه القاء الرعب فى قلوب السكان الآهلين أكثر مما أريد منه التحية العسكرية المعهودة فى مثل تلك الظروف ثم أخذت مدافع حصون المدينة على طول الشاطىء ترد على تلك التحية بمثلها •

ولم تكن هـذه الزيارة زيارة ود أو محبة ولكنها زيارة حنق وغضب ضد عرابي باشا وصـحبه الذين ثاروا ضد الظلم واخذوا مقاليد الحكم في أيديهم سنة ١٨٨٢ م ٠

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع الرفاق في منزل ايريني وطلبوا الى روذاكيس أن يشرح لهم ما تخفيه وراءها هذه الزيارة الحربية وتلك الظاهرة العـدائية ٠ لم يكن هؤلاء الرفاق يجهلون الازمة الحالية المستحكمة اذ ذاك ولكنهم كانوا يجهلون خطوات ذلك الموقف كيف بدأت وكيف تتابعت الاحداث حتى انتهت الى تلك الازمة الخطيرة التي أخذت تنذر باشتعال نار الحرب وازهاق أرواح عدد لا يحصى من السكان ٠

أخذ روذاكيس يحـدثهم حديث الخبير بمجريات الامور سواء أكان من الناحية التاريخية أم من واقع الحاضر الذي لمسه عن قرب وشاهده بنفسه ٠

ـ منذ عشرين سـنة بدأ بعض الرأسـماليين من الفرنسيين والانجليز يقرضون مبالغ باهظة الى الخـديوي والى الدولة المصرية وبفضـل ذلك القرض أنجزت بعض المشروعات العمرانية وأقيمت بعض المنشآت الهامة ولكن أكثر هـذه المبالغ قد أنفق في ترف الخديوي وبذخه ٠ ولقد بلغ هذا البذخ أشده ووصل الاسراف الى درجة لا يرقى الى تصورها الخيال في حفلات افتتاح قنال السويس التي أقامها الخديوي ودعا اليها الملوك والأمراء والوزراء وأشهر رجال الدول الاجنبية وعلى رأس هؤلاء وأولئـك كانت أمبراطورة فرنسا أوجيني ولقد مكث هؤلاء جميعا في ضيافة الخـديوي بضعة أسابيع قضوا جانبا منها في بورسعيد وجانبا آخر في الاسماعيلية وجانبا ثالثا في القاهرة واستمر الاحتفاء بهم في أعالي مصر حتى وصلوا الى منطقـة شلالات النيل وأينما حلوا وحيثما ارتحلوا كانت تصنع

الاعياد وتقام الحفلات وتزدان الطرق وتمتد الاستقبالات حتى تردد صـــدى ذلك في الشرق كله وسجل فى أذهان النــاس ذكريات لا تمحي ..

وهنا قطــع روذاكيس حديثه ليلف سيجارة ثم يشعلها فطلب اليه استراتيس في شغف وشوق ولهفة :ـ

ـ ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ وأمام هــــذا الاسراف الباهظ لم تستطع موارد مصر ولا امكانيات الخديوى المادية الخاصة أن تنهض بأعبــاء الدولة ولا أن تكفى لسداد فوائد الديون الاجنبية . وهنا طلب أصـــحاب رءوس الأموال من الفرنسيين والانجليز الى حكوماتهم التدخل فى الأمر لكى تضمن لهم ما أقرضوه من أموال . ولبت الحكومتان رغبة رعاياهما ففرضتا على مصر نظاما يضمن سداد فوائد الدين ويشرف على موارد الدولة المصرية كلها ولكن ذلك كان على حســـاب مصر فانتقص من حريتها وانتزع من أيدى أبنائها ما كانوا يتمتعون به من حقوق .

ـ وأمام هذه الاعتبارات ثار الخديوى وثارت الحكومة المصرية معه وأيد ثورتهما بقية أفراد الشعب الذين أحسوا بانتهاك حرمتهم وشعروا بالضغط الاجنبى عليهم غير أن انجلترا وفرنسا لم تكفا عن التدخل ففرضتا بالقوة ارادتهما واخمدتا نار تلك الثورة بما لديهما من وسائل ثم ألزمتا الخـــديوى اسماعيل بالاستقالة .. وكان يوما عصيبا على الشــــعب المصرى وعلى الخـــديوى نفسه حينما اضطره الانجليز والفرنسيون معا الى مغادرة الاراضي المصرية فأبحر على يخته المحروسة تاركا عرشه ورحل الى ايطاليا . ومنذ ثلاث سنين خلفه على مصر ولده توفيق باشا .

لم يكن مطمح الدولتين المغيرتين فى مصر يقـــف عند الناحية المالية أو لدى امكانيات البلد الاقتصـــادية بل كانت مصر كلها هى

هدفهم من وراء تلك المناورات اذ أصبحت بعد افتتاح قنال السويس بمثابة معبر بين الشرق والغرب أما مسألة الديون فكانت السبب الظاهر لكي يفرضوا على وادى النيل كله قوتهم وسلطانهم • » كان من نتيجة هذه السياسة الاجنبية ان وجد نوع من التذمر فى صفوف صغار الضباط من الجيش المصرى وكان مركز الثورة بين هؤلاء الضباط بسبب ما يرونه من سوء المعاملة وما نالهم من نقص فى المرتبات أمام سياسة الاقتصاد لكى تواجه الحكومة أعباء ما تراكمت عليها من ديون وكان مما حز فى نفس هؤلاء الضباط وأوغر صدورهم ان كبار الضباط فى الجيش لم ينتقص شىء من مرتباتهم مع أنهم أجانب ودخلاء على الجيش المصرى كان صغار الضباط من صميم الشعب وأما كبارهم فمن الاتراك والقوقازيين وكانوا يعدون بالعشرات •

ثار الضباط المصريون تحت قيادة واحد منهم يمتاز بما لديه من طموح هو أحمد عرابى الذى تعرفونه جميعا • والذى نال منذ قليل رتبة الباشوية فهو الذى وضع مبادىء الثورة وأشرف على تنفيذها وهو الذى أطاح بوزير الحربية الممثل لطبقة الضباط العظام ثم احتل هو مكانته فى الدولة ومنذ تلك اللحظة أخذ الخديوى الجديد يتذبذب بين قوتين ويتملقهما : احداها قوة الضباط المصريين الثائرين والاخرى قوة الانجليز والفرنسيين • ولكى يمضى عرابى فى خطته وفى تنفيذ برنامجه أخذ يستميل الخديوى توفيق الى سياسته تارة بالحكمة واللين وأخرى بالعنف والتهديد بأن يخلعه • ولما أحس الفرنسيون والانجليز بخطورة الموقف وبما سيصير اليه الأمر بعد تقلب عرابى على الخديوى بعثوا بأساطيلهم الحربية الى المياه المصرية لكى يشدوا أزر توفيق ويدفعوه الى المضى فى معارضته لسياسة عرابى •

وهنا سألت ايريني :

ـ هل لنـا أن نستنتج من هذا أن عرابى بطل مصرى وزعيم قومى ؟

ولم يحـاول روذاكيس أن يجيب مباشرة على هذا السؤال بل استمر فى حديثه •

ـ فى هذه الثورة لا يمثل عرابى سوى صغار الضباط الذين ثاروا لنقص مرتباتهم ومن يقرأ تاريخ الثورات يجد أن هناك صرخات متنوعة تنبعث من كل ناحية لا نميز منهـا فى أغلب الاحيان سوى ما هو أعلى صوتا وأشد حدة وفى ثـورة عرابى تلك سادت صرخة الجنـد فأخفت صرخات أخرى رقيقة هى صرخات فئة من الوطنيين المخلصين والزعماء الحكماء الذين يرفضون فى اباء وشمم أن يروا بلدهم خاضعا لسلطان الاجانب غير ان هـذه الفئة كانت بعيدة عن الحـكم وادارة دفة الدولة ومتى حكم أمثال هؤلاء ؟ ان منبع هذه الثورة ومصدر الهامها هو الفيلسوف الشيخ محمد عبده •

وهنا قالك ايريني

ـ للمرة الاولى فى حياتى يقرع سمعى اسم هذا الفيلسوف •

فقال روذاكيس :

ـ رغم التدهور الذى يوجد فيه العالم الاسلامى الآن فان جذع الاسلام الروحى لم يجف ماؤه بعد فمن حين لآخر ينبت بعض البراعم الجديدة القوية لتظهر ما فى ذلك الجذع من قوة وحيوية وصفاء ومن تلك البراعم معاصرنا المجدد الحكيم الاستاذ محمد عبده الذى يحاول أن يمزج بين الاسلام وبين الحضارة الغربية •

ان مجرد ظهور الاساطيل الحربية الاجنبية فيمياه الاسكندرية قد أحالها الى ميدان من ميادين القتال بعد أن كانت هادئة وبمعزل عما يجرى فى القاهرة ففيها ستسطر فصول مأساة مصر التاريخية ومأساة الشرق بجانبها وفيها أيضا ستمثل فصول تلك المأساة وما حدث فى القاهرة من مؤامرات ومناورات وخداع لم يكن سوى مقدمة لتلك المأساة فهناكوازن الخصمان بين ما لكل من قوة أدبية ونفوذ • أما القوة المادية والحربية فلم تظهر بعد على مسرح القاهرة ومسرح ظهورها انما هو مياه الاسكندرية •

لم يكد يبدو فى أفق الاسكندرية وأمام مينائها البوارج الحربية للاسطول البريطانى ـ الفرنسى حتى تجمعت أمامه أبطال المأساة ليروا ماذا عساهم أن يصنعون أيقبلون حماية الانجليز والفرنسيين أم يرفضونها مهما كلفهم ذلك من ثمن ؟ اجتمع الخديوى وعرابى مع جيشه وأبطاله وأنصاره ومدافعه ثم مبعوث السلطان الخاص درويش باشا الذى وصل من البوسفور على يخته المدلل وأمام هؤلاء الابطال قد انقسم أهل الاسكندرية الى معسكرين متباينين • السكان الاصليون والدخلاء من الاوربيين ولم يقف الأمر عند هذا الحد فوصلت الى الميناء بوارج حربية أخرى بعثت بها سائر الدول الغربية لتنضم الى البوارج الفرنسية والانجليزية بقصد حماية رعاياها لا لمشاركة الانجليز والفرنسيين فى مظهر العداء لمصر واثارة المصريين وكان من بين تلك البوارج باخرتان حربيتان يونانيتان • كان وصول هذه البوارج الى مياه الاسكندرية مطمئنا الى حد ما للاوربيين المقيمين فى المدينة ورددت الألسن هذه العبارة • لن يستطيع المصريون أن يمسوا الاوربيين بشر مادامو يرون مدافع هذه البوارج مصوبة نحوهم • ومع ذلك فلم ترهب هذه المناورة عرابى ولم تفل من عزيمته بل كان جوابه المباشر عليها أن أخذ توا فى تقوية حصون المدينة وقلاعها وفى نقل المعدات الحربية اليها

استعدادا لمعركة الموت أو الحياة وفوق ذلك فقد بدأ يصدر أوامره الى تلك البوارج كلها بالانسحاب من مياه الاسكندرية وان هي أبت ذلك فانه مضطر لان يعتبر الاوربيين رهينة في يده يتصرف في حياتهم وأموالهم حسبما تمليه الظروف وتستلزمه سلامة البلاد ٠

وعندئذ استولى الرعب على نفوس الأجانب واضطربت جوانب المدينة كلها بعد أن كان يسودها الهدوء والألفة والصفاء ودارت في جميع أركانها شائعات متناقضة فأخذ البعض يقول ٠ ان هذه ليست سوى مناورة مصطنعة لذر الرماد في العيون والحقيقة أن الخصمين متفقان على المبدأ ومتفاهمان على النتيجة وعما قليل ستنقشع هذه السحابة ويصفو الجو كما كان ويقول آخرون : ان عرابي قد أعد عدته وأعلن الجهاد ضد الأديان الأخرى وسيكون هدفه القضاء على غير المسلمين ٠

ولو انك طوفت في الأحياء العربية كرأس التين والمبان والعطارين وباب سدره لوجدت في حرم المساجد وفي مجتمعات المقاهي أوكارا تهيأ فيها الاذهان لاشعال نار الثورة بواسطة مايلقى على الشعب من خطب حماسية وما يتلى من نداءات سياسية ملتهبة وما يقرأ من مقالات نارية نشرتها الصحف لاثارة الوطنيين ضد الاجانب ٠

أمام هذه العاصفة من الاضطراب تسرب الفزع الى نفس أغابيتوس فارلاميس وصحبه بالرغم مما أظهره كثير من أصدقائه المصريين من كرم الخلق وما أبدوه من اهتمام وعناية في تهدئة روعه واستعدادا لحمايته ان جد الجد مهما كلفهم ثمن ذلك وكان من هؤلاء الاصدقاء وأجدرهم بتنفيذ تلك الوعود هو الحاج ابراهيم جمعة مالك العمارة التي يوجد فيها « بار » فارلاميس ٠ كان هذا الشيخ تقيا ورعا شديد الايمان بمبادىء الاسلام ولكن تقواه وشدة ايمانه لم يحولا بينه وبين روح التسامح وفضيلة العدالة الانسانية نحو غير

المسلمين وخصوصا اذا كان هؤلاء طيبى القلب وديعى الخلق . كان الحاج ابراهيم يحب فارلاميس ويجله لما فيه من تواضع وهدوء ودماثة وضمير ولما طبع عليه أيضا من سخاء وأداء ما عليه من ايجار دون تسويف أو تأخير ولم يكن ذلك من هين الأمور لدى الملاك .

لقد اشتد ظلام الموقف وزادت حلكته وبدل أن يتراجع عرابى أمام قوة الحلفاء وغطرستهم ثبت فى شجاعة وتقدم فى جرأة فأصدر أوامره الى الاساطيل الحربية بالانسحاب من مياه الاسكندرية وطلب الى الخديوى أن يقطع ولاءه لهم وأن يمنحه السلطان المطلق فى الدولة . وأخذت الصحافة العربية من جانبها توقظ الشعور الوطنى فى المصريين وتهاجم الاجانب مهاجمة قوية صريحة . وعندئذ اشتعلت نار العداء فى نفس الشعب وبدأ يتحرش بالاجانب ولا يتردد أمام الغلظة فى القول لهم وانزال اللعنة عليهم .

وهنا دبت وساوس الخوف فى نفس الاوربيين وتملك الرعب قلوبهم فأخذ فريق منهم يهجر البلاد الى أوربا وفريق آخر يأوى الى الاسكندرية بعد أن أصبحت الحياة فى العواصم والقرى لا تطاق وبين عشية وضحاها نفدت كل الأسلحة التى كانت معدة للبيع فى حوانيت الاسكندرية اذ هرع الاوربيون الى شرائها لاستعمالها حين يجد الجد . واقترح فريق منهم بأن يجتمع الاجانب كلهم فى «مكان القناصل» ليتحصنوا فيه ويسدوا كل المنافذ الموصلة اليه حتى يكونوا فى مأمن من ثورة المصريين وبعد ظهر الاحد من يوم ١١ يونيو انفجر بركان الثورة أثر نزاع شب فى أحد المقاهى بين المصريين والأوروبيين قتل فيه أحد المصريين وأحد الرعايا الانجليز من المالطيين. وهنا زحف المصريون من أحيائهم جميعا شاهرين عصيهم حتى غصت بهم شوارع الاوربيين كشارع فرنسا وشارع الأغوات ومابينهما من شوارع أخرى تحيط بالميدان وكان يسير فى مقدمة هؤلاء الوطنيين فريق من الدراويش الذين يعيشون على الصدقة وقد شهروا فى

أيديهم قضبانا من الحديد ينتهي كل قضيب منهـا بصورة ثعبان وتركوا أجسامهم عارية لا يسترها الا السراويل • وفى هذه الغضبة الجارفة كان الوطنيون يضربون كل من يعترض طريقهم من الاوربيين دون رحمة يكسرون أبواب ونوافذ البيـوت والحوانيت الاوربية ثم يشعلون النار داخلها بعد سلب ما فيها وكان يشعل الثورة اكثار ما يبديه الاجانب من قسـوة وغلظة فكانوا يصوبون رصاصهم من نوافذ بيوتهم ضد الوطنيين العزل الذين لا يحملون سـوى العصى وقضبان الحديد •

ومضت الثورة فى طريقهـا دون أن يدرك انسان هل تدخل رجال البوليس لفضـها أم اشـتركوا مـع الوطنيين فى التخريب والتدمير وسالت فى الشوارع أنهر الدماء كما امتلأت نفس الشوارع بجثث القتلى وفضلات الأثاث المكسر والمحترق •

وامتد لهب الثورة حتى الميـنـاء حيث ذهب الوطنيون لملاقاة الاوربيين فى عودتهم من زيارة البـوارج الحربية فأصلوهم نارا حامية • وهناك أمام مدخل الترسانة لم تكد جموع الثائرين تلمح أميرال الاسطول الانجليزى وبجانبه أميرال الاسطول الفرنسى حتى هجمت عليهما فى غبط وجرأة ولولا تدخل الضباط المصريين لمزقهما الثائرون اربا • وكان من بين قناصل الدول الأوربية الذين خرجوا عن دورهم أثناء الثورة لمشاهدة ما يجرى أو لحمايته رعاياهم القنصل الانجليزى الذى أصيب بجرح بالغ سـقط اثره على أرض شارع الأخوات ثم القنصل اليونانى مع نائبه والقنصل الايطالى والقنصل الروسى الذين أصيبوا بجروح خفيفة •

ودام مرجل الثـورة فى غليانه حتى الساعة الخامسة مساء وعندئذ أصدر عرابى أمره من القـاهرة الى رجال الجيش بالتدخل لقمع الثورة واستتباب الامن والمحافظة على النظام فلم تلبث المدينة ان هدأت وعاد الناس الى دورهم وساد الأحياء صمت رهيب •

كان عدد القتلى ١٥٠ من الاوربيين والمصريين منهم اثنان من رعايا اليونان أما من جرح فلم يقدر عدده بعضهم من اليونانيين وتلا ذلك اليوم المشئوم ليل حالك رهيب • كانت المدينة غارقة فى سكون يشبه سكون الاموات ولم يكن يقطع هذا السكون المتواصل سوى صوت رنين سلاح الجند أثناء طوافهم خلال الشوارع وأنين الاحياء على قتلاهم •

لم يفجع حى الجمرك بمثل ما فجعت به الاحياء الاخرى فلم يحدث هناك قتل ولا نهب ولكن يد الهدم والتخريب قد امتدت اليه فغمرته أمواج الخوف والفزع كسائر الاحياء الاخرى •

اجتمع الاصحاب مبكرين فى بيت فارلاميس وهناك انضم اليهم الحاج ابراهيم جمعة مع صديقين له جاء بهما ليسمر مع الآخرين وبقى الجميع حتى ساعة متأخرة من الليل •

وعلى أثر تلك الأحداث الدامية أخذ الأجانب يطوون أمتعتهم ويهجرون المدينة على البواخر التى وفدت من كل موانى البحر الابيض •

وغدت الحياة فى الاسكندرية لا تكاد تطاق اذ توقفت فيها تماما حركة التجارة وشلت وسائل الخدمات العامة فندر وجود الماء واصبح السكان جميعا ــ مصريون وأجانب ــ يعيشون فى جو خانق كله ريبة وشك ورعب وفزع• كانوا يتوقعون حوادث أشد ويخشون مفاجأة كبرى • انزال فريق من الجنود الفرنسيين والانجليز لأخذ المدينة أو ضرب الاسكندرية بمدافع الاسطول أو اشعال نار الثورة واراقة الدماء من جديد أو كل ذلك فى وقت واحد • فكنت طورا ترى الأوربيين يهرولون نحو الميناء لأخذ أماكنهم فى البواخر وطورا آخر ترى المصريين يهرولون نحو أبواب المدينة أو محطة سكة الحديد للبعد عن ميدان الأخطار •

كان فارلاميس وأصحابه يترددون بين الهرب والبقاء واخيرا استقر أمرهم على الهجرة فى آخر باخرة تبحر الى ميناء بيريه ٠

وعندما حانت ساعة السفر انفصل فارلاميس عن الآخرين ليشغل هو بابحار عشيقته مع أبنائها ثم يعود اليهم اذ كان موعد لقائهم جميعا فوق الباخرة ٠

استقل كل من روذاكى وايرينى وخادمتها وذلك الشاب الأجير فى البار قاربا صغيرا بعد أن ملئوه بأمتعتهم ليصلوا به الى الباخرة وبقى على الشاطىء استراتيس وخادمة خاله ماريا ومعهما أمتعة فارلاميس فى انتظار عودة القارب ٠ وفجأة تذكرت ماريا انها نسيت وهى تحزم الامتعة فى عجلة كيسا علىالمائدة فى البيت بعد أن وضعت فيه أعز ما تملك من الملابس وجوربا من الصوف قد دست فيه كل ما تملك من نقود ٠ وأرادت أن تعود الى البيت للبحث عن حاجياتها فمنعها استراتيس وأخذ منها مفاتيح البيت ليقضى هو بنفسه الامر ٠ وتخلف عن العودة استراتيس أضعاف ما يلزم من الزمن ذهابا وايابا وعاد القارب لينقل من بقى على الشاطىء معلنا قرب ابحار الباخرة وترددت ماريا فى النزول دون استراتيس ولكن صاحب القارب أكد لها بأنه رآه فى قارب آخر يذهب الى الباخرة ليلحق بمن فيها فلم تجد بدا من أن تذعن وأنزلت الأمتعة وسارت مع الآخرين ٠

لم يكد يلمحها فارلاميس هو وصحبه وحدها ويدركون حقيقة ما حدث حتى استشاط غضبهم وثارت ثائرتهم وأوشكوا أن يقضوا عليها خنقا ٠ أراد فارلاميس ومعه روذاكى أن يعودا الى الشاطىء ولكن ذلك أصبح من غير المستطاع اذ ان الباخرة قد صدرت اليها أوامر السفر فمنعت الخروج وأخذت تسير وئيدا لكى تنتقل الى الميناء الخارجية ٠

وكان وقتا حاسـما وبرهة عصيبة ـ حان الظهر واستوت الشمس في كبد السماء وأفرغت كل ما لديها من أشـعة فصهرت معادن الباخرة وأحالت الريح الى سموم يشوى الوجوه وغدت صفحة الماء كلوح من الأردواز المعدني يعكس تلك الاشعة فيغشى الأبصار ·

وظن الجميع أن أمرا خطيرا وقع لاستراتيس فحال بينه وبين العودة ولكن بقية من الامل استمرت تداعب خيالهم فمكث فارلاميس وزوذاكي وايريني وقوفا على ظهر الباخرة يقطعونه جيئـة وذهابا وينظرون فى لهفة الى كل القوارب تتهـادى فى مشـيتها على سطح البـحر علهم يرون ظله · وحينما أخذت الباخرة تتقدم الى عرض البحر نفـد صبرهم وفقـدوا كل أمل وغشى الدمع أعينهم · وأوت ماريا ومعها بلينو الى زاوية من زوايا الباخرة يرتعدان فزعا ويذرفان الدمع الغزير في حالة تسـتدعى الرحمـة والرثاء · لم يحـدث لاستراتيس ما توقعوه ولكنه حيل بينه وبين العودة بسبب مظاهرة سدت عليه كل منافذ الميناء بعد أن حمل متـاع ماريا ونقودها فى طريقه الى الباخرة وكان من بين المتظاهرين حميدو الذى يعرفه تماما والذى أشـار اليه خلسة بأن يختفي عن أعين الثـائرين · وانتهز حميدو فرصة التخلف لحظة عن المتظـاهرين ليعود الى استراتيس ينصحه بالعودة الى المنزل والانتظار ريثما تخـف حدة هذه الثورة وبعد ساعة رجع حميدو الى المنزل ليخبر استراتيس بأن يقطع الامل في السفر اذ أن الباخرة قد وصلت فى طريقها الى عرض البحر وان الثائرين قد سدوا كل منافذ الميناء · فزع استراتيس لهذا الخبر وتملكته الوساوس والأوهام وتخيل ما يكون عليه خاله من جزع لتخلفه فدارت به الدنيا وعصف به الحزن ولكن حميدو حاول ونجح فى محاولته أن يهدىء من روعه ويطمئنه على حياة آمنة مستقرة فى الاسكندرية وأن يرعاه بنفسه ويتحمل عنه كل ما يمكن أن يجيىء من متاعب أو أذى ·

وبالرغم من ذلك فقد قضى استراتيس ليلة أشبه بليالى المحموم كان تفكيره مشتتا ونومه منقطعا ولكنه حينما استيقظ في الصباح أحس بشيء من الارتياح ووجد في نفسه العزيمة على احتمال ماعساه يجد من الامور ·

كان حميدو العتال الأول لدى أريستوتيلى بأندروبولو المالك للوكالة التي يقطنها فارلاميس وكان اريستوتيلى هذا من تجار أدوات البواخر كالحبال والاخشاب وقطع الحديد وبراميل الزفت وكان يتخذ من حوش الوكالة مخزنا لتلك الادوات وقبل أن يهجر الاسكندرية ويرحل الى الخارج وكل حراسة ما يملكه الى حميدو والى بواب الوكالة وإلى رعاية الله

كان حميدو في عنفوان شبابه وكان يلقب بفتوة الحي في الخامسة والعشرين من العمر أسمر اللون متوسط القامة كثيف الشعر مع سواد حالك وتموجات طبيعية مستدير الوجه دائم الابتسام · وقد منحه الله قوة في العضل تدهش كل من يراه فكان يرفع بيديه دون تردد ولاابطاء أثقل براميل الزيت أو القار ليضعها في صفوف عالية منتظمة أو لينزل بها من أعلى كي تأخذ مكانها على عربات الأيدى ·

كان يعمل من الصباح حتى المساء حافي القدم ويرتدى ثوبا أزرق واذا ما فرغ من عمله اتجه الى الحي الذى يقيم فيه خلال حوارى ضيقة متعرجة وقبل أن يصل الى البيت يعرج على «حنفية» شعبية ليزيل ما تراكم عليه من أتربة وأوساخ طول اليوم بواسطة قليل من الماء وقطعة من الصابون قد أعدهما له موظف « الحنفية » من قبل شركة المياه ثم يمضى الى البيت فيتناول طعام العشاء الذى هيأته له والدته قائما ويستبدل ثوبه الأزرق بثوب آخر أبيض ويدس قدميه المصبوغتين بالحناء في حذاء أصفر ويخرج للسهر والسمر مع

أصدقائه . وكان من بين هؤلاء يوناني من القبارصة أسمر اللون في شحوب ذو عينين سوداوين قد هجر الدين المسيحي واعتنق الاسلام وأطلق على نفسه اسم محمد بعد أن كان اسمه ديمترى . واعتادوا جميعا أن يقضوا أمسـياتهم فى أحد الأحياء النائية طورا في هذا وآخر فى ذاك . وهناك يجتمعون فى احدى المقاهى الصغيرة البعيدة عن أعين الرقباء حيث يتبـادلون « الجوزة » فيما بينهم للتـدخين ويقصون ما تجود به قرائحهم من نوادر وطرف . وحينما تستهويهم اللذة وتثيرهم وتتـحرك فيهم شـياطين الغرائز يطلبون قطعة من «الحشيش» فيفوح عبيرها فى كل الازقة المجاورة وتوقظ فيهم كل ما يملكون من حساسية ثم تنقلهم الى عالم آخر لايقارن بعالم الحقيقة كله لهو ومرح كله لذة ومتعة كله اشـعاع وضياء . واذا ما نظرت اليهم فى هذه اللحظة لمحت فيهم أعينا براقة ونظرات حادة لا تكاد تبرح أهدافها كأنها شدت بأوتار وعندئذ يهجرون أماكنهم متجهين الى سوق اللذة فى حى اللبان حيث تتفتح أمامهم أزقته التى لا حد لها وحواريه التى لا تنتهى وهناك يجدون بائعات تلك اللذة على أبواب بيوتهن وفى أضواء الشـموع الخافتة يعرضن بضاعتهن ويستقبلن روادهن .

كان حميدو يلقب بالفتوة وقد أتيح له أن يحتفظ بهذا اللقب مادام فى مقدوره أن يتحدى انداده ويتغلب عليهم فيميدان المصارعة وكان ميـدان المصارعة يتخذ عادة من مكان رحب من أماكن الحى حيث يجتمع المصارعون والنظارة معا فيكونون دائرة فسيحة يقف المصارعان فى وسطها وأغلب النظارة من أولئك الذين نشئوا نشأة شيطانية لم تتعهد تربيتهم بيئة طيبة ولا تعليمهم مدرسة صالحة .

وهناك يتجرد المصارعان من ملابسهما ماعدا السروال ثميتقدم كل منهما نحو صاحبه في هدوء وحذر قد امتدت رءوسهما ككبشين يستعدان للنطاح وخرجت من أعينهما نظرات حادة كأنهـا تتلمس

الفرصة لمصرع الغريم ولم يكادا يقتربان حتى يأخذ أحدهما بعنق صاحبه فيضمه اليه فى قبضة من حديد ثم يتناطحان فى قوة وعنف مرات متوالية ولا يفترقان بالرغم من سيلان الدماء حتى يكل أحدهما وتهن قواه فيسقط على الارض فى غشية تشبه غشية الأموات •

وحينما عم سخط المصريين ضد الاجانب لم يكن حميدو ينظر اليهم أو يحمل نفسه تجاههم غير ما يصنع مواطنون الا أنه كان يحس احساسا آخر فمنطق الشرقى فى نظره يخالف منطق الغربى اذ ان الشرقى لا يؤمن بالمبادىء المطلقة ايمانا أعمى وانما العبرة بالاشخاص الذين هم من حوله وما هم جديرون به من عاطفة بالحب والاحترام أو شعور بالسخط والمرارة • ولم يعرف الشرق طرازا من الناس كما عرف الغرب طراز روبسبيير كان سخط حميدو اذن لا ينصب على كل الاجانب دون استثناء فكان من بينهم من يجلهم ويحبهم أمثال أريستوتيلى باندوبولو الذى كان يعمل عنده ذلك لانه عرفه ووجد فيه ربا لنعمته ولمس من معاملته له شعورا انسانيا كريما •

كان حميدو يعرف استراتيس من يوم وصوله الى الاسكندرية وكان يراه كلما دخل أو خرج من الوكالة ويسمعه ينطق ببعض الكلمات العربية التى حفظها ووعاها سواء من حميدو نفسه أم من غيره من الشبان المصريين •

وذات يوم لقنه شاب طائش يهودى المزاج عبارة منافية للأدب ملقيا فى روعه بأنها عبارة عن تحية كريمة فوعاها واعتز بها لتكون تحية لأول شخص مصرى يلقاه وكان ذلك الشخص هو حميدو • ولم تكد هذه العبارة تقرع سمع حميدو حتى دهش واعتراه كثير من الذهول ولكنه لم يلبث أن تبين فى استراتيس البراءة وحسن النية فانفرجت أساريره وانفجر ضاحكا ومنذ تلك اللحظة أحبه واتخذه صديقا وخدنا •

وبعد شهر من مذابح الاسكندرية أبدى عرابى رغبته فى تجنب الاصطدام مع القوات الاجنبية على شرط ألا يتنازل لهم عن شيء يقلل من هيبته أو يمس حقوق وطنه ·

ولم يكن لتركيا من القوة فى ذلك الوقت مايمكنها من الضغط على مصر فتركت الامور تسير كما تشاء لها الظروف · وأما انجلترا فقد صممت مهما كلفها الثمن على أن تخمد ثورة عرابى ولكيلا تتحمل وحدها مسئولية ذلك الخطر الجسيم قبلت من فرنسا أن تشترك معها فى اخماد تلك الثورة ما دامت تعترف بالمصالح الفرنسية الخاصة فى مصر · وفى أثناء ذلك أخذ عرابى يقوى دفاع الاسكندرية فأضاف على حصونها مدافع جديدة وجند آخرين امعانا فى الحيطة ولكن أمراء الأساطيل الأجنبية لم يمهلوه فبعثوا اليه بانذار يطلب تسليم الحصون · ولم يتردد عرابى فى رفض هذا الانذار وعندئذ أصدرت الحكومة البريطانية أوامرها الى أسطولها بتدمير تلك الحصون وكان السؤال الذى يتردد على الأفواه اذ ذاك هو هل سيساهم الاسطول الفرنسى فى هذه المعركة ؟

وفى اليوم السابق على ذلك اليوم التاريخى الذى ضربت فيه الاسكندرية بالمدافع الثقيلة من الاسطول البريطانى · خرج من الميناء كل البوارج الحربية والسفن التجارية التابعة لبلاد أجنبية تلبية لأمر أصدره الاميرال البريطانى وابتعدت عن الشاطىء كل هذه السفن وتلك البوارج بمسافة لا تسمح لطلقات مدافع البر بالوصول اليها · ورحل على ظهر هذه السفن قناصل الدول الاجنبية وموظفوهم ومن استطاع من رعاياهم وذلك لكى يتجنبوا العواقب الوخيمة لتلك المعركة ·

ولقد حظى بضعة آلاف من الاجانب بتتبع خطوات هذه المعركة الخالدة ومشاهدتها بأعينهم كمتفرجين وأثناء الليل خرجت البوارج

الفرنسية فجأة من الميناء واتجهت الى عرض البحر وكان ذلك بأمر من الحكومة الفرنسية التى لم ترد أن تمضى فى الخطة الانجليزية فوضعت حدا لمساعدتها للانجليز •

بقى اذن الاسطول البريطانى وحده وأخذ الناس يتساءلون هل سيمضى مع ذلك فى المعركة غدا ؟

وفى صبيحة يوم ١١ يوليو حينما ارتفعت الشمس فوق أفق منطقة الرمل استتنار جانب من المدينة التى كانت تكسوها طبقة كثيفة من الضباب فاتضح للاسطول البريطانى الحصون المنتشرة على طول الشاطىء • وعندئذ اتجهت البوارج البريطانية السبع الى عرض البحر منفصلة بعضها عن بعض ومكونة بذلك ثلاث فرق بحيث تستطيع هذه الفرق أن تضرب معا وفى وقت واحد التحصينات الشاطئية فى المكس وفى رأس التين وكذلك الحصون فى قيايتباى وفى السلسلة • وفى السابعة صباحا بالضبط دوى فى الفضاء قصف مدافع البارجة الرئيسية فكان ذلك ايذانا للبوارج الاخرى باطلاق مدافعها وارسال حممها فاندفعت كل بارجة الى التصويب نحو أهدافها • وفى خلال ساعتين كانت المدينة وشواطئها وفضاؤها عرضة لهزات عنيفة من أثر قصف المدافع وانفجار القنابل •

ولم يرهب ذلك من كان فى الحصون والقلاع المصرية من جند بل أجابوا على هذه الطلقات بالمثل فى جرأة فائقة وشجاعة نادرة غير أن أغلب تلك الحصون قد التزم الصمت بعد فترة من الزمن أمام طلقات البوارج البريطانية التى كانت تتساقط كالمطر • وصمدت أمام هذه البراكين المتفجرة من البحر قلعة السلسلة القوية فبقيت تدفع وحدها عن المدينة وعن سمعة الجيش المصرى وتمنع البوارج البريطانية من الاقتراب الى الشاطىء طيلة النهار ولقد قتل كل من كان فى هذه القلعة من الجند وحل محلهم آخرون ثلاث مرات فى

ذلك اليوم . وفى نحو الساعة الاولى بعد ظهر ذلك اليـــوم سقطت طلقة بريطانية على مخزن الذخيرة فى قلعة قايتباى فانفجرت القلعة وتناثرت فى الفضاء جوانبها .

وبينما كانت كل بارجة تقوم بمـــا وكل اليها من مهام صدر الأمر الى قارب حربى صغير لكى يتجه وحده الى حصن مارابو الذى كان فى أقصى الغرب من شواطىء المدينة والذى استمر بضرباته يمنع البوارج البريطانية من الاقتراب الى الشاطىء ولما ضاقت المسافة بين هذا القارب والحصن وجد البريطانيون انهم فى خطر أمام الضربات المحكمة القـــوية التى تنطلق من تلك القلعة الصغيرة . ولولا دقة الملاحظة التى أظهرها قائد القارب لقضى على قاربه ومن فيه ولتغيرت نتيجة المعركة . لاحظ ذلك القائد ان ضربات المدافع التى تنطلق من ذلك الحصن لا تتغير أفقيا بمعنى أن مدافع الحصن تتحرك من أعلى الى أسفل دون أن ينحرف مرماها الى اليمين أو الى الشمال ومن هنا استطاع القـــائد البريطـانى أن يتجنب بقاربه مرامى تلك المدافع ويدخل وهو آمن الى مـكان قريب من الحصن ويصـــوب بمدافعه الصغيرة الى مصدر الطلقات من ذلك فيسكتها ولم يجد بعد ذلك عناء فى أن ينزل برجاله العشرة الى الشاطىء ويستولى على هذا الحصن بسهولة .

ولم يكد يجيىء الليل بعد ذلك النهار حتى كانت كل الحصون قد دمرت ولم يكن يرى أمام أضــواء البوارج الكاشفة سوى أطلال تلك الحصون الغارقة فى الدخان .

ولم يخرج استراتيس من المنزل بعد أن سافر ذووه . وكان حميدو يقوم باحضار ما يلزمه من طعام وشراب وكان قصف المدافع يدوى فى المدينة فتهتز له الحجرة التى كان يقيم فيها وكأنها سلسلة من الزلازل لا تنقطع ولم ينس أبدا ذكرى تلك اللحظة الاليمة التى

انفجر فيها مخزن الذخيرة فى حصن القضا فخيل اليه أن المنزل ومحتوياته سيسقط على رأسه ٠

ولم يكد ينقطع دوى الطلقات ويعود السكون الرهيب الى المدينة حتى استولى على استراتيس شعور من الغبطة والعجب مصدره انه لا يزال حيا ٠ غير ان آذانه بقيت فى صمم ورأسه فى حالة دوار ٠

وفى المساء دخل حميدو ولكنه لم يكن باسما كعادته فرآه استراتيس للمرة الاولى محزونا كئيبا لا يلفظ ببنت شفة وبعد فترة طويلة أخذ يقول :

ـ ان الحالة فى غاية الخطورة ففى هذه الليلة أو فى الغد ستحرق المدينة ٠

وكان يمسك بيده لفة هى عبارة عن «جلابية» ثم قال بعد أن فتح اللفة ومد اليه يده بما فيها :

ـ اخلع ملابسك يا استراتيس والبس هذه « الجلابية » ٠

وسأله استراتيس :

ـ ولم هذا ؟ فقال حميدو :

ـ سآخذك عندى فهنا خطر عظيم ٠

وبدون أدنى معارضة فعل استراتيس ما طلب اليه ثم نزلا فى شارع مقفر مظلم ومن خلال أزقة وحوارى خرجا معا الى الحى الذى يقطن فيه حميدو ووصلا الى المنزل حيث كانت أم حميدو وحدها فى حجرة صغيرة يبدد ظلامها ضوء مصباح ضئيل قد وضع فى ركن من أركانها ٠ ونام كل منهما على قطعة من الحصير قد حالت بين أجسادهما وبين البلاط ٠

وفى الفجر نهض حميـدو من نومه دون احداث أية ضوضاء حتى لا يسـتيقظ من بجـانبه خرج من الحجرة ليذهب الى منزل باندوبولو • كانت المدينة هادئة ولكن عند الظهيرة بدأت جماعة من الغوغاء تشعل النار فى مساكن الأوروبيين وحوانيتهم وتنهب ما فيها وكان ذلك بصفة خاصة فى ميدان القناصل وفى شارع شريف باشا وفى طريق الرمل وفى ميدان سانت كاترين وفى حى الميناء •

كثـير من هؤلاء الغوغاء كانوا يخشون نزول البريطانيين فى المدينة ففروا خارجها وهم يحملون ما نهبوه من أمتعة • غـير أنهم لم يكادوا يضعون أقدامهم خارج أسوار المدينة حتى وقعوا فى كمين قد نصبه العدو فقتلوا وأخذ ما معهم من المسروقات •

كانت المدينة كلها مكسوة بطبقة من الدخان الاسـود حينما وقف جمع من الغوغاء أمام منزل باندوبولو وأخذوا يدقون على بابه الكبير المغلق الذى يجلس من خلفه حميدو والبواب • وعندما فتح البواب الباب الصغير الواقع فى وسط الباب الكبير رأى مايقرب من ثلاثين شخصا قد أمسك بعضهم بقطع من الخرق وبصفائح من الغاز وتسلحوا جميعا بعصيهم الغليظة التى تعرف ب «النبابيت» وبقضبان من الحديد • ولم تكد أعينهم تقع على البواب حتى صاحوا فى وجهه «افتح الباب» وعندئذ فتح حميدو الباب وخرج لهم على الرصيف • كان يعرفهم جميعا على وجه التقريب وعرف من بينهم بعض خصومه أو منافسيه وبصـفة خاصة واحدا كان قد نازله فى معركة بضرب الرأس •

وسألهم حميدو :

ـ ايه طلبكم « يا جدعان ؟ »

ولم يفرغ حميدو من القاء هذا السؤال حتى أحاطوا به جميعا وقالوا :

ـ عاوزين نحرق مخزن «النصراني» وواجب عليك تساعدنا فى « كده » ٠

ـ أنتم تعلمون أننى أجير عند هذا « النصرانى » وأنه لم يؤذ انسانا ٠

وحينئذ تصدى رئيس العصابة فقال :

ـ ما هـذا الـكلام ياحميدو كل النصارى سواء ٠٠ حرقونا وقتلونا وانت لا تزال تدافع عنهم ٠

وارتفعت أصوات من حوله تقول :

ـ مافيش مناقشة اشعل اللهب أولا ٠

راقترب الخصم القـديم من حميدو وقـــد انتفخت خياشيمه بالهواء وصرخ فى وجهه قائلا :

ـ يا خاين

ولم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى انبرى له حميدو فمسكه من ثيـــابه فوق بطنه فرفعه فى الهواء وألقى به على الأرض بعيدا عنه بنحو متر من المسافة ٠

جرى ثلاثة أو أربعة نحـو حميدو وأمسكوا به فشلوا حركته بينما اندفع الآخرون الى الداخل فحطموا باب المخزن ودحرجوا بعض البراميل المملوءة بالشحم والزيت الى صـــحن الدار وأشعلوا فيها النار ٠

استطاع حميدو أن يتخلص من قبضة خصومه القوية وجرى الى الداخل وهو يصرخ فيمن كان هناك :

ـ بس انت وهوه وأخذ يدفع ويركل كل من يلقاه من أولئك الذين يشعلون النار غير ان واحدا منهم تمكن من خلفه بضربة قوية بعصـــاه الغليظة على رأسه هوى حميدو بعدها علي الارض يصارع الموت من شدة الألم •

غير ان هذا الصنيع لميرق في نظر رئيس العصابة الذى لميكن ان أهدافه على الاطلاق قتـــل المواطنين المصريين ، ولما لم يكن لدى رئيس العصابة من الوقت ولا من الرغبة ما يسمح له بفحص حالة حميدو فقد أمر رفاقه بأن يكتفوا بما صنعوا وأن يخرجوا من هذا البيت ليشعلوا النار فى بيـوت أخرى وارتفـــع اللهب في المخزن ولكنه لم يمتد الى مبنى المنزل بسبب التضحية الباهظة التى قدمها حميدو •

ولم يكد يبتعد الثـــائرون حتى ظهر البواب الذى اختفى من ميدان المعركة وحمل حميدو على ظهره ليضعه في بيت مصرى مجاور •

وفى الغد نزل بعض البحارة من البريطانيين واحتلوا المدينة • ومنذ تلك اللحظة بدأ الاحتـــلال البريطـــانى لمصر • وبعد نزول الانجليز نزل جماعة من البحارة اليونانيين ليمكثوا فى المدينة يوما واحدا • أما عرابى فقـد انســـحب بجيشه الى خارج المدينة وبدأ يحـــاول فتحها من جديد ولكن الانجليز وقد تحصنوا فى الداخل تمكنوا من رده كلما حاول دخول المدينة واستمرت الحرب بضـعة أسابيع حتى استطاع الانجليز أخيرا أن يتغلبوا على عرابى فى منطقة القنال •

وصدر حكم الاعدام على عرابى وعلى كبار الضباط فى جيشه • ونفذ حكم الاعدام فى ضابط واحد لانه اتهم بحرق مدينة الاسكندرية اما الحكم على عرابى وعلى ضباطه الآخرين فقد استبدل من الاعدام الى

النفى • وفرض على الحكومة المصرية أن تدفع تعويضا لكل من نكبوا فى تلك المعارك •

وفى نفس اللحظة التى وصل فيها الى استراتيس خبر اصابة حميدو بادر بسرعة الى المستشفى اليونانى حيث اتصل بطبيب كان يعرف اسمه عن طريق روذاكيس وتوســـل اليه ان يذهب لزيارة المصاب • ولبى الطبيب هذا الرجاء فتعهد بكل ما يلزم من وســائل العلاج ولم يغمض عينه عن تلك العناية حتى برئ حميدو من كل ما كان يشكو منه •

وفى أثناء ذلك وصل تلغراف من فارلامس بعث به من أثينا يطلب اخبارا بخصوص استراتيس ووصله الرد مطمئنا فسعد به كما سعد به أصدقاؤه •

أخذ الأجانب الذين غادروا مصر يعودون اليهـــا وفى أواخر سبتمبر أمكن أن يعود فارلاميس وصديقته وأولادها وماريا وروذاكيس وايرينى ومعهم أيضا بلينو •

وبدأت الاســـكندرية تكتسى حلة قشيبة من سرورها المعتاد ومرحها المألوف ولكنها أيضا بدأت وهى نشوة من نجا من الخطر تعمل فى نشاط متزايد لتضمد جروحها وتستعيد حياتها •

ولم يكن هناك ما يبعث على الندم ويحز فى نفس استراتيس سوىشىء واحد وماعدا ذلكالشىء فقد آل أمره اما الى اصلاحماافسد واما الى نتيجة حميدو ذلك الشىء الوحيد هو ان تلك الأحداث منعته من زيارة أسرته فى جزيرتهم ولكنه مع ذلك كان يكتب اليهم ما بين الفينة والفينة ليخبرهم بكل ما يحدث له أو يحدث من حوله • وكان من قوله لهم أحد خطاباته « اننى لا اكاد أدرك حتى الآن كيف نجونا من تلك الأهوال التى فاجأتنا • »

الفصل الخامس

كان الحظ حليف ستراتيس فى العقدين الأولين من حياته وقد تجلى ذلك فى أربعة مواقف . الأول أنه لم يولد غبيا ولا سقيما والثانى أنه بعد أن هجر وطنه ورحل الى مصر وجد بجانبه خالا يأويه ويحنو عليه كما يحنو الوالد على ولده . والثالث أنه صادف فى الوسط الذى يعيش فيه أستاذه ومربيه روذاكيس الذى هذبه تهذيبا حسنا وثقفه ثقافة واسعة . أما الموقف الرابع فسيبدو أثره بعد قليل .

غير ان الحظ وحده لا يكفى لاسعاد الناس فهناك من يواتيهم الحظ فى حياتهم ولكنه سرعان ما يفلت من أيديهم دون أن يظفروا به أو يحرزوا لأنفسهم من وجوده نصرا بل ان هناك من يضطهدهم الحظ ويعلنها عليهم حربا شعواء لا هوادة فيها ولا رحمة فيضطرون الى الجهاد وفى أثناء ذلك يغنمون قوة وعزيمة وارادة وثباتا وصبرا وبفضل هذا الغنم ينتصرون فى تلك الحرب ثم يسعدون بعدها سعادة

قد لا يدكونها لو لم يصادفهم سوء الحظ فى الحياة·واذن فقد ينعكس الأمر وينقلب سوء الحظ الى حظ فالشأن في ذلك كله خاضع الى كفاح المرء وجهاده ثم الى الهـــدف الذى يرمى اليه من وراء ذلك الجهاد ·

كانت أبرز صفة لدى استراتيس هو ما فيه من حيوية ولقـد ورث هذه الصفة من آبائه وأجداده ثم من طبيعة الجزيرة التى نشأ فيها وقضى أيامه الأولى تحت شمسها اللافحة · كانت هذهالحيوية مضـــافة الى ما طبع عليه من ألفة وكبرياء ســـببا فى أن يأتلف مع الأرض الجديدة التى نقل اليها لكى تثبت فيها قدمه وينمو فوقهـا عوده ·

ان أول مرة يشعر فيها بسعادة المال كانت فى ذلك اليــوم الذى قال فيه فارلاميس بعد أشهر من وصوله الى الاسكندرية ·

ـ ألا ترسل شيئا لأبويك ؟

كان استراتيس يفكر فى هذا ولكنه لم يكن يتجرأ على أن يبدى الطلب من جانبه أولا كما كان من عادة الشبان الذين هجروا أوطانهم وألفوا حياة الاغتراب أن يرسلوا لأهليهم قدرا من المال رغبة فى اعانتهم وارضاء لشىء من الطموح يملأ صدورهم وأملا فى أن يعرف سكان القرية هذا عنهم ويتحدثوا بشأنه فيما بينهم وكان على عكس ذلك من لا يرسل شيئا لأقربائه اذ تسوء سمعته وتتناوله بالذم الألسنة ثم يتهم بالقطيعة والعقوق والكفران ·

أرسل استراتيس جنيهين من الذهب الى والديه مع أحـــد المسافرين الى جزيرته ولم يكد الأبوان يتسلمان أول هدية من ولدهما حتى ملأ خبر ذلك كل الجزيرة وأفعم قلبهما تأثرا وكبرياء ·

كان كلما خطا خطوة فى التعليم أحس بسعة الافق الذىيعيش فيه كما كان في كل خطواته مفعما بالحماسة وممتلئا بالثقة فى النفس ، وكان مع ذلك يدرك تماما أنه يعيش فى بلد غير بلده وفى وسط غير الوسط الذى قضى فيه أيامه الأولى وأنه مقدر عليه أن يدرس هذا كله لكى يمتزج بهذا العالم الجديد ويستغل فيه مواهبه وامكانياته ٠

وكان من أثر الدراسة أن اتسعت آفاق معارفه ورقت طباعه وهذبت أخلاقه فترك كل أثر من آثار القرى وهجر ما كان يبدو عليه من عادات القرويين وتكونت لديه حاسة الذوق الرقيق بل لقد تناول هذا التغيير ملامح وجهه فدقت وسمحت وكسيت بمسحة جديدة من الجمال ٠

كان متوسط القامة أميل الى الطول وكان يبدو فى شبابه نحيفا وكنت تلمح بريقا ينبعث فى هــــدوء من عينيه الزرقاوين الصغيرتين المستديرتين فتحس من خلال ذلك البريق قوة وصرامة وكان اذا غضب تالق هـــذا البريق واشتد حتى ليخيل اليك أنه شرر ٠ وكانت رأسه الكبيرة لا تتلاءم مع ملامح وجهه الوديعـــة ولكن هذا التباين وعدم الانسجام كان يشرح شيئا من شخصيته ويفصح عن بعض ما خفى من خلقه وفوق ذلك كله كنت تدرج فيه براءة الطفولة التى تتحفز لتتقمص معانى الرجولة ٠

لم يكد يبلغ الثامنة عشرة من عمره حتى احس بشىء من الفراغ فى نفسه لا يملؤه سوى الحب ولكن أين السبيل الى ذلك وهو يضطرب خجلا وحياء حينما يكون مع المرأة ؟ ولشد ما كانت تتوق نفسه الى معرفة المرأة ذلك المخلوق الذى تحوطه حـــالة من السر والغموض والخفاء ولم يقلل من تلك الرغبـة فى معرفة المرأة ماكانيسمعه عنها من أمور وضيعة وتصرفاتشائنة منأصدقاء

طفولته فى الجزيرة ولا ما كان يراه منها من مناظر مخجلة ويلاحظه من مفاجآت مريبة طورا فى زوايا بار خاله وطورا آخر في خبايا شوارع الاسكندرية • ولولا ما تعوده من السيطرة على النفس وكبت جماح الهوى لشط به الخيال فى تصوير المغريات واستسلم لدوافع الغرائز وانزلق فى مهاوى الشهوات وكان يزيده منعة وعصمة فوق ذلك عشرته لخاله ومخالطته لأمثاله من الأصدقاء وتقبله فى كثير من الرضى للنصائح الخلقية التى كان يبثها فى نفسه أستاذه روذاكيس •

لم تكن رغبة استراتيس اذن فى التقرب من المرأة صادرة عن الغريزة المجردة بل كانت رغبة صادرة عن احساس رقيق وشعور كريم • كان يريد أن يقترب منها ويدرك ما فيها من سحر وما لها من فتنة عن طريق الحب فهل سيجىء اليوم الذى سيصادف فيه ذلك الحب ؟ ربما ومتى ؟

عندما بلغ استراتيس التاسعة عشرة من عمره وكل اليه خاله ادارة « البار » اذ أن تقدمه فى السن واحساسه بالتعب جعلاه يركن الى الراحة وينشد شيئا من الهدوء أصبح فى حاجة اليه بعد طول العمل المرهق وكان فوق ذلك يرى فى ابن أخته كفاءة وجدارة يضمنان مستقبل « البار » والنجاح فى سير التجارة ومنذ تلك اللحظة أصبح استراتيس يرى من واجبه أن يمون « البار » ويشترى هو بنفسه ما يلزم من حاجيات •

وفى صبيحة أحد الأيام •• وقد كان يناهز العشرين اذ ذاك — صعد الى المنزل ليخلع لباس العمل ويرتدى حلته ذات اللون البنى ليذهب الى السوق وكان مع هذه الحلة الانيقة يلبس قميصا أبيض ذا ياقة متماسكة براقة ورباطا جميلا للرقبة وقبعة تتناسب فى لونها وبزتها مع ما يرتديه من لباس وكان لا يغتفر لنفسه الاهمال فى الزى ما دام قد أصبح يمثل خاله أمام عملائه وعارفيه •

كان من بين التجار الذين يمدون «بار» فارلاميس بما يلزم من بضاعة السيد ثناسى كسافيليس الذى يملك بقالة وبارا فى شارع يتعارض مع شارع شريف باشا · والذى يستورد بضاعته من الخارج مباشرة وبكمية موفورة بحيث يستطيع أن يبيع جانبا منها بالجملة الى صغار التجار ومتوسطيهم · وكان رواد هذه البقالة وذلك البار من الطبقة الميسورة الحال الأنيقة المظهر بحيث لايشك من يراهم فى أنهم من أرقى طبقات الاسكندرية ·

وكان كسافيلى نفسه يجلس عادة لادارة هذين المحلين فى مكتب صغير قد أعده داخل حجرة من الزجاج فى وسط البقالة بحيث يستطيع فى سهولة أن يراقب كل حركة تجرى فى البقالة والبار معا ·

وفى ذلك الصباح اتجه استراتيس الى بقالة كسافيلى ليطلب اليه بعض ما يحتاجه البار من بضاعة وهناك استقبله تاجر الجملة استقبالا حسنا وأجلسه فى مكتبه الخاص ثم قدم اليه فنجانا من القهوة وذلك لأنه لا يزال يحفظ فى نفسه كثيرا من الود والمحبة بالنسبة لفارلاميس الذى عرفه منذ الصغر وعاشره عشرة طويلة اذ كانا يشتغلان معا فى أحد المتاجر كأجيرين بسيطين · أخذ كسافيلى يستعيد شيئا من هذه الذكريات أمام استراتيس عندما سأله عن خاله دلفت الى البقالة فتاة مملوءة شبابا ونضارة كانت سمراء اللون وفى عينيها جاذبية قوية لم يعهدها الفتى فى غيرها من الفتيات ثم قالت بصوت ذى رنين :

ـ أبى لقد وصلت ايفتيربى ومعها طفلها ألا تجىء لتراهما ؟

لم تكد هذه الفتاة تبدو فى فضاء البقالة حتى أحس استراتيس لمرآها بخفقان فى قلبه ولم يمهله كسافينى لكى يسترجع حالته الطبيعية الأولى اثر ذلك الخفقان فقال :

ـ معذرة استراتيس لقد جاءت ابنتي الكبرى من المنصورة وهأناذا خارج على عجل لرؤيتها ٠

خرج استرانيس الى الشارع ولا يشغل تفكيره وذهنه سوى صورة تلك الفتاة التي ملكت كل قلبه ٠ وكان لايرى في كل محيطه غيرها وكان في دخيلة نفسه لا ينظر الى سواها مكث طيلة يومه واليوم الثاني وصورتها ماثلة في خياله قلبه مفعم بلذة وسرورلايدوى مداهما ولا يستطيع لهما تكييفا ٠

وفي نفس اليوم التالي لرؤية تلك الفتاة عرف استراتيس من أحد جيران كسافيلي انها صغرى بناته وأنها في السادسة عشرة من عمرها وانها لا تزال تلميذة في مدرسة الراهبات الفرنسية سان فانسان دي بول وأنها تدعى بونيكسيني ٠ وبعد أن عرف استراتيس ذلك زاد اليها ظمؤه ولم يستطع الصبر على عدم رؤيتها فذهب بعد ظهر ذلك اليوم ينتظرها خارجة من المدرسة في زاوية شارع الراهبات مع شارع نوبار ٠

أما بوليكسيني فلم تصنع حينما رأت استراتيس في بقالة أبيها سوى أن امعنت فيه نظراتها ولاحظت بدقة ما طبعه مرآها في وجهه من ملامح ثم بعد أن خرج الى الشارع سألت والدها عمن يكون هذا الفتى فأجابها :

ـ انه استراتيس فالانوس وهو شاب طيب الأحدوثة وهو يدير الآن بار خاله في شارع الديوان ومصير هذا البار اليه دون شك ٠

ولم يكد الوالد يفرغ من الجواب على سؤالها الأول حتى لاحقته بسؤالها الثاني

ـ وأين والداه الآن ؟

ـ انهما فى الجزيرة ·

ولم تكد بونيكسينى تلمح استراتيس بعد خروجها من المدرسة حتى اضطربت لمرآه واعتراها شعور غريب ·· وللحب طرق عديدة يعرف كيف يتسلل منها الى قلب الانسان ·· ولكن هذا الشعور كان فجائيا اذ ان ذكراه لم تعلق بخيالها بعد أن لمحته فى بقالة أبيها ولو انها لم تره ثانية لنسيته تماما بل ولجهلت وجوده فى الحياة ·

خرجت بونيكسينى مسرعة من المدرسة تاركة وراءها صديقاتها من التلميذات لكى تدرك أختها ايفتيربى قبل أن تغادر المنزل لزيارة بعض الأسر · كانت تلبس ثوب المدرسة الاسود بياقته العريضة البيضاء وكان يغطى رأسها قبعة من القش عريضة الحواف · وحينما رأت استراتيس يتقدم نحوها احمرت وجنتاها ونظرت اليه فى حرارة وشغف ولهفة ثم تراءى على شفتيها خيال ابتسامة خجولة أشبه بشعاع من الشمس حجب الغمام فى يوم مطير ·

ولم تكد تتقدم بعد ذلك خطوة حتى أحست بشىء كثير من الندم على ما صنعت وتملكها غضب شديد ضد نفسها وأخذت تتساءل لماذا فعلت هذا ؟ وكيف يحدث منى مثل ذلك ؟ وما عسى تكون فكرته عنى بعد ذلك ؟

أما استراتيس فقد تقبل منها هذه الابتسامة كأثمن هدية يستقبلها فى حياته · انتفض قلبه كما ينتفض العصفور بلله القطر وخيل اليه منذ تلك اللحظة انه لا يسير على الارض يجرى فى روضة من الجنة قد ملأتها أسباب السعادة · ولو كان ذلك دليل حبها له فقد أحبها هو من قبل ·

وكل ما كان يشغل فكره بعد ذلك اللقاء هو أن يراها مرة أخرى وان يتحدث اليها ولكن ذلك بدا له أول الامر محالا اذ انه

لم يكن يعرف السبيل الى أن يتحدث مع الفتيات فكيف يبدأ هـــذا الحديث ؟ وماذا سيقوله لها • ؟ وبرغم ذلك فقد هيأ نفسه ورسم خطته وذهب للقائها أمام المدرسة ولم يكد يراها خارجة معصديقتين من صديقاتها فى الفصـــــل حتى ذهب لا يلوى على شىء ثم اعترض طريقهن غير ان حظه فى هذه المرة لم يكن كحظه فى المرة الســابقة اذ أن بوليكسينى نظرته نظرة عابرة فى هدوء وثبات دون أن يبدو عليها أى اهتمام وحتى بعد أن تركته وراءها لم تستدر الى الخلف لتختلس من صديقتيها نظرة اليه •

وهنا لعبت الوساوس فى نفس استراتيس وأخذ يتســاءل ما معنى هذا ؟ هل كانت مخدوعة حينما نظرتنى فى المرة الأولى ؟ لا ليس ذلك ممكنا لقد كانت نظرتها الى وكانت ابتسامتها من أجلى لم أكن واهما ولا حالما • ربما تجنبت النظر الى الآن خشية أن يفتضح أمرها مع صديقتيها •

ثلاث مرات يذهب للقائها وقت الخروج من المدرسة ويفشل فى أن ينتزع منها نظرة وعندئذ بدأ يشعر بما للحب من هم وألم وعذاب ولكنه رغم ذلك لم ييأس للمرة الرابعة ولو لم ينجح فيهـا لحاول مرات أخرى آذ أنه أصبح رقيقا لقلبه وهواه • بعد أن اعترضها مع صديقتيها كسابق عهده ، لم يتركها بل تبعها من بعد كما يتبع الظل صاحبه • حينما وصلت بوليكسينى الى بيتهـا انفصلت عن صديقتيها ثم التفتت الى الخلف فرأت استراتيس يهرول نحوها • وهناك دلفت الى مدخل البيت وانتظرت مقدمه فى شغف ولهفة اذ أن ما كان ينبعث منه من حرارة فى كل مرة يراها قد انتهى بأن يمس فؤادها فى قوة وعنف ولم يكد يلمحها خلف الباب ويدرك من نظراتها انها فى انتظاره حتى اندفع نحوها كالسهم فى مروقه وهناك لم نمهله بوليكسينى بل ابتدرته بقولها :

ـ سيدى غالانوس ماذا يعنيك من أمرى ؟ وماذا تريده منى ؟ ولماذا تتبعنى فى سيرى ؟

أسئلة ثقيلة لم يكن قد تهيأ لها وقعت عليه متابعة كقطع الثلج فانقبضت لها نفسه وضاق بها صدرا ولم يدر كيف يجيب عليها فطأطأ رأسه وأراد أن ينسحب من هذا الموقف الصعب ولكنها لاحقته بقولها :

ـ لا تنسحب اننى لم أقصد من وراء ذلك أن أجرح شعورك ثم مدت اليه يدها لتهدىء من روعه وتخفف من اضطرابه وتقدم له الدليل على انها راضية عن مسلكه .

قبض استراتيس بقوة على يدها ودون أن يلفظ كلمة واحدة أحس بأشعة من الحرارة تسرى خلسة فى جسمه من أخمص قدمه حتى قمة رأسه ولم تدع له الفتاة يدها طويلا فسحبتها فى هدوء . وانسلت كالسهم نحو السلم . لم يكن استراتيس فى حاجة بعد أن يسمع منها كلاما فقد أدرك منذ تلك اللحظة انها على الاقل لاتنفر منه ولا تبغضه ان لم تكن تحبه .

وفى غد ذلك اليوم ذهب استراتيس كعادته ينتظرها بعد الخروج من المدرسة دون تفكير فيماذا عساه يصنعه . أما هى فقد رسمت الخطة للقائه والخلوة به والحديث معه وخيال الفتاة خصيب فى مثل هذه المواقف . قالت لأمها انها ستذهب توا بعد الخروج من المدرسة الى بيت صديقة لها وقد مرضت وتخلفت عن المدرسة « اذا جرى الحب فى تكتم وخفاء كان من لوازمه الكذب. » وأمام المدرسة حيت بوليكسينى صديقاتها ثم انحرفت الى الشمال بدلا من أن تتجه معهن الى جهة اليمين وهنا أسرعت خطاها كأنها قد ارتبطت بموعد . وكما صنع استراتيس من قبل تبعها فى سيرها ثم أسرع خلفها خطاه وحينما أيقن أنه قد أصبح بعيدا عن

أعين الرقباء اقترب منها فالتفتت اليه بوليكسينى وقالت فى صوت كله اغراء وفتنة :

ـ اننى ذاهبة الى بيت صديقة لى فهل لك أن تصطحبنى ؟

لم يجبها على هذا السؤال لأنه كان مشغولا بشىء آخر مشغولا بحمى الحب التى ترعى فى أعضائه وتفقده كل لذة منذ أن رآها للمرة الأولى فما كادت تسنح له الفرصة للحديث معها على انفراد حتى أسرع فقال لها تلك العبارة التى تعود الناس جميعا قولها فى مثل هذه المواقف « أحبك يابوليكسينى » .

وكانت مفاجأة فنظرته بعينين حالمتين وارتسم على شفتيها خيال ابتسامة حلوة عريضة وساد بينهما صمت تحدثت فيه العيون والأيدى والحواس . وضعت بوليكسينى حدا لذلك الصمت بسؤالها عن حياته ومشاغله فانطلق لسانه بشكل لم يعهده من قبل وقص عليها كيف قضى سني طفولته فى الجزيرة وكيف وصل الى الاسكندرية وكيف سلك حياة العمل مع خاله وكيف عقد صلاته مع روذاكيس وايرينى وكيف كانت مجازفته وفى أى درجة يكون عرفانه للجميل بالنسبة لأستاذه .

كانا يسيران جنبا الى جنب كأنهما بمعزل عن العالم كله فلا يحسان بما هو حولهما لا يدركان مايجرى فى شوارع المدينة وأزقتها وهكذا من شارع الى آخر ومن حارة الى اخرى دون حساب للوقت ولا تقدير للظروف حتى وجدا أنفسهما فى رأس التين وسط الحى الشعبى ، مضى أكثر من ساعة عاشا خلالها فى حلم لذيذ وأمل وارف ولم يجتذب وعيهما لادراك الواقع سوى دخول الليل واضاءة الانوار وعندئذ فقط استيقظ فيهما الاحساس بالزمن وعرفا مبلغ ما صرفاه من وقت فى هذه الجولة واعتراهما جانب كبير من الفزع خشية نتيجة هذا التأخير فرجعا لتوهما مسرعين نحو البيت .

في السادسة عشرة من عمرها كانت بوليكسيني ممتلئة شبابا وتفيض صحة ونضارة • كانت تعرف ما تهوى وتدرك ماتريد لم يكن تحمسها للدراسة أكثر من القدر الضروري الذي يسمح لها فقط بمجرد الانتقال من سنة الى أخرى دون مشقة في الدراسة ولا ارهاق في الدرس • واستطاعت بهذه الطريقة أن تنهي الفصول الاربعة الأولى من مدرسة الجالية اليونانية ثم لازمت البيت ولكنها بقيت تأخذ دروسا خاصة في اللغتين اليونانية والفرنسية بواسطة صديقتين من صديقاتها دون أن تحرز فيهما تقدما ملموسا • قضت سنتين تدرس في البيت ورأى والداها في هذه الطريقة مضيعة للوقت فأشفقا على مستقبلها وأدخلاها في المدرسة الفرنسية علها تحرز بعض النجاح وتتقدم ولو بخطوات وئيدة نحو الدراسة العليا ولكنها لم تتأثر بالوسط الجديد ولم تتحمس لرغبة والديها :وكانت تعلل النفس أو تدافع عن موقفها هذا بأن المعرفة ليست وقفا على المدرسة بل يمكن الحصول عليها في مدرسة الحياة • وفي المجتمع وفي ميدان التجارب الخاصة •

كانت لاتخفي على أبويها مايعتريها من ملل في الدراسة وضيق في المدرسة وكانت لا تشك في أنها خلقت للمجتمع ولكي تكون ربة بيت وأما لأسرة أو في حدود ذلك فقط ينبغي أن تلعب المرأة دورها على مسرح الحياة وان تبرز امكانياتها وكفاءتها بين زميلاتها في المجتمع •

كانت لا تحب الرجل اذا تفاوت عنها كثيرا في السن وكانت ترى في غضاضة دائما ما حدث لأختيها ولا تبرر أبدا ما صنعتا في الزواج ـ تزوجت أحداها رجلا يتجاوزها بعشرين سنة والاخرى برجل آخر يتجاوزها بخمس عشرة سنة • كانت لا تود مطلقا أن تكون صلتها بزوجها صلة رهبة أو خشية بل كانت تريد أن تكون زميلة وصاحبة له حتى تستطيع أن تشاركه الرأي وتبدي له

النصيحة وتؤثر فيه ان دعت الضرورة لذلك • وأهم من ذلك كله في نظرها انها كانت تريد أن تحب زوجها ولكى تحبه يجب أن تختاره بنفسها لا أن يفرض عليها فرضا من أبويها كما حدث لأختيها من قبل •

كانت تنظر الى استراتيس كأنه زوجها المستقبل • وفكرة الحب المؤقت الأرعن لم تخطر لها على بال كما كانت تعتقد بأن استراتيس يدرك فيها هذا المعنى ويسلك معها نفس المسلك •

لم تكن تجهل بوليكسينى أنها بواسطة مايقدمه لها وأبوها من مهر تستطيع أن تجد زوجا ذا ثراء طائل ومكانة اجتماعية رفيعة ولكن أين السبيل الى ذلك ؟ أمن الممكن أن يترك لها والدها حرية انتقائه واختياره ؟ لم يكن يشغل بالها أو يكدر صفاء حبها أن تجد استراتيس بدون مركز فى المجتمع فهو لا يزال حديث السن وهى من جانبها ليست متعجلة وتستطيع أن تنتظر ما وسعها الانتظار • وكان المستقبل وحده هو الذى يشغلها بعد أن ثملت بخمرة ذلك الحب الذى نبت فى قلبها وأصبحت تعيش تماما فى أحلامه •

تعودا اللقاء مرة فى الأسبوع بعد أن تخرج من المدرسة وكانا فى أثناء سيرهما جنبا الى جنب على غير هدى أو تنزههما خلال شوارع المدينة لا يخشيان أعين الرقباء ولا يخافان فاحش النقد ولا قولة السوء فحداثة السن لديهما ومنظر بوليكسينى بملابس المدرسة وكتب الدراسة جعلاهما فى مأمن من أن يظن أحد بهما سوءا وفى نفس الوقت أتاح لهما فرصة أن يعرف أحدهما الآخر وان يبث كل منهما ما يجد من حرار وشوق ولهفة غير أن أحد العمال عند كسافيلى لمحهما معا فى يوم من أيام لقائهما فنقل ذلك الى والدها •

وعندئذ جن جنون كسافيلى وثارت عاصفة غضبه فمادت الأرض تحت من هم حوله • وكانت أول ضحية لتلك الثورة زوجتهفاتهمها بالاهمال وسوء الرعاية • وكانت الضحية الثانية بوليكسينىفطلب اليها فى غيظ وجفاء وقسوة أين تلقت هذه التربية التى تبيح لها الطواف فى شوارع المدينة مصطحبة شابا أجنبيا عنهـــا ودون أن ينتظر اجابتها انفجر فى وجهها سبا وتعنيفا وتأنيبا • وبقى كذلك حتى تلجلج لسانه ولم يدر ماذا يقول •

وكما كان موقف كسافيلى من هذا الحادث مشهودا فى تاريخ الأسرة فقـد كان جواب بوليكسينى كذلك على أحـد أسئلة والدها جوابا تاريخيا لا ينسى •

انتظرت بوليكسينى حتى أفرغ أبوها كل ما فى جعبته ثم جمعت كل قواها وتسلحت بالشجاعة والهدوء وحينما طلب اليها هل لديك ما تقولين الآن أجابت :

ـ هل يحرم على الفتاة أن تتحدث مع زوجها ؟

لم يكد كسافيلى يسمع جواب ابنته حتى تقطب جبينه وغلا دمه وتسمرت فيها نظراته ودبت عقارب الوساوس فى نفســـه فقال :

ـ ماذا تعنين بذلك يا قذرة ؟

ـ اننى أعنى بذلك يا أبى أن استراتيس سيكون زوجا لى فى يوم من الأيام •

ـ ومن منحك حق اختيار الزوج يا قليلة الحياء ؟

ـ لن أتزوج بدون ارادتك وقبل استئذانك •

ـ وأى استئذان بعد ذلك يا شيطانة ماد مت قد حزمت أمرك دون استشارة ووجدت وحدك يا رعناء فتى أحلامك الذى لايشرفنا ولا يليق بمكانتنا •

ـ ولكن استراتيس يا أبى أهل لكل تقدير وثناء • وقد ذكرت لى ذلك من قبل •

ـ ومتى ذكرت لك هذا يا سفيهه ؟

ـ منذ شهرين •

ـ حينما ذكرت لك هذا كنت أقصد انه جدير بالثناء بالنسبة له هو • وبالنسبة لخاله وللمكانة التى يشغلها فى المجتمع وكفاحه فى الحياة لا بالنسبة لك • ولا بالنسبة لى • ولا بالنسبة لأن يكون صهرى فى يوم من الأيام ••

ـ لاتقاس الجدارة يا أبى بالنسبة للأوساط • فالمرء اما أن يكون جديرا فى اعتبار الناس كلهم واما أن يكون غير جدير فى اعتبارهم جميعا •

وعندئذ انفجر بركان غضبه مرة أخرى والتفت الى زوجه التى كانت تسمع ذلك الحوار ثم قال :

ـ هل تسمعين ما تقوله هذه الفتاة الفاجرة ؟

ـ حسبك هذا يا ثناسى هدىء من روعك فسأحاول أن أصلح الأمور •

ـ وماذا هناك تصلحين من الأموريا منحطة وهل كان الاصلاح فى عرف المرأة سوى أن تفعل ما تشتهى وتريد ؟

ليس لاصلاح ذلك فى نظرى سوى رأى واحد • هو الا ترى تلك الفاجرة التى انتابها سعار منذ كانت فى المهد بعد اليوم ذلك الفتى الوضيع ولهذا فلن تخرج من البيت وحدها بعد الآن وسأرى اذا كان من الممكن أن أنسى مسلكها فى الماضى •

وفى صباح الغد بعث الى فارلاميس رسولا من أجرائه يطلب اليه أن يحضر حالا الى البقالة لأمر هام اذا كان ذلك ممكنا ؟ ولم يذهب هو اليه بنفسه ازدراء له واحتقارا لعمله •

ومنذ وصول فارلاميس أجلسه فى مكتبه الخاص وأغلق الباب ثم قال فى لهجة عنيفة تنم نيرانها عن غيظ شديد وسخط بالغ •

ـ لم أكن أدرى يا اغابيتو أن ابن أختك شاب لا خلاق له •

ـ لست أفهم ما تريد يا ثناسى •

ـ ستفهم الآن حينما أقول لك بأنه استهوى ابنتى وضحك بعقلها ثم أخذها وطاف بها فى شوارع المدينة بعد أن خرجت من المدرسة •

ـ لعلك تريد أن تقول بأن كلا منهما يحب الآخر ؟

ولم يمهله كسافيلى يسترسل فى حديثه فقال فى امتعاض واشمئزاز •

ـ كل منهما يحب الآخر • كل منهما يحب الآخر • هيه • وبمثل ذلك تستطيع أن تجد حلا لكل شىء • المجتمع الاسرة • الأخلاق لقد حاول ابن أختك أن يغرر بابنتى وهى لا تزال قاصرة ومن حسن الحظ اننى عرفت هذا فى الوقت المناسب• والآن أقول لك فى صراحة بأن ابنتى ثابت الى رشدها وندمت على ما فرط منها ولن تكون لمحاولات ابن أختك معهابعد اليوم أيةنتيجة فليضع

ذلك نصب عينيه وليدرك منذ الآن انه ليس كفئا لابنتى ولا جديرا بما ستحمله معها من مهر ·

من أجل ذلك قد دعوتك ومن أجل ذلك أرجوك أن تنصح ابن أختك بأن يتركنا فى هدوء ووئام ·

كان لذلك الحديث أسوأ وقع على نفس فارلاميس · وحز فى قلبه ما سمعه من تلميح كسافيلى بالمهر وبتفاوت الاسرتين وقبل أن ينصرف طأطأ رأسه وفكر مليا ثم قال لصاحبه :

ـ منذ عرفتك أدركت فيك عن يقين انك غير كريم وأنت فى ثرائك اليوم أراك فى مكانة أسمى بكثير ماديا من المكانة التى نحن فيها ولكن اذكر دائما أننا لسنا فى حاجة أبدا الى مهرك · وكلمتى الأخيرة اليك هى · اذا كانت ابنتك وأنت من جانبها لا تخطب ود استراتيس ولا تود لقاءه وصحبته فهو أيضا لا يخطب ودكما ولا يطمع فى لقائكما وصحبتكما ·

أدركت بوليكسينى من مظهر والدها · وملامحه ومسلكه معها انه قد حيل بينها وبين استراتيس فلن تراه · ولن تتصل به ومن يدرى لعل ذلك يدوم أشهرا ولهذا رأت من الضرورى تحت سلطان عواطفها الملتهبة أن تقص عليه ما أحست به وأدركته وان تؤكد له حبها فدخلت غرفتها وأغلقت الباب من خلفها ثم كتبت له هذه الكلمة :

« عزيزى استراتيس »

يبدو ان أحد الناس لمحنا ونحن نسير معا فى شوارع المدينة فنقل الخبر الى والدى · ودون تريث غضب وثار · أما أنا فقد أعلنت له فى صراحة بأننى أحبك فكان جزائى ان حال بينى وبين أن أخرج وحدى · وأخشى أن يطول زمن افتراقنا · ولكن مهما يحدث فاننى أود أن تعلم فى ثقة بأننى لك فاصبر ·

« بوليكسينى »

ثم دعت اليها خادمتها براكسيتيا التي تمت الى أبيهـــا بصلة القرابة والتي كانت دائما تجد لذة فى ارضاء بوليكسينى وقالت لها :

ـ براكسيتيا سأطلب اليك صنع شيء من أجلى ولن أنســـاه لك ما حييت • وستخرجين الآن الى السوق لشراء حاجيات اليـــوم فانتهزى فرصة وجودك فى الخارج واذهبى الى شارع الديوان لكى تضعى هذه الورقة فى يد السيد استراتيس غالانوس الذى يعمل فى بار فارلاميس • وفيما أظن لن تجدى صعوبة فى الاهتداء اليه ان احتجت الى السؤال •

لم تجهل براكسيتيا ما حدث بالامس فى المنزل بين بوليكسينى وأبيها وأمها وكان من طبعها أن تتصور مسألة الحب والزواج والعلاقة بين الرجل والمرأة بصورة بشعة تشمئز لها نفسها ويتأفف منهـــا ضميرها • بل انها كانت تصاب بنوبة من الاغماء أحيانا حينمـــا تسمع الحديث فى هذه المسائل • ومن أجل ذلك فقد تجســـمت لها خطورة الموقف وهالها أمر الرسالة التى كلفت بأدائها فرفضت أن تقوم بها ولكنها أمام الحاح بوليكسينى فى التوسل والرجـــاء وقسمها بأنها لن تفضى بسر ذلك الى أى انسان قبلت تلبية ما طلب اليها وقبل أن تهم به سألت :

ـ أيكون هذا عاشقك يا بوليكسينى ؟

ـ أجل يابراكسيتيا •

وعندئذ ارتسم على شفتيها ابتسامة عريضة ثم ذهبت لتجـــد استرانيس ووضعت له رسالة سيدتها قبل أن يعود فارلاميس من حديثه مع كسافيلى •

ولم يمض غير قليل حتى رجع فارلاميس واتخذ مكانه على مائدة في ركن منعزل من البار وشرب كأسين متواليين من الكونياك ثم استدعى استراتيس وأجلسه أمامه على نفس المائدة وصوب اليه نظراته المحنقة ثم قال :

ـ ما قصتك مع كسافيلي وابنته ؟

لم يتردد استراتيس في أن يذكر لخاله في صراحة كل ما حدث بينه وبين بوليكسيني من لقاء وموعد وحب ـ ولكن يبدو من كلام أبيها ان الفتاة قد ندمت على ما صنعت ٠

ولم يمهله استراتيس يسترسل في حديثه فأخرج من جيبه رسالة بوليكسيني ووضعها أمامه على المائدة فأخذها فارلاميس وقرأها مرتين وهو مطأطىء الرأس ثم اعتدل في جلسته وأضاءت وجهه ابتسامة من الرضى والارتياح ٠

نفذ كسافيلي وعيده بالنسبة لبوليكسيني فانقطعت عن المدرسة وحيل بينها وبين الخروج على انفراد وكلفت أمها بتشديد الرقابة عليها ثم القيت عليها مسئولية أدنى مخالفة لتلك الاوامر ٠ وهكذا تحرج موقف الام وتنازعها عاملان قويان ٠ عامل حبها لابنتها وعامل احترامها لأوامر زوجها فعواطفها بجانب الفتاة ولكن عقلها يؤيد زوجها على طول الخط ٠

مضى على ذلك اسبوع ثم طلب كسافيلي الى زوجته أن تتحدث في خلوة مع ابنتها لترى ما اذا كانت قد عدلت عن رأيها ولكن جواب الفتاة كان صريحا جريئا حاسما ٠

ـ لن أتزوج باستراتيس ان أحببتم ولكنني أنبئكم بأنني لن أتزوج بغيره ٠

كان كسافيلى يحب ابنته حبا كثيرا وكان يفخر بها فى كثير من المواقف ولكنه كان يجهل الكثير من طبائعها فكان لا يعرف ما لديها من ارادة صارمة • ولا مقـدار ما تتصف به من صلابة وعناد حينما تعتقد صواب ما ترى • ولكى ينقذها من تلك الأزمة العاطفية الجارفة وينقذ سمعته ومكانته هو أيضا من التدهور فى نظر أصحابه وعارفيه صمم على أن يبعدها عن الاسكندرية • ويبعث بها الى المنصورة لتعيش بجانب ابنته الكبرى ايفتيربى وتحت رعاية ورقابة زوجها هناك • بعدت الشقة اذن بين بوليكسينى وبين من وهبت حياتها وبقيت تحت وصاية زوج أختها بضعة أشهر استطاعت مع ذلك أن تختلس مايلوح لها من الفرص لتكتب الى استراتيس تخفف من ويلاته وتقص عليه من أخبارها وأحوالها • ولشد ما كان يحز فى قلبها ذلك البعـد وهذا الحرمان وأشد من ذلك على نفسـها أنها لم تكن تستطيع أن تعرف هى شيئا عنه ولا أن تتسلم قليلا من خطاباته • وفى صيف نفس السنة أيضا أرسلها مع أمها الى جزيرة فيمنوس لتقضى هناك أربعة أشهر أخرى بعيدا عن مصر كلها لعلها تشفى من ذلك المرض العاطفى أو تنسى كل شىء فى الاسكندرية وتعود معافاة بريئة •

كان زواج استراتيس موضع اهتمام فارلاميس الذى أخـذ أهبته ليبذل فى سبيل ذلك أعز الاشياء لديه وأغلى الاثمان عنده ولكى يجعله انسانا له كيانه وشخصيته فى المجتمع نصبه شريكـا معه فى البار ثم كتب فى وصيته بأنه الوارث الوحيد لكل ماسيخلفه من تركة ما عدا مبلغا من المال أوصى به الى خليلته •

مضى سنتان كاملتان وكسافيلى يعيش فى وهم ويغذى فى نفسه آمالا عريضة بأن ابنته قد نسيت حبيبها وأهملت فكرة الزواج به ولكنه أدرك بعد ذلك أنه واهم وأخذ يساوره شك فى شـقاء ابنته من الحب • وفى هذه الفترة من الحيرة والوسـاوس والتردد

ظهر على المسرح ممثل جديد بدأ يلعب بحذق دوره في تلك المسرحية ذلك هو افانجلو فافازوس زوج احدى عمات السيدة كسافيلي وقوى الصلة بأسرة بوليكسيني • عرف فافاروس خيوط هذه الرواية من صديقه روذاكي الذى أسر اليه أن يتوسط في الامر • ولم يجد فافازوس صعوبة في اقناع السيدة كسافيلي بصلاحية استراتيس للزواج من ابنتها اما نجاحه لدى كسافيلي نفسه فكان نجاحا نسبيا وكل ما استطاع أن يصل اليه منه هو قوله « سأفكر في الأمر » •

ولم يمهل الموت فارلاميس حتى يفرح بزواج ابن أخته فانتزعه من الحياة فجأة اثر مرض حاد في الكبد •

كان هذا الموت بمثابة صدمة عنيفة مادت لها الارض تحتأقدام استراتيس وأصابه أثرها دوار كالطائر فتكت به رصاصة الصائد ولأول مرة يستيقظ وعيه للواقع ويفقد ثقته في الحياة • كيف يمكن أن يختفي من الوجود في طرفة عين خاله الذى كان يحبه ويجد في الاحتماء به حصنا متينا ؟ لقد تألم استراتيس لموت خاله أشد الألم وبكاه ما وسعه البكاء •

لم ييأس فافازوس من النجاح في وساطته لدى كسافيلي فجدد السعي محاولا اقناعه •

ـ وبالرغم من أنك لا ترى في استراتيس الزوج المثالي لبوليكسيني فانك لا تستطيع الآن أن تنكر عليه ما يتحلى به من صفات المروءة والشرف ولا ما يملكه من ثروة تهيىء له سبل الزواج وحسبه انه لا يطمع في مهر ولا يفكر فيه ولو طلب ذلك • فانت في حل من الرفض اذن يكون عقابا لابنتك التى خرجت عن اطار طاعتك وسلكت سبيلا لا يتفق ورغباتك •

كان لهذا الحـــديث وما فيه من منطق صدى بعيد فى نفس كسافيلى ففكر فيه مليا وقلبه على وجوهه المختلفة وحينما أيقن أن استراتيس لا يطلب بوليكسينى من أجل المال لم يمانع وأعلن رضاه عن ذلك الزواج٠

ولم يمض أكثر من أربعة أشهر بعد موت فارلاميس حتى زفت بوليكسينى الى استراتيس وبتلك المناسبة دعا استراتيس والديـه الى الاسكندرية ليباركا تلك الزيجةفحضرا لأول مرة الى مصربلباسهما الجزرى الغريب فكان والده كومنينوس فالانوس بسرواله الازرق الفضفاض وطربوشه الاحمر الواسع موضع العجب من الجميـــع كما كان موضع الاجلال والاحترام٠وكذلك كانت والدته كاديوبيتسا

الفصل السادس

كان لحماة استراتيس انتيجونى كسافيلى أختان وابنتا عم وكان الخمس معا يشكلن مجموعة من طراز خاص من السيدات بالرغم من عدم التشابه الكامل فيما بينهن فواحـــدة أجمل وأخرى اذكى وثالثة أظرف ورابعة أكبر من الاخريات ومع ذلك فقد كن جميعــا يشتركن فى عيونهن السوداء الرطبة وفى شعرهن الاسمر اللامع وفى بشرتهن البيضاء • وفى قامتهن المنسجمة مع ميل الى الضخامة قليلا ـ وفى ملامحهن الهادئة وفى هيأتهن الدالة على التثبت والاعتدال وفى تسامحهن الذى تبديه كل واحدة منهن نحو الأخريات •

أما جاذبيتهن فلم تكن قوية اذ انها كانت تبدو فى شىء من الصمت والهـدوء وكان الاعجاب بهن والفتنة بجمالهن لا يحصلان الا نتيجة رؤيتهن المتكررة ومعرفتهن الكاملة • لقد تزوجن سريعـا الواحدة تلو الأخرى • وكان هم من تتزوج منهن أن تعنى بالبحث

عن زوج للأخرى وكن يحرصن أشد الحرص على أن يكون هذا الزوج ثريا • وكثيرا ما كن يرددن هذه العبارة « الماء شفاء لكل شيء » وكان حب كل واحدة منهن للأخرى بعد الزواج لا يقل عن حبها لها قبل الزواج • لهذا لم يكن للغيرة أو سوء التفاهم مكان فيما بينهن وكثيرا ما كانت السيدة ـ كسافيلى ـ تقول اننا خرجنا جميعا من معدن واحد غير أن الخالق قد صور كل واحدة منا بصورة مختلفة ونفخ فى وجه كل واحدة بطريقة متغايرة حتى لا يكون التشابه بيننا كاملا فيصعب تمييز الواحدة من الأخرى •

كان التعاون فيما بينهن واهتمام الواحدة منهن بمصالح الأخريات مضرب الأمثال • كانت كل منهن تعتبر بيت الأخرى كبيتها وأولادها كأولادها ومالها كمالها وكذلك زوجها الى حد ما كزوجها • كن يتزرن ويتبادلن الأخبار دون انقطاع • وكان ما يحدث للواحدة منهن يتردد صداه سريعا فى عقل الأخريات وفى قلبهن •

أما بخصوص صلاتهن بأزواجهن فكن يحرصن على اتباع نفس هذه الخطة فى المعاملة • لم يكن من شأنهن ان يتدخلن فى شئون أزواجهن الخاصة وكن يكتفين بادارة شئون المنزل وتنظيم صلاتهن الاجتماعية والاشراف على تربية أطفالهن • ولكى يحصلن على ما يردن من أزواجهن لم يكن من طبعهن ان يبتدرن الزوج بالسؤال المباشر أو بطلب ما يرغبن بل كن يلجأن الى نوع من المؤامرة فيدرن حول ما يرغبن ويحاولن سلفا ابطال ما يمكن أن يصدر عنهن من تردد أو رفض •

تزوجت أورانيا أخت السيدة كسافيلى من أندريا سافودى • وكان هذا الزوج يمارس عملا فى السودان حينما كان السودان غير معروف للأجانب • لقد طاف بالسودان جميعه • وبعد أن حاول

كثيرا من الأعمال وجمع قليلا من الثروة استقر فى عمل التجـــارة بين ما تنتجه مصر وما ينتجه الســـودان • فكان يشترى من مصر بعض المأكولات وشيئا من المصنوعات الزجاجية وقليلا من الأقمشة والحبال ثم يحمل ذلك كله على ظهر قافلة من الابل فيخترق بهـــا مصر العليا حتى يصل الى وادى حلفا وهناك يفرغ بضاعته فى قوارب واسعة ليســير بها فى مجرى النيل حتى يصــل الى السودان حيث يستبدل بها الصمغ والريش والعاج • وبنفس الطريق يعود بهذه البضاعة الى مصر • وكانت كل رحلة من هذه الرحلات تدوم سنتين أو ثلاث سنين • وآخر رحلة له حدثت أثناء ثورة المهدى وأتبـاعه من الدراويش ولقد فاجأته هذه الثورة أثناء عودته الى مصر واضطر الى ان يترك بضاعته لينجو هو بنفسه مما جعله يفقد ثلثى ثروته • وبما بقى له من رأس ماله استطاع أن يستقر فى الاسكندرية مع زوجه وأولاده حيث أسس مقهى مزودة بمتجر لبيع الحلوى •

ولقد تعرف من قبل فى القاهرة بجورج افيروف الذى كان يصدر الى أوربا منتجات سودانية • ولقد كان سافودى نفسه أحد الموردين له • وفى الاســكندرية وجده من جديد حيث كان رئيس الجالية اليونانية • كثيرا ما كان يتحدث سافودى عن افيرف وعن أعماله الخيرية وعطاياه السخية مع أصدقائه والمقربين اليه • فكان من عادته أن يقول بأن أفيروف يمتاز بشخصية فذة وآراء خاصة اذ أن جل همه موجه الى التعليم وكان يرى أن تنفق الجالية ما لديها من مال على المدارس وأن تكتفى المستشفى بدخلها الخاص • ومما يؤثر عنه هذه العبارة « ليس مما يعنينا ان نعالج المرضى ... » •

وهكذا وجد سافودى نفسه فى بيئـــة متحضرة وبين أفراد مثقفين بعد رحلاته الشاقة وما صادفه فى خلالها من شمس محرقة وأخطار عديدة • لم يمض طويلا حتى أصبحت مقهاه أجمل ناد فى الاسكندرية حيث يجتمع فى صالونها أرقى أفراد الطبقة المتوسطة

من مختلف الأجناس وحيث يتبارى السيدات بأغلى ما لديهن من زينة ولباس • أما الطبقة الأرستقراطية فكانت تتحاشى هذه البيئة وتفضل العزلة فى جوها الخاص حرصا على مكانتها وخوفا من أن يتسرب اليها الفساد بطريق العدوى من سائر الطبقات •

وبالرغم من أن سانودى بعد أن فقد ثلثى رأس ماله كان أقل ثروة من سائر ••• الا أنه من الناحية الاجتماعية كان يعتبر أرقى من كسافيلى وذلك بفضل مهنته واختلاطه وحسن معاملته • وكانت زوجات الجميع حريصات على أن يعشن فى وسط اجتماعى واحد دون أن تبدو تفرقة بين بيت وآخر •

لقد تزوج كرياكوس داموبولوس من أسباسيا ابنة عم زوجة كسافيلى • وكان هذا الزوج يقيم مع أخيه ابوستولو فى قرية من قرى منطقة المنصورة وكان عمل الاثنين معا فى هذه المنطقـــة هو المراباة • فكانا يعطيان الى صغار الملاك من الفلاحين ما يحتاجون من مال بربح باهظ • وكان الربح يضاف الى راس المال ويكتب العقد بهما معا ثم يمهر بختم المدين • ولو حان أجل السداد ولم يؤد المدين ما عليه من دين جدد الطرفان عقد الربا مع اضافة الربح الجديد • ولو رأى الدائن أنه لا جدوى من تجديد العقد أو رأى ان المدين لم يدفع على الأقل جزءا مما عليه من دين فانه يعلن المدين قبل انتهاء الأجل بالحضـــور أمام شيخ البلد أو أمام مأمور المركز وكان من سلطة هؤلاء اصدار الحكم على المدين وتنفيذه اما بدفع ما عليه واما بمصادرة ما يملك لحساب الدائن وكان ذلك يجرى قبل انشاء المحاكم المختلطة • وحينما يريد الدائن حكما سريعا وتنفيذا لا رحمة فيه بالنسبة للمدين ففى استطاعته ذلك على شرط ان يدفع الثمن الى القاضى والمنفذ فى نفس الوقت• ونتيجة ذلك ان يفقد الفلاح ما يملك اذا عجز عن دفع الدين سواء أكان هذا لرداءة المحصول أم لتعنت

من جانبه أم لفداحة الربا • ومع هـذا فقـد كان الأخوان من أقل المرابين الآخرين جشعا فى الكسب وقسوة بالنسبة للفـلاحين • فكانا يقدمان للمدينين فرصا للسداد على شرط ألا يضيع رأس المال وما اضيف اليه من ربح وكانا لا يلجآن الى القضاء الا حين لا يوجد امامهما حل آخر • ولم يمض زمن طويل حتى كونا لأنفسهما ثروة عظيمة قوامها مساحات واسعة من الأفدنة بعضها عن طريق القضاء ضد الفلاحين وأخذ أملاكهم سدادا للدين والبعض الآخر عن طريق الشراء الحر • وسرعان ما أدخلا فى املاكهما أحدث الطرق الزراعية فأدخلا الطلمبات الرافعة لرى الأرض وأنواعا جيدة من البذور مما أدى الى جودة صنف القطن وغزارة المحصول •

وبعد ان تزوج كيرياكو داموبولو استقر فى مدينة الاسكندرية حيث بنى « فيلا » انيقة فى المنطقـة التى كانت تعرف اولا باسم « موريا س » ثم فيما بعد باسـم « الحى اليونانى » واشترى أفخر انواع الأثاث •

وفى الاسـكندرية حاول أن يضيق دائرة عمله فى المرابات ويقتصر على عدد قليل من الناس ذوى المكانة المعروفة يأتى اليه فى مكتبه فى الاسكندرية ليحصل على المال الذى يريده بالربح الذى يتفق عليه •

وفيما عدا اشرافه وادارته لأملاكه الزراعية فقد كان نشـاطه الرئيسى هو العمـل على تأسيس شركات مساهمة وادارة الأسهم فيها • وبهذا النشاط أصبح عاملا هاما من عوامل الاقتصـاد فى مدينة الاسكندرية بل وفى مصر كلها وكان يكفى ان يذكر اسمه فيرى على أوجه السامعين علامات التقدير والاحترام •

كان قليل الكلام ويندر أن ينم وجهه عما يدور فى فكره ولم تكن لديه سوى ابتسامة خفيفة لتدل على موافقته أو على عدم موافقته

كان أثاث منزله وما فيه من زينــة وزخرف من صنع فرنسا ومن النوع الذى يعرف بالطراز الامبراطورى ٠

وكانت الفيــلا فى وســط حديقة واسعة حيث تزينها أشجار « السنط » والنخيل وأشــجار أخرى يكسوها زهر ذو لون شديد الحمرة وكان ذلك يكسبها منظرا شبيها بمناظر المناطق الاستوائية٠ وفى الجانب الخلفى من الحــديقة أقيم بنــاء مستطيل لايواء عربتين فاخرتين احداهما بأربعة جياد والأخرى بجوادين وبجانب هذا البناء بناء آخر أعد لايواء الجياد حيث يوجد ثمانية جياد من السلالة العربية والانجليزية وبجانب هذين البنـــاءين بناء ثالث لايواء خدم المنزل وخدم الجياد وسائقى العربات ٠

وكان له مع ذلك فتاتان ربيتا بواسطة مربيــات انجليزيات وثقفتا بواسطة دروس خاصة كانت تعطى لهما فى المنزل ٠

وأما فرتينى الأخت الصغيرة للسيدة كسافيلى فقد تزوجت من مانولى كيرماس ٠ وكان هذا الزوج موضع تهمة بسوء الســيرة زمنا طويلا كان يقال انه يتعاون سرا مع أخيه هيكتور الذى يعتبر أكبر تجار « الحشيش » فى مصر ٠ غير أن ذلك كان حقدا من الناس عليه وحسدا له ٠ وكل ما هنالك هو أن مانولى كان يظهر الكثير من دلائل الاحترام لهيكتور الذى كان أخاه الأكبر ٠ لم يكن يرضى عن عمــل أخيه فى هذه التجارة ولكن لم يســتطع أن يظهر شيئا من علامات عدم الرضى ٠ كان يحز فى نفسه ما يعرفه عن أخيه وكان يؤذى شعوره ما يسمعه من نقد المجتمع اللاذع بالنسبة لنشــاط هيكتور فى تجارة « الحشيش » ٠

ولم يكن هيكتور يميل الى هذا النوع من التجارة بدافع الرغبة فى جمع المال أو الجشع فى الكسب فقط بل كانت تغــريه عوامل أخرى ٠ شغفه بالمخاطرات وثورته على كل ما هو مقــدس وبعض

ظروف فى حياته الخاصة كانت تسيره كما تهوى وكان هو نفسه يخضع لها مختارا وبدون اعتراض ٠

جاء الى مصر وهو فى الثامنة عشرة من عمره وبقى خمسة عشر عاما يتردد على كثير من الأعمال ويحاول ان يستقر فى واحد منها ولكن دون جدوى ٠ بدأ العمل كأجير ثم حاول بعد ذلك أعمالا أخرى وأخيرا اتجه الى تجارة المشروبات الروحية وخصوصا النبيذ الذى كان يستورده من اليونان ومن جزيرة قبرص ٠ وكانت أشربته خالصة فلم يلاحظ عليها أى نوع من الغش ولم ينعت من المواطنين كما كان ينعت زملاؤه من تجار الخمور بهذا الوصف الشائع « الخواجة بتاع النبيذ الفالصو » ٠

ومع ذلك فقد اعتاد ان يدس فى دنانين الخمر فى فراغ صنع خاصا بين داخل الدن وخارجه لكميات من الحشيش كان هيكتور متوسط القامة اسمر اللون وكانت سمرته شديدة حتى أن الناس كانوا وهو صغير يدعونه « الاسود » وكان شعر رأسه وشاربه من النوع الغزير الأسود وكان وجهه واضح التقاطيع حاد الملامح براق العينين وفوق ذلك كانت عضلاته من الصلب ٠

وكان من عادته ان يذهب الى « قصر البللور » والى حانة الحديقة الفرنسية حيث يقدم الشراب فيها سيدات أوربيات فرنسيات تارة أو ايطاليات أو نمساويات تارة أخرى ٠ وكان يتخير صديقاته من بينهن وكان له ولعه بتجربة الواحدة منهن بعد الأخرى من بين اللائى يستطعن أن يشعلن فيه نار الغريزة ٠ غير أنه لم يدرك حقيقة الحب الغريزى ولا مدى اللذة التى تملك عليه جسمه وروحه معا الا حينما ارتبط بسيدة من مدينة تريستا اسمها جوفانا ٠

لقد كانت هذه السيدة مرضعة فى الاسكندرية ٠ ومن قبل ذلك فى مدينة تريستا حيث ولدت وكبرت ٠ كانت تبيع جسمها

منذ الرابعة عشرة من عمرها وآخر عاشق لهـــا كان روجيرو الذى أحبهـا وأراد أن يســتخلصها لنفســه فأقنعها بالمجىء الى مدينة الاسكندرية كى تعمل فيها كمرضعة · جاءت منه بولدين ولـكنها فطمتهما مبكرا ثم بعثت بهما مع أناس من محيطها الى أمها فى قرية بجانب مدينة ترييستا وحينما تخلصت من رضاعة ولديها والعناية بهما بدأت تعرض ثديها وخدماتها الى أولاد الأثرياء ممن لا ترغب أمهاتهم فى ارضاعهم بأنفسهن ·

وفى ذات مســـاء من فصل الصيف جلس هيكتور فى حانة الحديقة الفرنسية متجها الى البحر وأمامه كوب من بيرة ميونيخ كان الهواء مليئا بالرطوبة التى تلتصق بالوجه واليدين والملابس فتبللها ومع ذلك فقد كانت هناك نسمة خفيفة تخدع الناس بما تحمله من هواء خالص نقى ·

كانت على يساره مائدة لا يجلس عليها أحد وفى لحظة ما أدار وجهه فوجدها مشغولة برجل وسيدة يجلس الرجل بجـــانبه ولا يفصله عنه سوى مائدته وكرسى آخر وتجلس السيدة فى الطرف الآخر من مائدتهما · لم يكن هذا الرجل ســـوى روجيرو ولم تكن السيدة سوى جوفانى · ومنذ اللحظة التى لمحها فيها لم يزحزح هيكتور نظراته عنها وكانت نظراته مصوبة بصفة خاصة الى رأسها وعينيها وشفتيها ومن وقت لآخر كان ينظر الى صدرها والى كل جسمها فى الحاح وشره وجشع · كانت شقراء الشعر زرقاء العينين بيضاء الوجه فى حمرة تشبه اللهب وكان جسمها من وراء ثوبهـا الأبيض يرتفع متحفزا فى موضع ثم ينحدر متثنيا فى موضع آخر ·

بقى هيكتور يداعب شاربه من الجانبين ولا يبرح ينظرها واضعا فى نظراته كل رغبته وكل ارادته لكى يستولى عليهـــا · اما هى فكانت تنظر أمامها ويخيل الى من يراها انها تنظر فى الفضاء

غير انها كانت تدرك ما وراء هذه النظرات من نزاع صامت . وبعد ان اختبرته وقدرته من جوانبه كلها أدارت وجههـــــا فجأة نحوه وابتسمت له ابتسامة عريضة فاضطرب جسمه كله لهذه الابتسامة وصمم على ان يصنع كل ما وسعه لكى يقترب منها .

وقبل ان تترك له فرصة التدبر انحنت جوفانا نحو صديقها واسرت اليه بهذه العبارة .

ـ روجيرو ادع هذا الرجل الذى بجـــانبك لكى يجيىء الى مائدتنا .

عندئذ بهت روجيرو وأراد أول الأمر ان يعصيها . ولكنه لمح فى وجهها أنها لن تحتمل رفضا وأنه لو لم ينفذ رغبتها لدعته هى بنفسها فابتلع ريقه ونهض قائما وســار خطوتين نحو هيكتور ثم قال له :

ـ سيدى السينيورا تدعوك الى مائدتنا .

وفى هذه اللحظة فقد هيكتور احساســـــه بالواقع فلم يتبين شخصية من حدثه أهو صوت ينبعث عن رغبته الداخلية أم هو صوت شــــخص آخر ؟ وبعد أن زال عنه أثر المفاجأة أحس بسرور يغزو كل حواسه ثم نهض من مكانه دون أن يلفظ بكلمة فأخذ كرســيا وجلس بجانب جوفانا التى لم تمهله فبادرته بالحديث ضاحكة :

ـ كم مرة فى اليوم تغازل النساء بنظراتك الفاتنة ؟

ـ كلما صادفت سيدة جميلة .

ـ يا لك من مخادع .

ـ ومع ذلك فلم تستطع واحدة ان تستولى على . وحتى اليوم لم أتذوق معنى الحب الحقيقى .

ـ هل تريد بذلكأنك على استعداد لان تحبني ؟

ـ ربما •

قال هذا وهو يلتهمها بنظراته اذ انها بدت له كأنها صيغت كلها من وعد بلذة لا تعد لها لذة ثم واصل حديثه قائلا لها :

ـ نعم بلا ريب •• انك انت التى سأحبها •

كانا يتحدثان بصوت منخفض غير مبدين أدنى اهتمام لوجود روجيرو الذى انحنى بدوره نحو الأرض وبدا كأنه يختبر حذاءه بدقة وعناية • وبعد قليل اعتذر فاستأذن واختفى لمدة ربع ساعة •• وحينما عاد كان كل شيء قد انتهى بين هيكتور وجوفانا • وفى مساء نفس اليوم غادر روجيرو منزل جوفانا بعد ان وعد هيكتور بأنه لن يحاول عقد صلات غرامية معها • ومنذ ذلك أخذ هيكتور مكانه فى البيت كرب له وعاشق لصاحبته •

لم يكن هيكتور يحس بالحياة الحقة الا بين ذراعيها ولو ابتعد عنها لسبب ما لم يكن يشغل قلبه ولا يفكر الا فى اللحظـــة التى سيلقاها فيها •

مضت أشهر وهما على تلك الحال •

فى ذات مســاء دعى هيكتور الى العشــاء فى حانة الحديقة الفرنسية بواسطة جمع من اصدقائه • ولم تســـتطع جوفانا ان ترافقه فى هذه الدعوة اذ ان أحد الأصدقاء كان متزوجا • وهذه هى المرة الأولى التى ينفصل عنها فيما عدا ساعات العمل منذ ان عرفها ولم يكن فى عزمه العودة الى المنزل عقب العشاء اذ كان مرتبطـــا بموعد خفية فى « الرمل » مع احد تجار الحشيش وكان من المنتظر ان يقضى معه ما بقى من الليل كما كان من المتفق عليه أيضا ان تأتى

عربة الى الحانة بعد العشاء لنقله الى الموعد المضروب . غير انه فى اللحظة الأخيرة من تناول طعام العشاء نما اليه سرا ان الموعد قد أجل الى وقت آخر .

وفى منتصف الليل تقريبا أخذ هيكتور طريق العودة الى المنزل وهو يمنى النفس سلفا باللحظة التى سيصل فيها الى السرير فيستلقى بجوار جوفانا وينعم بحرارة جسمها فاخترق الحديقة الفرنسية ثم ميدان القنصلية الذى كان لا يزال مضيئا حيث يقضى هواة السمر ما بقى لهم من لذة . وصل الى ميدان كنيسة « سانت كاترين » الذى كان فى ظلمة شديدة كما كان فى صمت رهيب ثم اخترقه مارا أمام الكنيسة ذات الأجراس العديدة التى تدق الساعات على تفاوت فيما بينها مؤذنة بما بين المذاهب الدينية من اختلاف وكان فرق ما بين دقة ناقوس وآخر أو ساعة وأخرى هو نصف دقيقة . بلغ نهاية الميدان الغربية حيث يتفرع ميدان آخر مفتوح اسمه « ميدان القش » . وهناك فى أحد الأزقة الضيقة الآخذة من هذا الميدان كان يوجد بيت جوفانا الذى لم يكن سوى «فيلا» صغيرة ذات طابق واحد .

وفى حركة هادئة فتح هيكتور الباب الخارجى بمفتاح كان يحمله معه ثم اتجه نحو غرفة النوم . وفى تلك اللحظة انسل روجيرو فى خفة من حجرة النوم ولكى يتفادى اتقاء هيكتور عدا مسرعا نحو المطبخ لكى يفلت من باب آخر للخروج . لم يخف أمر ذلك على هيكتور فقد كان الممر يضيئه مصباح غازى خافت قد وضع على مائدة صغيرة فى وسط ذلك الممر . ولم يمكنه من تلك الفرصة فقطع عليه الطريق وألقى على وجهه كل ما يعرفه من أنواع الشتائم فى اللغة الايطالية وامسك فى نفس الوقت بتلابيبه وأخذ يهزه بيديه هزا عنيفا ويلقى فى وجهه أنفاسه المتثاقلة من ريح الخمر .

ولما أحس روجيرو بحرج موقفه وخشى من اعتداء هيكتور دس يده فى حزامه واستل منه خنجره غير ان بريق هذا الخنجر وقع على عين هيكتور فأدرك ما يبيته له خصمه من غدر ونجح فى أن يجرده من ذلك السلاح القاتل . وعندئذ فقد روجيرو رشده وبدلا من أن يبتعد عن هيكتور اندفع نحوه وتمكن من يده القابضة على الخنجر وعضها فى غيظ لينتزعه منها لقد جن من الألم جنون هيكتور ولم يستطع ان يسيطر على أعصابه فاستخلص الخنجر بيــده الأخرى وبحركة لا ارادية بقر بطن روجيرو وكما تبقر بطن الذبيحة . لم تدم المعركة أكثر من دقيقة ونصف وكانت جوفانا ترى كل شىء من باب غرفتها وهى فى ضيق وذعر ومع ذلك لم تستطع أن تصنع شيئا وحينما رأت ان القتيل ليس هيكتور احست فى نفسها راحة وطمأنينة اذ أنها كانت تحبه حبا ملك عليها كل حواسها . واذا كان روجيرو وجد فى غرفتها تلك الليلة فلم يكن لها فى ذلك أدنى جريرة . لقد عرف من صديقة لها ان هيكتور سيقضى ليلته خارج المنزل فجاء يستغل هذه الفرصة ويخطب من جــديد ودها غــير أنه لم يستطع أن ينال منها شيئا .

اتجهت جوفانا الى هيكتور وقالت له وهو ملطخ بالدماء وقد بدت عليه ملامح الرعب والألم .

ـ لقد جاء يشكو لقد أراد أن أعود اليه ولقد تحدث طويلا ثم حاول أن يقترب منى فلم أمكنه من ذلك .

لم يع هيكتور شيئا مما قالته فى هذه اللحظة ولكنه تردد فى سمعه للمرة الثانية وأدرك مغزاه حينما أعادته عليه ذاكرته بعد ذلك .

وقف هيكتور زائغ البصر مضطرب النظرات غير مستقر بهـا على شىء ثم سقط على جوفانا التى لم يكن عليها سوى قميص النوم

فاستقبلته بوجهها الملتهب وصـــدرها البارز وجسمها الفـــاتن بشاشه ومرح ثم قاده الى مكتبه وأمر موظفيه الا يسبب واحد منهم فامتنع حتي لا يقع في مهاوى الاغراء وكان من وراء ذلك ان تركت هذه المغالبة في نفسه ذكرى مريرة ٠

هز فى قوة رأسه وضرب بقدميـــه الواحدة بعد الأخرى على أرض الغرفة وقال :

ـ ها أنا ذا ذاهب ٠٠ يجب أن اختفى ٠

ـ اذهب ٠٠ لا تخش أمرا سأصلح كل شيء ٠

ـ وداعا ٠٠ ثم فتح الباب وأسلم نفسه لظلام الليل وكان كل همه ان يبحث سريعا عن مأوى يختفي فيه ٠

وبعد أن مضى على ذهابه خمس دقائق أخذت جوفانا تصرخ مستغيثة ٠

ولقد برت بما وعدت فأصلحت كل شيء ٠ قرر ســـكرتير القنصلية الايطالية الذى كان من رعاياها كل من روجيرو وجوفانا أن تهمة القتل ضد مجهول وأن ظروف الجريمة هى أن ذلك المجهول قد طرق الباب ليلا ففتحه له روجيرو وما كادا يلتقيان وجها لوجه حتى نشبت بينهما مشادة انتهت بمقتل روجيرو وافلات القاتل ٠ ولم يكن هذا التقرير خالصا من الهوى اذ ان سكرتير القنصلية كان من المفتونين بجمال جوفانا وكان كثيرا ما يسبغ عليها من رعايتـه وحمايته ٠ ولكن التحريات وخصوصا تحريات البـوليس المصرى جعلت الناس تلوك بألسنتها اسم هيكتور ٠ ومع ذلك لم يقل أحد بأنه رآه فى تلك الليلة يدخل منزل جوفانا أو يخرج منه ٠

وفوق ذلك فقد شهدت صديقة جوفانا التى نقلت الخبر الى روجيرو بأن هيكتور لم يكن فى المنزل تلك الليلة وشـــهد كذلك

صديق آخر للقاتل بأن هيكتور بعد العشاء وما تبعه من سهر فى حانة الحديقة الفرنســـية قد ذهب معه وقضى ما بقى من الليل فى منزله وبهاتين الشهادتين أبعد هيكتور عن محيط الجريمة ٠

والحقيقة ان هيكتور بعد قتل روجيرو كان كالمقامر الذى وضع فى يده أوراق اللعب وأريد منه أن يخاطر اما بالموت واما بالحيـاة فقد اتجه توا الى منزله الخاص وبدون أن يحس بمجيئه أحد غسل نفسه وبدل ملابسه وأخفى الملابس التى لا تزال تحمل آثار الجريمة ثم ذهب لايلوى على شىء الى بيت صديق له يعيش بمفرده قريبا من حانة الحديقة اللفرنسية فأيقظه وتظاهر له بأنه لايستطيع العودة الى منزله بعد أن دارت الخمر فى رأسه فسببت له ألما جسيما ومن أجل ذلك جاءه يطلب منه أن يؤويه ٠

وحينما علم هذا الصديق بمقتل روجيرو استحوذ عليه الشك بالنسبة لهيكتور غير أن هذا الشك لم يرق أبدا الى درجة اليقين ٠ وما دام فى استطاعته ان ينقذ صديقه من خطر دون أن يعرض نفسه هو لايذاء فماذا عليه لو أعانه وآواه ٠

ومنذ تلك اللحظة ترك هيكتور العمل فى تجـــارة الخمور واستقل بتجارة الحشيش وبفضل ما كانت تغله هذه التجارة من كسب فقد اتخذ لنفسه أربع مراكز للاقامة فيها والترويج لبضاعته٠ احدها فى الاسكندرية فى فيلا منعزلة بأحد ازقة منطقـــة « كوم الدكة » والثانى فى القاهرة فى « سراية » قديمة تحيط بها حديقـة واسعة فى نهاية المنطقة الشمالية من الجزيرة والثالث فى السويس فى منزل قريب من الميناء يمتاز بما يحتوى عليه من ممرات ملتوية ومخارج متعددة والرابع فيما بين القاهرة والسويس على الحدود بين الأرض المنزرعة والصـــحراء فى منزل بمعزل تام عن البيـــوت الأخرى ٠

وكان هيكتور يتجول متخفيا بين هذه البيـوت ليلقى عملاءه وزبائنه وليتسلم ما يرد من بضاعة ويفرض ما تســاويه من ثمن ويشرف على توزيعها الى صغار تجار الحشيش وكان يرافقه فى حله وترحاله أحد أصدقائه القدامى الذى اصطفاه من دونهم واتخذ منه حارسا لشخصه ويعيش معه فى تلك البيوت عشيقات اصطادهن من مختلف الأجناس البشرية والأوساط الاجتماعية ومن يدعوهم من الأطباء والمحامين وتجار القطن وهواة الأخطار الذين اســتقروا فى مصر أو هم فيها الى أجل محدود .

ولو اتيح لهيكتور النجاح مرة فى استيراد كميات من الحشيش دون أن تتعرض لضبطها أو لاستيلاء رجال الأمن عليها فى الميناء أو فى طريقها اليه فان كسبه من ورائها يعد ثراء كبيرا غير ان ما ينفقه عن سعة بالنسبة لعملائه ومعاونيه ثم ما يقـدمه من هدايا لرجال الأمن ومن يغمضون أعينهم عن سير هذه البضاعة كان يستنفد جزءا كبيرا من ذلك الثراء وعلى العكس من ذلك حين يفشل فقد كانت الخسارة كفيلة بخرابه وخصوصا اذا كان سبب الفشل هو الاستيلاء على كميات الحشيش فانه يصبح مهددا بالقبض عليه وحياته تغدو فى خطر .

ولقد تعرض فعلا ثلاث مرات لمثل هـذه الأخطار ولم ينج منها الا بفضل وسطاء أقوياء وانفاق عن سعة وبذخ ولـكيلا يعرف فى تجواله وتنقلاته كان هيكتور يرتدى « الجلابية » ومن فوقها « بالطو » مستطيل ويضع على رأسه « الطربوش » ثم يلفها « بكوفية » من الحرير تتدلى شراريبها حتى كتفيه وبهذا الزى يسير متخفيــا بين الناس سواء فى الطرقات أم فى قطر السكك الحديدية .

من أجل ذلك كان يندر أن يلقى أخاه مانولى فقـــد كان كل منهما يعيش فى جو يباين الآخر تمام المباينة . وفى ذات يوم بعد

انفصال دام أشهرا ذهب هيكتور الى مكان عمل أخيه فاستقبله فى بشاشة ومرح ثم قاده الى مكتبه وأمر موظفيه الا يسبب واحد منهم له أى انزعاج ٠

فى تلك الفترة كان هيكتور فى ضائقة مالية والدين قد ركبه من كل ناحية فاخذ يبحث عن مصدر يستطيع أن يستدين منه ما ينقذه من تلك الأزمة ويقدم لذلك المصدر ضمانا لدينه كل ما يملك رهينة عنده ٠ اذ أنه بقى سنة كاملة دون أى نشاط فى تجارة الحشيش ومع ذلك استمرت النفقات كدأبها معه تثقل كاهله وأهم شاغل له فى ذلك الوقت هو انتظاره لرد أحد رجال المال فى الاسكندرية ٠

لقد هاجه وأثار أعصابه ان رأى أخاه فى بزة جميلة وشعر مجعد براق وطمأنينة نفسية كاملة كما أن الحفاوة الكريمة التى استقبل بها من أخيه قد أثارت فيه غريزة الشر بدلا من أن تهدىء أعصابه وتخفف عنه بعض الذى يجد ودون تريث فى الأمر ابتدر أخاه فى مرارة بهذا الحديث :

ـ لست أدرى لم لم تقطع صلتك بتاجر فى الحشيش مثلى بالرغم من أنه أخوك ؟

ـ لم هذا الحديث ؟ انت تعلم أننى لا ألومك على هذا ٠

ـ لا تلومنى ولكنك لا تقرنى عليه بل ربما تبتهل الى الله بسبب ذلك من أجلى ٠ غير أنك فى دخيلة نفسك لا ترضى عما أعمل ذلك لأنه ضد ما تعتقد وما تعمل ٠

وبدون أن يترك لأخيه مانولى فرصة الرد على قوله استمر فى حديثه :

ـ اننى أتجر فى الحشيش ولعلك ترى أن بيعى له بسبب الحاجة الى تعاطيه وكثير من الناس يود تدخينه أو مضغه • فطبيعة الجو وتعب الجسم ومضايقة الحياة كل ذلك يحدث فى نفس الانسان ضعفا وهما وفراغا وحينئذ يبحث المرء عن شىء يقــويه ويستحث فيه النشاط فيجده فى الحشيش • ومنذ الخليقة والناس تدخنه فى كل البلاد الحارة ولو اسرف كثير أو قليل من الناس فى اســتعماله فليس معنى ذلك ان الحشيش مضر للناس جميعا وبأى قدر أخذ • قبل أن يسرف الناس فى أخذه كانوا يستعملونه فى حدود المعقول•

وعندئذ طلب اليه مانولى :

ـ ولماذا تحرمه قوانين الدولة ؟

ـ ذلك لأن الدولة لا تعرف ان تحدد بالضبط الفـاصل بين الاسراف والاستعمال المعقول •

ـ ليس ذلك لأنها لا تعرف ولكن لأنها لا تستطيع بأى حال أن تضع حدا لمثل ذلك •

وبعدئذ رأى هيكتور ألا فائدة فى أن يضيف الى جواب أخيه شيئا وكل ما صنعه هو اشارة برأسه وتقطب فى وجهه دليلا على انه غير مقتنع •

كان مانولى يعلم ان هيكتور في ضائقة مالية وكان يؤمل حينما رآه يدخل مكتبه أن يطلب اليه بعض ما يخفف عنه تلك الضائقة • غير أن هيكتور هم بالقيام يريد الخروج دون أن يفاتح أخاه فى شىء من أمره • وعندئذ قال له :

ـ عهدى بك دائما الرجل الثرى القوى ولكننى أعلم أنك الآن فى أزمة اقتصادية فلماذا لم تحدثنى عن أمرك ؟ لماذا لا تعاملنى كما يعامل الأخ أخاه ؟ لماذا هذا الجفاء من أجلى ؟

اضطرب هيكتور لهذه المفاجأة ولكنه استطاع ان يكظم تاثيرها على نفسه وان يقول له :

ـ لم أحدثك عن أمرى لأن المسألة ليست خطيرة • اشكرك

ثم تقدم نحو الباب ولكن مانولى أوقفه قائلا :

ـ انك تخفى عنى الحقيقة لقد قيل لى غير ذلك •

ـ لقد خدعوك والحقيقة هى ما ذكرتها لك •• ولو كان هنـاك خطر لجابهته وحدى دون أى رفيق خارج عن العصـــابة التى تعمل معى • لست أحب تعقيد المسائل •• ومع كل فلا تشغل نفسك من أجلى وحين أصادف الخطر سأحاول ان اتفاداه •

هذا ولم ينثن عما عزم عليه فقبض بقوة على ذراع أخيه والقى نظرة ذات معنى على عينيـــه ثم تركه وذهب الى حيث يريد • وفى نفس المساء أخذ القطار الى القاهرة •

وعند مدينة بنها قد ترك « الكوبرى » نسيانا على نهر النيل مفتوحا فسقطت القاطرة واربع عربات فى النهر وكان هيكتور من بين الذين غرقوا فى النهر •

كانت مهمة مانولى كيرماس هى تصدير القطن الى أوربا وعلى الخصـــوص الى انجلترا • بدأ أولا كعامل بســـيط فى أحد بيوت التصدير فى مصر وأثناء ذلك ألم تماما بخواص الأنواع المختلفة من القطن ولم يلبث ان صار أحد المتخصصين فى تمييز هذه الأنواع وانتهى الأمر به ان أصبح تاجرا من تجار القطن • اتخذ الاسكندرية مركزا رئيســـيا لتجارته ثم أنشأ مراكز فرعية فى مختلف البلاد المصرية وأسس مكتبا خاصا فى مانشستر لبيع أقطانه وبقدر ما كان هيكتور سباقا الى الأخطار غير عابىء بما يفرضه القانون او يوجبـه

العرف كان مانولى يخضع للقانون خضوعا مطلقا ويتبع دون تحفظ تقاليد الدولة والمجتمع ٠

وبالرغم من أنه عاش وعمل فى وسط من دأبه الا يتردد فى الخديعة والغش نظير الغنم فان ذلك كان من أبغض الأشياء الى نفسه فقد بقى فى مهنته مثلا طيبا للتاجر الكلاسيكى ٠ كان يدير عمله ادارة محكمة ويشترى بضاعته من أجود الأصناف وبأفضل الأثمان ثم يبيعها بربح لا شطط فيه ولا مغالاة ٠

لم يكن أبدا من كبار الأثرياء ولكن مكانته المالية لم تصب ابدا بتدهور خطير ٠

وبفضل صلاته بالانجليز وصلات أسرته التى كانت تصحبه فى أغلب أسفاره الى انجلترا قد اكتسبوا عاداتهم وأسـلوبهم فى الحياة ثم ان الحياة الانجليزية نفسها قد صبغتهم بصبغة خاصـة فكانوا يلبسون كما يلبس الانجليز ويمارسون الرياضـة كما يمارسها الانجليز ويحكمون على الأشخاص والأشـياء كما يحكم الانجليز والشىء الوحيد الذى لم يرق فى نظرهم عند الانجليز ولم يستطيعوا محاكاتهم فيه هو المطبخ الانجليزى أو طهو الطعـام على الطريقة الانجليزية ٠

أما ايافانجلوس غافازوس الذى تزوج من أنثى فعلى عكس ما كان عليه أزواج اخواتها وبنات خئولتها لقد حضر الى الاسكندرية وهو فى الرابعة والعشرين من عمره وكان على جانب من الثقافة اذ أنه درس فى جزيرة سيرا ثم فى مدينة جنوا وفوق ذلك كان مزودا بمبلغ من المال لا يستهان به فى ذلك الوقت قد أعطـاه له والده ليجرب بواسطته حظه فى الحياة ـ الفا من الجنيهات الذهبية من عهد نابليون ٠

كان والده يملك سفينة ويعمل عليها كربان وحينما بعث به الى الاسكندرية أوصى به هناك صديقا له يملك فى نفس المدينـــة بيتا للتأمين وذلك لكى يفقه عمله ويقضى تحت اشرافه مدة المران أملا فى أن يصير بعد ذلك شريكا له فى العمل غير أن ايفانجلوس لم يستطع صبرا على ذلك وأراد أن يستغل سريعا ما يحمل من ذهب لا حبا فى جمع المال بل ضرورة اليه لكى يعيش منعما • وبعد أن قضى فى مكتب هذا الصديق بضع سنوات ترك العمل فيه ليلتحق بعمل آخر مع أحد عملاء « البورصة » •

وحتى تلك الفترة لم تكن « البورصة » بمعنـــــاها المتعارف وبصبغتها الرسمية قد وجدت فى الاسكندرية بعد وكان «سماسرة» الأسهم وهم قليلون اذ ذاك يجتمعون فى مقهى « سيرنخا » بشارع محرم بك وهناك يشترون ما يريدون من أسهم ويبيعونهـــا وهم يتعاطون القهوة فى شوق ولذة •

فقد كان فافازوس يشترى أسهما من « السمسار » الذى يعمل عنده كأجير فى نفس الوقت وكان بحكم موقفه هذا يستطيع بواسطة « سمساره » ان يشترى ويبيع أسهما من صندوق الدين المصرى الموحد • وفى خلال سنة فقد نصف رأس ماله بالرغم من نشـــاط « السمسار » وحرصـــه على كسب أجيره • من أجـل ذلك أصبح موضوعا لأحاديث الناس فكان يقال « يكفى أن يشترى ايفانجلوس لكى يهبط ثمن الأسهم • وأن يبيع لكى يرتفع ثمنها » • وكان هذا يحز كثيرا فى قلبه حتى أنه أفقده الثقة فى نفسه لمدة من الزمن وأكسبه شيئا من التشاؤم بالنسبة لنجمه • غير ان اليأس لم يستول تماما عليه ولم يفقد كل شجاعته • ولقد علمه الفشل أن فى هذه المهنة لا يكفى ان يعرف المرء بعض الأخبار التى تتداول سرا عن حال

السوق لكى يحقق كسبا اذ ان أبسط أنواع الانحراف كان كفيلا بأن يهدم كل ما أعده من حساب ·

لقد ابدى فافازوس نشاطا كبيرا حينما كان يوجد فى الاسكندرية « بورصتان » احداهما فى شارع البورصة ـ وهو الآن شارع البورصة القديمة ـ والأخرى فى شارع رشيد ـ هو الآن شارع فؤاد ـ فى نفس المبنى الذى يوجد فيه الآن مكتب «كوك» · كانت الأسعار فى احداهما غير ما كانت عليه فى الأخرى · ولكى يستغل هذا التفاوت فى الأسعار كان السماسرة وعملاؤهم ينتقلون بين البورصتين فى كثير من السرعة واللهفة والقلق حرصا على استغلال السوق وتحقيق الكسب · كانوا يلقون بأنفسهم فى عربات « الحنطور » ذات الجواد الواحد · التى تنتظرهم بدورها فى لهفة أمام الباب · وكنت ترى سائق العربة ممسكا باحدى يديه فى قوة عنان الجواد وفى الأخرى السوط قائما وعلى أهبة لضرب الحصان لكى ينهب الطريق نهبا · وهكذا كانت العربات تلقف السماسرة من مبنى فتلقى بهم فى المبنى الآخر لكى يزاولوا أعمالهم ويعقدوا صفقاتهم ·

كان فافازوس من أشدهم نشاطا وأخفهم حركة وأكثرهم اندفاعا نحو تلك العربات يرتدى أحسن بزة ويتخير أجمل زهرة ليحلى بها عروته ويمسك باستمرار سيجارة مشتعلة بين شفتيه ويرمى بنظره ذات اليمين وذات الشمال على كل امرأة جميلة تمر فى محيط بصره ·

لم يدم امر « البورصتين » هكذا طويلا فنشبت بينهما حرب قاتلة · أى واحدة منهما تبتلع الأخرى ؟ كانت الأولى الواقعة فى شارع البورصة يديرها فئة من التجار على رأسهم اليهودى بارون منشه ويدير الثانية فئة أخرى من التجار جلهم من اليونانيين · وبعد

لأى نجح بارون منشه فى اقنـــاع الحكومة المصرية بضرورة اغلاق بورصة شارع رشيد واستبقاء الأخرى ٠

واستقرت أخيرا « البورصة » الموحدة فى « سراية » سيتسا حيث أخذ كل التجار يجتمعون هناك سواء أكانوا تجار القيم أم تجار العقود ؟ ٠

هذه الادارة الجديدة وما صادفها من حركة اقتصادية كبيرة فى مصر احدثت فى دائرة البورصة الجديدة نشاطا عاما ملحوظا ٠

كان السماسرة يشترون ويبيعون لا فى دائرة البورصـــة وحدها بل فى أى مكان يوجدون فيه ٠ فى الشارع فى المسرح فى الصالونات العامة وكان ذلك يجرى فى كل يوم وفى أى ساعة من ساعات النهار أو الليل ٠ ولقد استفاد فافازوس كثيرا جدا من ذلك النشاط فربح مالا وفيرا واسس مكتبا خاصا والتف حوله عدد كبير من العملاء ٠

الفصل السابع

قوبل زواج بوليكسينى كسافيلى بفتور ولم يحدث فى أسرتها أى سرور • حينما عرفت خالاتها بانها تحب ستراتيس أنكرن عليها ذلك وأعدن فى غير مناسبة بأنهن لا يؤيدن زواجها من فتى يعمل فى « بار » وهو فى نفس الوقت ابن أخ صاحب « البار » وكان ذلك نفسه هو رأى ازواجهن ماعدا فافازوس الذى يرى غير ما يرون فقد اتصل بالفتى عن قرب وأدرك منه ما لم يدركه الآخرون ثم انه غير هذا وذاك كان موضـــوع وصاية روذاكيس أما الآخرون فكانوا لا يحكمون على الفتى الا من وجهة نظر واحدة تلك هى الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الفتى • والعجيب أنه مما لا شك فيه أن هؤلاء الأزواج جميعا ماعدا فافازوس قد نشئوا فقراء وبدءوا صراعهم فى الحياة من درجة أقل بكثير من الدرجة التى بدأ منها ستراتيس • غير أنهم كانوا يعتقدون أن ذلك لا يبرز عودتهم مرة أخرى الى الوراء بعد أن ارتفعوا الى درجة عالية فى المجتمع لكى

يضعوا فى مستواهم فتى مثل ستراتى فى حين أنهم يستطيعون أن يجدوا فى مستواهم لبوليكسينى زوجا آخر • غير أن ذلك كله لم يمنع الزواج من أن يتم ولم يكد الزواج يتم حتى تجلت مظاهر الروابط القوية التى تجمع بين الأقرباء فاعترفوا بالأمر الواقع وبدأ يشغل تفكيرهم العمل على معاونة انتيجونى وابنتها لكى يعوضوا ما يبدو من نقص لدى ستراتى ويزيلوا ما يظهر من فوارق اجتماعية بينه وبينهم • كان لا بد اذن بالنسبة لستراتى ان يغير مهنته لكى يستطيع ان يرقى اجتماعيا ولحسن الحظ كما يقولون انه لا يزال فتى فى مستقبل العمر وأنه على شىء من الثقافة والتهذيب بهذا كانت الزوجات يتحدثن مع أزواجهن وكان هؤلاء لا يبدون من جانبهم أى اعتراض على أن يعمل الفتى معهم فيما يعملون • غير أن الفتى لم يكن سهل القيـاد فعصى وانطوى على نفسه فى أفكاره مع شىء من العناد • اذ أن العمل الذى ورثه عن خاله كان فى نظره أمرا مقدسا وحول ذلك العمل تولدت ذكريات عديدة نماها وأكدها على ممر الزمن وجود فارلاميس والمحبة المتبادلة بين روذاكى وايرينى • كيف يستطيع انسان ان يحدثه فى مثل هذا دون ايذائه ودون ان يجرح شعوره أو كرامته ؟ شخص واحد كان يستطيع ذلك هو روذاكى • لهذا توسلت اليه بوليكسينى فى أن يتدخل فى الموضوع فتحدث اليه ثم اقنعه أخيرا بوجهة نظره لا لما جاء به من حجج منطقية بل لما بينه من ان اندماجه فى بقية افراد الأسرة سيكون من ورائه سعادته ماديا ورقيه اجتماعيا • احس استراتى أول الأمر بشىء من الاهانة حينما تحدث اليه روذاكى طالبا ان يستبدل بمهنته عملا آخر • ومن المحتمل الا يكون الفتى فى قرارة نفسه راضيا تمام الرضا عن عمله ولا مستريحا للوسط الذى يعيش فيه غير انه لم ينكره ولم يعترف بما يمكن أن يكون فى نفسه من عدم

الرضا وكان يعتقد أن من واجبه ان يحتمل مساوىء التركة التى ورثها عن خاله مادام ينتفع بما فيها من خير ٠

ومنذ اللحظة التى بدأ الجدل يتردد فيها حول هذا الموضوع أخذ ستراتى يفقد صفاء سريرته وشرع الشك يلهبه بسياطه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتساءل هل فى استبدال مهنته بغيرها أكثر منها فائدة من الناحية المادية والاجتماعية وأوسع منها ميدانا لكى يستغل فيها ثقافته واوفر منها حظا بالنسبة لسعادته وسعادة زوجته وسعادة ما سيكون لهم من أبناء ٠ كل ذلك جعله يشعر بان من حوله مؤامرة تحاول ان تثنيه عن رأيه وتجعله يرضى عن أمر لم يرده أو على الأقل لم يتريث فيه لكى يهتدى اليه بنفسه ٠ وكان يتسائل نفسه هل تشترك زوجه فى تلك المؤامرة ؟ وكثيرا ما كان يفاجئها أثناء قراءته وهى تشتغل بابرتها حينما يكونان سويا فى المنزل بنظراته لعله يقرأ على وجهها ما تطبعه أفكارها بالنسبة لذلك الأمر غير انها كانت ترد عليه فى غير اضطراب بنظرة هادئة ثم تبتسم ٠

وبمضى الزمن أخذت صـــلابته تتراخى وعناده يخف وعقله يدعوه الى ألا يرفض نصيحة روذاكى ٠

لم يكن يدرى أى طريق يأخذ وكان يسمع فى دخيلة نفسه من حين الى آخر صدى حديث يتردد بين صوتين يقول احدهما « يجب الا أقدم على ذلك » فيجيبه الآخر « ولكننى لا أستطيع ان أرفضه » ٠ وبعد أيام قوى الصوت الثانى على حساب الأول ٠ وهكذا قبل بعد تردد طويل ان يبيع «البار» وان يعمل كأجير فى مكتب فافازوس ٠ كان عمله الجديد لا يتطلب أكثر من نسخ صور من عقود الزبائن ٠

وبفضل ما لديه من يقظة فطرية وما كان يبديه له روذاكى من ملاحظات ودروس أساسية استطاع ان يأتلف مع هذا الوسط

الجديد من العمل وان يحصل على المعارف الضرورية التى كانت تنقصه من قبل وحينما وجد للمرة الأولى فى بورصة العقود ورأى السماسرة يصرخون حول (السلة) كانهم خرجوا عن طبائعهم متأثرين بقانون العرض والطلب أيديهم مرتفعة كالغرقى ينشدون النجدة وأعينهم جاحظة وأفواههم مرغية مزبدة وأصواتهم تنبعث بقوة كأنها فرقت فى ممرها حلوقهم حينما وجد للمرة الأولى فى هذا الوسط كانت مفاجأته كبيرة وخيل اليه لفترة من الزمن ان المنظر وهمى لا حقيقى ٠

بعد الزواج تذوق ستراتى كل متع الحياة فعرف للمرة الاولى أن اللذة أمر طبيعى متمم للحب ٠ وبعد أن كان المنزل فى نظره مكانا يأوى اليه ليأكل وينام أصبح الآن عشا له وسكنا ٠

مضت سنتان من يوم الزواج وحينما ولد ابنه الأول كومينوس ترك المدينة وسكن الرمل عند محطة شوتس فى « فيلا » حولها حديقة ٠ وكان الزوجان معا يمنيان النفس بأن يعقبا أولادا كثيرين ٠ ويتعهدا بتنشئتهم وتربيتهم بعيدا عن المدينة فى جو أكثر جفافا وأصح هواء وأغنى شمسا ولذلك تخيرا لسكنهما تلك « الفيلا » ٠ كان الدافع الأكبر الذى جعل ستراتيس يتخير منطقة شوتس سكنا له هو الحاج ابراهيم جمعة مالك « البار » الذى كان يعمل فيه خاله وكان الحاج ابراهيم جمعة هذا يملك فى شوتس « فيلا » كبيرة يسكنها مع أسرته وتقع بجانب الفيللا التى استأجرها ستراتيس ٠

أربع مرات فى اليوم كان ستراتيس يقطع الطريق بين شوتس والاسكندرية بواسطة قطار يخترق منحدرات من الرمل الأصفر تفصل منطقة شوتس عن المدينة ٠ ولا يخفف من منظر هذه المنحدرات المملل ما يتخللها من بيوت منتشرة هنا وهناك ومن فيلات

بحدائق منعزل بعضها عن البعض الآخر كأنها واحات مصغرة فى وسط الصحراء ومن خيام البدو السمراء المبعثرة ذات اليمين وذات اليسار ومن أشجار التين وكروم سيدى جابر ومن أشجار النخيل التى تنطلق الى أعلى فى مجموعات متصلة بالأرض جذوعها رمادية اللون مع ميل الى السمرة وقممها قد ابتعدت عن الأرض فى شكل مظلات خضر وعلى نحو كيلومترين من المدينة كان طريق القطار يقترب من الشاطىء والمنحدرات الرملية تتضاءل فتمكن المسافرين من رؤية البحر ذى الزرقة الزاهية بأفقه المنخفض وسطحه المشبع بالبخار كان هذا الأفق يبدو كأنه ستار كثيف يحول دون الرغبة فى المضى نحو الشمال •

- ٨ -

بعد شهر ونصف من وضع بوليكسينى لابنها الثالث اندونى دعاها الحاج ابراهيم جمعة مع زوجها لمناسبة أول يوم تخرج فيه من بيتها بعد الولادة • كان ذلك بعد الظهيرة من آخر يوم فى شهر مايو • انتقل الزوجان الى منزل الحاج ابراهيم الذى كان فى انتظارهما مع ولديه • ولم يكد هؤلاء يلمحون الضيفين حتى خفوا جميعا لاستقبالهما على باب مدخل الحديقة وبعد تهنئة بوليكسينى قدموا لها باقة من الياسمين • ولقد ظهرت بعد أن زال عنها آثار الوضع أجمل من ذى قبل وبدت عيناها تشع بريقا كله فتنة •

فى خلال ثمان سنوات بعد الزواج كان لدى بوليكسينى ثلاثة أولاد • كومينوس بعد السنة الثانية زوبه بعد الخامسة واندونى فى السنة الثامنة • غير ان الخيط قد قطع فلم تعقب بعد الثالث أولادا • كان ستراتيس فى الثلاثين من عمره وقد تقدم تقدما محسوسا فى عمله الجديد اذ أصبح شريكا نافعا لفافازوس فأخذ يدير مكتبه ويقاسمه فى الكسب •

ولما كان الحاج جمعة يعرف كذلك فافازوس بواسطة ستراتيس فقد دعاه أيضا مع زوجه فى ذلك اليوم • جلس الضيوف الأربعة ومضيفوهم الثلاثة فى « الشرفة » الكبيرة الواقعة فى الشمال الشرقى من الفيلا وعلى الواجهة الرئيسية •

فى صباح ذلك اليوم هب ريح الخماسين وأشعل بحرارته الأرض والجو معا غير انه بعد أن مالت الشمس نحو الغرب أخذت نسمة خفيفة تهب من الشمال فتكتسح أمامها ما خلفته ريح الخماسين من آثار وتلطف الجو ثم تنتزع بأمواجها من الحديقة رائحة الزهر فينتشر عبيره فى جميع أرجاء البيت •

لم تكن الحديقة من عمل الحاج جمعة بل من عمل المالك الأول للفيلا وهو أحد رعايا النمسا فى مصر فهو الذى وضع رسمها ثم عنى بها فأنبتها نباتا حسنا • وكانت الحديقة من السعة بحيث تشتمل على نحو عشرين ألف من الأذرعة المربعة فى مواجهة الفيلا وعلى جانبى طريقين قد غرست ازهار وورود مختلفة الأنواع متغايرة الألوان متفاوتة الشذى فكنت ترى من ذلك القرنفل والنرجس والزنبق الأحمر • وفى نهاية الجوانب الثلاثة من الحديقة قد غرست أشجار الفاكهة ففى واحدة اشجار البرتقال واليوسفى والليمون وفى الأخرى أشجار المشمش والخوخ والجوافة وفى الثالثة أشجار الموز والمانجو • وعلى مسافة متساوية من هذه الجوانب الثلاثة قد غرس صفان متوازيان من أشجار النخيل كأعمدة منسقة مصفوفة أحدهما لما يغله من ثمر والآخر لما يؤديه من زينه • وفيما بين أشجار النخيل والفاكهة وبين حوائط البيت قد نبتت أزهار مختلفة جميلة وحشائش خضراء زاهية وصنعت طرق صغيرة مستقيمة أو متعرجة فى نهايتها قد اختلط زهر الياسمين بالداتورة •

كان الحاج جمعة فخورا بحديقته . ومعجبا بها أشد الاعجاب فكان يرعاها رعاية حسنة . ويعنى بها أكمل عناية وكان مع ذلك من كبار الملاك له بيوت عديدة وأرض واســعة فى المدينة وفى ضواحيها .

رزق من زوجـه زينب أربعــة أولاد فتــاتين وابنين ولكنها عقب كل وضع كانت تزداد سمنا . كانت اذ ذاك فى الثالثة والخمسين من العمر وزوجها فى الثامنة والخمســين تماما أحس بالحاجة الى ان يستعيد قوته بجانب امرأة أخرى دون ان يقل اجلاله أو يضعف اخلاصه بالنسبة لزينب . أراد زوجته الأخرى فى نضارة الشباب بحيث لا يزيد عمرها عن عمر زينب حين اقترانه بهــا كان لا يرى أى غضاضة فى التفاوت البعيد بين عمره وعمرها وكان يعتقد ان الله كما منح الماء للأرض قد منح المرأة للرجل لكى تحفظ عليه شبابه وبقدر ما يتقدم الرجل فى السن تشتد حاجته الى ان يستعيد شبابه ويجدد قواه . وذات يوم ذهب الحاج جمعة الى منزل « سمكرى » وكان يعمل كأجير فى مصبغة والده ليطلب اليه عملا عاجلا وهناك وجد ضالته . وجد فاطمة ابنة « السمكرى » التى كان لديها اذ ذاك سبعة عشر عاما طويلة القامة نحيفة الجسم سمراء اللون سوداء العينين حادة النظرات واسعة الفم ارجوانية الشفتين فى حيوية جذابة ولأول وهلة حينما مرت فاطمة مكشوفة الوجه أمام الضيف الذى يكبر اياها سنا افتتن بها فلم يتردد فى خطبتها وبالرغم من تفاوت السن لم يرفض والدها هذا الطلب بل وجد فيه شرفا له واعتزازا .

اتخذ الحاج جمعة مسكنا لفاطمة فى منطقة رأس التين واعتاد أن يقضى معها ليلتين فى كل أسبوع . أما زينب وأولادها فكانوا ينظرون الى هذا الزواج كأنه حق للوالد لا يناقش فيه . ولا يعترض عليه ولذا لم يتغير من صلاتهم به أى شىء .

وبعد أن مكث الجميع قليلا فى « الشرفة » دخلت أنثى فافازوس وبوليكسينى لتحية زينب وابنتها صفية التى تعيش بجانب والديها مع زوجها وطفيلها ٠

ولكى ينعم الضيوف بالنظر الى أشعة الشمس الذهبية ساعة الغروب أمر المضيف بأن يقدم لهم طعام العشاء مبكرا وفى نفس « الشرفة » وضعت المائدة وجلس حولهــا الضيفان مع زوجتيهما والحاج جمعة مع ولديه وأخذ الخدم يتتابعون حاملين بين أيديهم أطباقا واسعة تحتوى كما يروى فى ألف ليلة وليلة على أصحن متنوعة الأصناف فيها من لحم ما يطير فى الهواء وما يســـير على الأرض وما يسبح فى الماء ثم أطباقا أخرى تحتوى على أصناف عديدة من الحلوى كتب على بعضها بحب الفستق أبيات من الشعر تكريما وحفاوة بالمدعوين ٠

اختفت الشمس وأخذ البدر يبدو ذهبى اللون فوق بحر من الرمال ثم يرسل ضوءه فى أمواج متتابعة تظهر للرائى كأنها تمتزج بالهواء فيضطرب لها بدوره ٠ وبعد لحظات هبت نسمة اهتزت لها أوراق الشجر فأحدثت حفيفا عذبا وتمايلت منها الأزهار والورود فملأت شذى عطرا ٠

كان مصطفى أحد ولدى الحاج جمعة اذ ذاك فى الخامسة والثلاثين من عمره وأخوه عبد اللطيف فى الثـامنة والعشرين ٠ ومنذ الخامسة عشرة دخل مصطفى الأزهر ودرس فيه اللغة العربية دراسة عميقة واسعة ثم تفسير القرآن والحديث والتوحيد والمنطق والتـــاريخ والرياضـــة والبلاغة والعروض والفقه (علم الميقات « التقويم ») ٠ وبعد خمس عشرة سنة من الدراسة المتواصلة حصل على شهادة العالمية ثم عين فى نفس الأزهر استاذا للتاريخ الاسلامى

ولم يقنع بذلك بل استمر ينمي معارفه بالقراءة والاطلاع أملا فى ان يصبح يوما ما أحد كبار العلماء ٠

أما أخوه عبد اللطيف فقد دخل مدرسة الجزويت فى الاسكندرية وبعد أن حصل على البكالوريا الفرنسية ذهب الى باريس ليدرس الطب ثم تخصص فى أمراض العيون ٠ عاد من فرنسا منذ قليل وأخذ يؤسس لنفسه عيادة خاصة ٠

وبعد العشاء ٠ أراد سترتيس ان يفتح باب الحديث فتخير لذلك موضوعا لم يكن يتوقع أن يجر الى ما انتهى اليه فى صبيحة الأحد الماضى لقى فى الطريق جاره الانجليزى الذى يقطن مع أسرته فى الجهة المضادة لمنزل الحاج جمعة ٠ كان هذا الانجليزى موظفا كبيرا فى الجمارك المصرية وقد تقابل مع ستراتيس عقب خروجه من المنزل متأهبا للذهاب الى الصيد فى ادكو فاستوقفه ستراتيس ثم استأذن فى ان يلقى نظرة على أدوات صيده وحينما وجد ان سنانيره ينقصها الخطاف دار بينهما هذا الحوار :

ـ لماذا تحمل السنانير بدون خطاف ؟

ـ لقد أزلته قصدا ٠

ـ ولأى سبب ؟

ـ لكى أهيىء للسمك فرصة للنجاة ٠

ثم عقب ستراتيس على ذلك بقوله :

ـ ما أشد غرابة الانجليز وأبعدهم عن المألوف ٠

غير ان عبد اللطيف الذى يبغض الانجليز أشد البغض أحس بالحاجة الملحة الى الكلام فقال :

ـ ها أنا ذا أقص عليك قصة يتبين لك منها ان الانجليز قوم غير ما وصفت • فى سنة ١٨٥٢ بعد الانقلاب الذى احدثه لويس نابوليون فى فرنسا وأعلن نفسه امبراطورا على الفرنسيين لم يجد المواطن البولونى الكونت تبليكى بدا من مغادرة باريس والذهاب الى انجلترا • وفى ذات يوم فى لندن دخل احدى الحانات التى تأوى اليها الطبقة الأرستقراطية من الانجليز • وبالقرب منه كان يرقد كلب على احدى الموائد • فمد تيليكى يده اليه يداعبه وعندئذ ادار صاحب الكلب وهو لورد انجليزى وجهه نحو البولونى وقال له من طرف شفتيه • ومع ذلك يا سيدى لم أقدمك الى كلبى • تشادا فتسابا ثم تواعدا على المبارزة فى الغد • وهناك كانت الغلبة للانجليزى واصيب البولونى بضربتى سيف فى جسمه علمه كيف يكون الكبرياء البريطانى الممقوت ولكى يخفف من حدة هذا الجو المتوتر قال الشيخ مصطفى فى وداعته المعتادة تلك العبارة التى لا تدل على كبير معنى :

ـ لكل شعب فضائله وعيوبه •••

غير أن ذلك لم يخفف من غيظ عبد اللطيف الذى يرى فى الانجليز أعداء الوطن وغزاته المستبدين • لقد ارتبط أثناء دراسته فى فرنسا برباط قوى مع الوطنى المثالى مصطفى كامل وآمن بمبادئه ايمانا لا ريب فيه • وكان يطمع أيضا فى أن يجد من أخيه أذنا صاغية لتلك المبادىء غير أنه لم يكن يجد الفرصة ليتحدث معه فى السياسة اذ أن مصطفى كان يتجنب هذا الحديث معه ولم يكن محببا الى نفسه ان يدخل فى نقاش مع هذا الطبيب الثائر • وفوق ذلك لم يكن يجهل أن أخاه من المولعين بالسياسة ومن المحرضين والمنظمين للمظاهرات السياسية ولذا كان يدرك انه لا جدوى من الحديث ولا من النقاش مع أناس من طبعهم الافراط والمغالاة ويرى

انه لا يمكن الوصول الى نتيجة من الحديث مع أخيه • كان ذلك كله من جانب الشيخ مصطفى يؤلم ويؤذى عبد اللطيف ومادامت الفرصة قد سنحت له الآن فسيتحدث معه وسيلزمه بالاصغاء اليه • قال عبد اللطيف مجيبا على عبارة أخيه :

ـ ليس يعنينا ما فى الانجليز من فضائل وعيوب ولكن الذى يهمنا نحن المصريين هو احتلالهم لأرضنا وحكمهم لنا كما يحكم الملوك الحقيقيون •

وفى هذا الجو فهمت اننى وبوليكسينى ان الرجال سيشغلون بالحديث فى أمور خطيرة فرأتا من الخير الدخول عند زينب وابنتها بعد أن فرغتا من طعام العشاء على انفراد فى الداخل وفوق ذلك فان بوليكسينى فى حاجة لان تذهب بعد قليل لكى ترضع صغيرها •

مكث الضيفان والمضيفون وحدهم مرة أخرى فى « الشرفة » وتابع عبد اللطيف حديثه فى عنف ونغمة خطابية كان صوته يبدأ هادئا ثم لا يلبث أن ينبعث بقوة كلما مضى فى الحديث وأخيرا ينتهى برنات واضحة التوقيع كرنات الناقوس فى لحظات من السكون العميق وهو قصير القامة مستدير الوجه ويحمل على عينيه منظارا ويصحب حديثه بحركات عديدة مختلفة فحينا يرفع يديه فى الهواء كجناحى طائر وآخر يلقى بجسمه الى الأمام كما يصنع كفيف حين يتلو القرآن • كان ذلك هجوما عنيفا ضد انجلترا التى استغلت كما يقول عبد اللطيف فترات الضعف فى مصر فاحتلتها واستقرت فيها ثم أضاف الى ذلك قوله « اننا الآن لا نستطيع الا أن نعلن على ضميرها وعلى التفكير العالمى ما ترتكبه من ظلم واستبداد لقد وعدت انجلترا منذ أن وطئت أرض مصر بأنها ستغادر البلاد عندما تسمح لها الظروف بذلك ولكنها حتى اليوم لم تف بما وعدت • واستمر يقول • « ان الشعب المصرى الذى تكون من اصلين عريقين هما

الأصل العربى والأصل الفرعونى ـ ففى ماء النيل وطميه اختلط العرب بمن فى البلاد حتى امتزج كل عنصر بالآخر امتزاجا تاما ـ يبدو اليوم عاجزا مذهولا ولكنه قد صمم على أن يتقدم الى الامام ٠ واذن فواجبه الأول هو العمل بكل الوسائل على طرد الانجليز من البلاد وذلك بالهاب الشعور فى نفس الشباب وبحسن ادارته وتنظيمه وباثارة الرأى العام فى الشعوب الأخرى ٠ وبالثورة والتدمير ٠

فى أثناء ذلك الحديث كان الخدم يحملون على أيديهم أطباقا مليئة بأكواب الشراب ٠ وينتظرون فى الصالة الكبرى ولم يكد عبد اللطيف يفرغ من حديثه حتى دخل هؤلاء الشرفة وقدموا ما يحملون من شراب ٠

وبعد ان اعتذر عبد اللطيف لدى فافازوس وستراتيس عن الحديث فى موضوع قد لا يعنيهم بل ربما لا يتفق مع ما يرون أخذ الشيخ مصطفى يجيب على أخيه :

ـ يا عبد اللطيف ألا ترى انك تهمل الجانب الرئيسى فى المسألة ؟ ليس من شك فى أن الأجنبى الذى يحتل بلادنا عليه أن يغادرها وهو راغم فى أقرب فرصة ٠ ماذا أقول ؟ كان عليه الا يجىء فيحتلها يوما ما ٠ ولكن ماذا يحدث لو جلا الآن عنها ؟ هل سيحتلها أجنبى آخر ؟ ذلك هو ما يجب أن نعنى به أول الأمر ٠ فى الحالة التى يوجد فيها شعبنا لا يكفى ان نشغل انفسنا فقط بالتحرير من الاستعمار الأجنبى ٠ ان نهاية الاستعمار اليوم معناه أن نقع تحت ظلم جديد واستغلال ربما لا يختلف فى حقيقته عن هذا الذى نراه اليوم بل ربما يكون أسوأ وما يدريك لعل الله أوقعنا فى مخالب هذا الفاتح الأجنبى المستبد لكى ندرك أين هو واجبنا الحقيقى ٠٠ كان الشيخ مصطفى يتحدث فى هدوء ولم يكن يصحب حديثه سوى

اشارات منتظمة باصبع يده اليمنى وكان يتوج وجهه الأسمر عمامة بيضاء ناصعة وكانت شفتاه الغليظتان البارزتان تصوران على وجهه باستمرار ملامح الشخص المتعض •

تابع الشيخ مصطفى حديثه شـــارحا أفضل الوسائل كما يراها هو للنهضة الأخلاقية والعقلية بالنسبة للشعب المصرى وانتهى من ذلك كله الى ان الاسلام هو مصدر السلام •

ولم يكد الشيخ مصطفى ينتهى من حديثه حتى وجد الضيوف ان الليل قد تقدم وساعة الانصراف قد حانت فاستأذنوا وخرجوا • لم يرد ستراتيس ان يترك فافازوس وزوجه وحدهما فرافقهما حتى محطة السكة الحديد وفى أثناء الطريق جرى بينهما هذا الحديث :

قال فافازوس :

ـ لقد نسى أصدقاؤنا ما يقدمه لنا التاريخ من أن الشعوب القوية تتولى دائما الاشراف على الشـــعوب الضعيفة • قد يكون احتلال البريطانيين لمصر مفيدا لها حتى ولو خدم هذا الاحتلال أولا مصالح انجلترا •

أجاب استراتيس :

ـ لو تمشـــينا مع هذا المنطق لالزمنا المصريين بقبول هذا الاحتلال الى الأبد مادامو يتعزون بان فيه احتمال الخير لهم •

ـ لست أعنى هذا ولكن يبدو لى أن الوقت لم يحن بعد لأن يطلب المصريون جلاء الانجليز •

ـ قد يكون من الضرورى الآن أن يطلبوا هذا الجلاء لكى يحصلوا عليه يوما ما •

وأثناء عودة ستراتيس الى بيته أخذ يفكر مليا فى كلام الأخوين مصطفى وعبد اللطيف ثم استعاد فى ذاكرته حوادث سنة ١٨٨٢ فوجد ان تلك المحنة الشديدة لم تحسم أمرا ولم تنتج خيرا • ستثار المسألة من جديد يوما ما وسيتطلب الموقف ضحايا جددا وسيخلف وراءه آلاما وأحزانا •• وبينما هو سابح فى تلك الأفكار شرد فكره الى بوليكسينى وأبنائها الثلاثة فأحس بانقباض فى قلبه• غير أن ذلك لم يدم أكثر من لحظة وسرعان ما أحس بوجودهم قريبا منه فطرد من رأسه تلك الهموم وأسرع الخطى لكى يكون بجوارهم بعد قليل • ولقد كان ضوء البدر فى تلك الليلة من الصفاء بحيث احال الليل نهارا •

- ٩ -

كان كومينوس الابن الأكبر لبوليكسينى واستراتيس موضع الحظوة من والديه وكان أبواه يرضيان عنه تمام الرضا ويستريحان لمسلكه كأبن وتلميذ غير ان جانبا من شخصيته كان يسبب لهما أحيانا شيئا من القلق ويخفى وراءه بعض المفاجآت • فكان لا يصارحهما بما يرى عندما يرغبان منه ذلك حتى فى بعض الأمور الهامة التى تتصل به وبمستقبله • كان كثير الانطواء على نفسه وكان لا يكشف عما يرى الا متأخرا وحين يصنع ذلك يكشف عنه فجأة وبصيغة لا تقبل التردد ولا الجدل •

بلغ الفتى الثامنة عشرة من عمره ومنذ ثلاثة أسابيع فقط حصل على البكالوريا وكان أبواه ينتظران منه أن يكشف لهما عن رغبته فيما هو صانع بالنسبة للدراسة العليا التى ينبغى أن يتابعها فى الخارج • وفى مرات عديدة مضت أكد لهما مجيبا عن اسئلتهما بأنه سيدرس القانون أو الطب وكان أبواه يستريحان

لهذا الرأى • غير أنه فى هذه اللحظة فقط يفاجئهما بأنه سيشتغل مع أبيه فى مكتبه •

والآن لماذا عدل عن رأيه ؟

كان كومينوس يجيب عن أسئلة والديه اجابة مرنة مدللة لا صراحة فيها ولا حسم من ورائها فكان يقول لهما : هل ترغبان فى أن استنفذ مالكما فى الانفاق على وان أعيش بعيدا عنكما ؟ اليس من الخير ان أكون بجانبكما ؟ وحينما أكثرا عليه من الأسئلة طلبا منه بالحاح ان يجيبهما فى صراحة قال انه لا يجد فى نفسه ميلا للدراسة العلمية ولكنهما عرضا عليه أن يدرس ما يشاء • ولتكن التجارة وعندئذ قال لهما ان التجارة سأدرسها فى مكتب الوالد •

لقد ضاق صدر ستراتيس بمسلك كومينوس وأحدث نفس المسلك نوعا من خيبة الأمل فى نفس الوالدة ذلك لأن الفتى كان على جانب من الذكاء وأخذت شخصيته تبرز من خلال آرائه وأعماقه• ولذا فقد تملك الوالدين نوع من الطموح فى ان يرياه يوما ما مبرزا فى أحد الأعمال الحرة التى ترفع فى نظر المجتمع فئة من الناس الى الصف الأول فى مسرح الحيـاة ثم تسمو بأقدرهم أو بأمهرهم الى المكان الذى يستطيعون فيه ان يلعبوا الدور الأول من مسرحية الحيـاة •

حقيقة لم يكن لدى كومينوس ميل للدراسـة العلمية تلك الدراسة التى عرفها فى برامجه الثانوية تحت اسم « علوم » ولكى يغرس فيه من جديد حب الدراسة العلمية بعد أن حرم من نشأته الطبيعية فى نفسه كان ينبغى أن تتعهده المدرسة أو يتعهده الوسط الذى يعيش فيه ولكن شيئا من ذلك لم ينقع فاستمر الفتى فى عزوفه عن هذا النوع من الدراسة •

ومع ذلك فقد كان الفتى يستطيع بدون هذا الميل الطبيعى أو الصناعي آن يحصل بفضل ما لديه من مواهب عقليه على دبلوم فى الدراسة العليا يمكنه من ممارسة مهنة المحامى أو الطبيب بل ربما كان حظه من وراء تلك المهنة عظيما لولا عوامل أخرى حالت بينه وبين دراساته العليا • ولو علم النـاس سلفا سبيل النجـاح فسـلكوه وموطن الزلل فتجنبوه لعدوا فى صف الآلهة ولكنهم لا يدركون ذلك الا بعد أن تقع الواقعة أو تحدث الأمور •

منذ سنتين وأسعار الأسهم والعقارات فى ارتفاع مستمر فى مصر كلهـا وبصـفة خاصة فى الاسكندرية وكثيرا ما كانت تثب وثبات متباعدة أما الأسهم فقد آل أمرها الى أن تنتقل من يد الى أخرى عدة مرات فى اليوم الواحد •

وأمام هذا النشاط فى الأسعار قد استمر تأسيس شركات جديدة تصدر بدون تخلف أسـهما لا يلبث ثمنها أن يأخذ فى الارتفاع حتى قبل أن تتبادلها الأيدى فمن جنيه الى ثلاثة الى خمسة الى عشرة جنيهات ومن خمسة الى ثلاثين الى خمسين الى مائة وخمسين جنيها • وكان أصحاب رءوس الأموال الذين يقومون بتأسـيس شركة ما يكلفون عملاءهم بشراء أسهم اسمية هى فى الواقع أضعاف ما يملكون من أسهم حقيقية • فاذا كانت هذه الشركة لا تملك سوى خمسين الفا من الأسهم الحقيقية فان هؤلاء العملاء كانوا يتابعون الشراء الى مائتى ألف من الأسهم الاسمية • ومع ذلك فقد كان الثمن فى ارتفاع مستمر فكان يرتفع الى ثلاثة أضعاف ثم الى خمسة أضعاف وأخيرا الى عشرة أضـعاف • وعندئذ يبيعون مالديهم من أسهم الى مشترين حقيقين لا يساورهم شك فى أن الثمن سيستمر دائما فى ارتفاع •

وكان نصـيب العقارات من حركة المد الطاغية لا يقل عن

نصيب الاسهم فكانت عقودها تنتقل من أيدى البائعين الى أيدى المشترين بسرعة مدهشة وبأثمان هى دائما فى ارتفاع • ولا يكاد المرء يبيع ما لديه من عقار حتى يعض أصبعه من الندم لانه لم يتريث قليلا لكى يحصل على ثمن أعلى غير أنه لا يلبث أن يجد لنفسه العزاء فى شراء عقار آخر مؤملا أن يحقق كسبا خسره نتيجة التسرع وهو لن يخدع فى هذا الأمل •

هذا ولم يعتزل خضم تلك المعمعة سوى الأغبياء كما يقول الناس فليس هناك من انسان يرغب فى الثراء الا وقد ساهم بنصيب فى ذلك المعترك • وكان الناس جميعا ينظرون الى ارتفاع اثمان الأسهم أو العقارات كما ينظرون الى سلم فى السماء لا ترى نهـــايته •

لم تلبث مدينة الاسـكندرية أن اكتست حلة من السـعادة والرخاء • كان الجميع يربحون ولا يوجد هناك خاسر واحد • ولأول مرة فى نظر العامة يتبين خطأ المثل القائل « لا يتحقق الكسب الا على حساب خسارة » • ولم يتوقف أمر الكسب على أصحاب المال فقط وانما كان يتجاوزهم الى كل من له صلة بالشئون الاقتصادية كالسماسرة ورجال البنوك والتجار وكل من كانت لديه بضـــاعة من أى صنف كان أو من كان على استعداد لأداء خدمة من أى نوع استطاع •• لم يلبث هذا الفيضان العارم من ارتفاع الأثمان ان توقف بعد فترة ثم أخذ فى الانخفاض رويدا رويدا وفجأة هوى الى الحضيض بسرعة لا تتصور • فانخفض ثمن العقار الى أكثر بكثير مما كان عليه قبل ارتفاع الأسعار وأما ثمن الأسهم فقد انحدر الى درجة ان ثمن السهم أصبح لا يساوى قيمة الورق الذى طبع عليه وكل من كانت ثروته من أصـــحاب رءوس الأمـوال منحصرة فى أسهم أو فى عقار ــ وهم كثيرون ــ فقد فقدوا كل ما يملكون بل ان كثيرا من هؤلاء أصبحوا مدينين • وأما أولئك الذين استطاعوا

أن يبيعوا ما لديهم من أسهم أو عقار ــ وهم قليلون ــ ثم يحتفظوا بأثمانهما فقد استمروا في عداد الموسرين • وكما عم الربح كل من له صلة بشئون الاقتصاد فقد عمت الخسارة أيضا كل الوسطاء • وكثير من عملاء فافازوس لم يستطع أن يتخلص مما لديه من أسهم فيردها الى مكتبه لكي يتصرف فيها المكتب بدوره • ولذا فقد اضطر المكتب نفسه الى أن يحتفظ بها لحسابه الخاص ثم يودعها في بنوك ليسحب مبالغ من المال على أثمانها ولم تلبث تلك المبالغ أن تجاوزت قيمة هذه الأسهم بفروق شاسعة • ونتيجة ذلك أن وجد فافازوس نفسه مدينا بمبالغ طائلة تفوق ما يملك بكثير •

كثير من مال ستراتيس كان موضـــوعا في مكتب فافازوس وكذلك الشأن بالنسبة لبوليكسيني اذ انها وضعت جزءا كبيرا من ثروتها التي ورثتها عن أبيها منذ ثلاث سنوات • ولم يكن يتصور حل آخر للموقف سوى الافلاس بالنسبة لفافازوس وضياع المال بالنسبة لبوليكسيني وزوجها • وهكذا كان شأن مكتب فافازوس في آخر مرحلة من مراحل الدراسة الثانوية التي قضاها كومينوس •

وسيذكر الأبناء طول حياتهم تلك الشهور النكدة التي قضاها الأبوان في ضيق واغتمام • لم يأت الوالد الى البيت كعادته مبكرا وقت الظهيرة أو حين المساء فكان يتخلف الساعة والساعتين بل كثيرا ما كان يقضي اليوم كله خارج المنزل ولا يرى أبناءه الا في المساء • ولم يكد يطأ عتبة البيت حتى يحاول جهده ان يغير ملامح وجهه المنقبضة ويستبدل بها ملامح أخرى هادئة منفرجة غير ان محاولته كانت تذهب عبثا وكل ما كان يستطيعه هو أن يصطنع ابتسامة لا تشف الا عن هم واكتئاب • ولم يلبث طويلا حتى ينعزل بزوجه في حجرة النوم ويتناقشان في صوت أبح وما كانا ليدخرا وســـعا في أن يخفيا عن الأبناء أمر همهما وموضـــوع

نقاشهما • غير ان انتونى ـ من بين الأبناء أخذ يشعر بما أصاب جو البيت من تغيير ففقد من أجل ذلك ما كان يبدو عليه من بهجة وانشراح وتملكت زويه مظاهر القلق ولكنها لم تكن تستسلم لذلك فكانت تنسى نفسها وما حولها • أما كومينوس فلم يكن يخفى عليه من ذلك شيء قط • فكان يوالى سير الأمور ويفهم كل شيء • ولو عز عليه فهم مسألة من المسائل وعاها بدقة مما يسمعه خارج البيت اذ كان يرهف اذنه ويلقف كل ما يقال من حوله من الأثرياء وخصوصا من أقرباء والدته الذين يسمعون بدورهم ما يبديه آباؤهم من ملاحظات واشارات ثم يعيدونه على كومينوس •

رفض اسلاف فافازوس واصهاره ان يقرضوه ما يحتاج اليه من المال لكى يقوم بسداد بعض ما على مكتبه من دين • وحجتهم فى ذلك ان مايقرضونه من مال لن ينقذ المكتب من المصير الذى آل اليه ولكنه سيفيد الدائنين • ومع ذلك فقد تكونت بعد صعوبات شديدة ومناقشات طويلة فئة مستقيمة من الذين كانت لهم معاملة مع مكتب فافازوس سواء من كان منهم فى انجلترا أم فى مصر لانقاذ المكتب مما حل به وقبلت هـذه الفئـة أن تدفع المعهود لدى « البورصة » وأن يكون سداد ما عليه حيال هذه الفئة بضـاعة لا نقدا • فلقد رضيت هذه الفئة بذلك الحل لثقتها فى فافازوس واستراتيس ولاطمئنانها على أنهما سيتغذيان على ما يحيط بهما من صعوبات •

وبواسطة ما توفر لدى فافازوس من مال وما عليه من دين لبوليكسينى وزوجها استطاع باشتراكه مع استراتيس أن يكونا شركة جديدة برأس مال جديد سميت باسم ـ استراتيس غالانوس وشريكه ـ وحلت محل مكتب فافازوس وهكذا سارت الشركة فى طريقها الجديد بالرغم مما كان يثقلها من دين والتزامات •

لقد كان لهذه الكارثة التى حلت بمكتب فافازوس تحت ادارة استراتيس وقع سيىء فى نفس كومينوس ولم يكن يتصور أبدا أن تحل بوالده تلك الكارثة • وكذلك لم يدر بخلده مطلقا ان يصبح والده فى مثل هذه الحالة من الضيق والضعف والاحتياج بعد ان ألف رؤيته فى ابتهاج ونعمة ونفوذ كان يرى فى والده الانسان الذى لا تهزه الأحداث ولا تنال منه الكوارث •

لم يستطع كومينوس ان يستسيغ كيف حلت بوالده تلك الكارثة ولم يسمح له اذ ذاك سنه ان يجد تعليلا لتلك المصيبة سوى عدم مقدرة فافازوس أو ان خطأ فاحشا صدر عنه وحده أو باشتراكه مع أبيه قد هوى بهما الى ذلك المصير • لقد اكتسب كومينوس أثناء دراساته اعتدادا بنفسه وثقة فى تفوق ذكائه فكان لا يجد ادنى صعوبة لكى يفهم دروسه وكان دائما فى الصف الأول أثناء سنى دراساته ولم يقنع أبدا بأن يكون أول فصله بل كان بينه وبين الثانى فى الترتيب فارق بعيد ومقدرته على فهم كل شىء ومهارته فى ادراك كل شىء جعلتاه يؤمن بأن كل شىء قابل للفهم وكل شىء قابل للادراك وأن العقل الانسانى لا يعجز عن أمر ولا يعز عليه وجود حل لأية مسألة اذ أنه كثيرا ما كان يسبق أستاذه فى فهم النصوص القديمة وترجمتها وشرحها دون أن يكلف نفسه عنتا • والآن وقد رسب فافازوس واستراتيس معا فيما أدياه من امتحان كما كان يتصور كومينوس فقد أقام الفتى من نفسه رقيبا عليهما يحلل شخصية كل منهما ويدرس فى دقة ما يصدر عنهما من أعمال • وبالرغم مما كان يحس به من اجلال بالنسبة لفافازوس الا أنه لمس فيه بعض صفات لا تروق فى نظره وكان يرى فبها سبب ما حل به من كوارث ذلك انه كان مسرفا فى مشربه ومآكله وملبسه وكان له بجانب ذلك عشيقات ينفق عليهن بسخاء ولم يكن يجهل أمر العشيقات سوى امرأته • كان ناجحا فى عمله غير

ان ذلك النجاح لم يكن نتيجة برنامج مرسوم وخطة منظمة وانما كان نتيجة اتجاهات طبيعية والهامات وقتية . وكان يغالى فى ثقته بتلك الاتجاهات وبهذه الالهامات بل كان يعتبرها مقدرة ومهارة وذكاء .

أما بالنسبة لأبيه فكان يحبه ويجله ويقدره الى أقصى ما يتصور عقله من معانى التقدير ولكنه مع ذلك كان يرى فيه جانبا من البراءة وقدرا من الطيبة التى كثيرا ما تحول بينه وبين ادراكه للواقع . وكان الفتى يعتقد ان استعمال قدر من القسوة ضد النفس وضد الآخرين أمر مطلوب ومرغوب فيه .

كان كومينوس يزعم ان النجاح فى العمل يتطلب عينا يقظة فى غير اضطراب وعقلا رزينا فى غير تردد . وكان لا يساوره الشك فى انه يجمع بين هذا العقل وتلك العين . وقد رسم مستقبل حياته أو قصر أحلامه كما يقال لو ان الحديث عن شخص آخر سواه . كان شديد الظمأ لشىء واحد هو ان يؤسس حياته كما يتمناها حياة خصبة جميلة مستقلة بعيدة عن عامة الشعب وطغامه شبيهة الى حد ما بحياة الرهبان الهادئة الممتعة فى صوامعهم وما كان يعنى من وراء ذلك أن يعيش منعزلا عن العالم الخارجى بل له وحده أن يتخير من يود مخالطتهم ويرغب فى أن يعقد صلاته بهم . ولكى يحقق هذه الأمنية كان لا بد له من الاعتماد على ثروة أبيه غير أنه لم يدخل فى حسابه أبدا ان يستغل ثروة أبيه دون ان يعمل هو بنفسه بل الأمر على عكس ذلك تماما كان يتمنى جاهدا ان يحصل على الاستقلال الاقتصادى ولكنه يفهم فى نفس الوقت انه لن يملك من الزمن ما يكفى لكى يستطيع معه تحقيق آماله لو أنه بدأ من لا شىء . أو من صفر كما يقولون . كان لا بد له اذن من ثروة والده وكانت هذه الثروة فى خطر من جراء مشاغل فافازوس

العديدة ومجازفاته الجريئة وكذلك من جراء طيبة اسـتراتيس وبراءته . كان لزاما عليه اذن أن يبقى فى الاسكندرية وان يراقب حركة المكتب ويساهم فيها ان دعت الضرورة . ومع ذلك فكم يكن من الغرور بحيث يطمع فى الاشراف على المكتب بنفسه واملاء مايراه هو من توجيهات اذ أن أولى الأمر لن يسمحوا له بمثل ذلك وهو نفسه لن يجرؤ أبدا على طلبه ومهما بلغت ثقته بنفسـه فقد كان يدرك أيضا ما عليه من واجب وما للآخرين من حقوق . وفوق ذلك فلم يكن هناك من يحس لما لديه من طموح أو يعرف مبلغ ما عنده من ثقة فى نفسه اذ انه كان يحرص على اخفاء ذلك عن النـاس جميعا . ولكنه كان يزعم ان فى استطاعته انقاذ السـفينة من الغرق بواسطة مساهمته فى ادارتها أو بواسطة نصيحة يقدمها الى أبيه مباشرة أو عن طريق والدته . وكان يكفيه فى مبدأ الأمر أن يكون مثله معهما كمثل من يجلس بجانب سائق العربة لكى يرشده الى مواطن الخطر . وكان واثقا فى نفس الوقت بأنه بعد بضعة أسابيع أو شهر على الأكثر سيلم تماما بكل ما يتعلق بشئون « البورصة » وشئون المكتب .

ولكى يحقق مالديه من زعم ضحى بما يمكن ان يجنيه من وراء سـفره الى الخارج أو بما يمكن أن يحصـل عليه من وراء دراساته العليا . ولكن هل كان فى نفسه أن يضحى بذالك الى الأبد ؟ لا . فلم يعدل عن سفره الى أوروبا ولكنه أخره الى أجل ريثما يستقر عمل أبيه ويحصل هو نفسه على بعض المال يكون بمثابة مورد شخصى يعتمد عليه فى شراء بعض الكماليات حتى لا يكون عالة على مال أبيه فقط . ولم يكن هدفه من وراء تلك الدراسة أن يحصل على شهادة أو دبلوم وانما كان يرمى الى أن يتزود من الخبرة والدراسة العملية فى الحياة وذلك يمكن ادراكه بواسطة نوع المعرفة الشخصية والدراسة الحرة .

- ١٠ -

غادر استيفانوس روتاكيس مدينة الاسـكندرية حينما كان كومينوس فى السادسة من عمره نبعد وفاة والده ذهب الى أثينا ليكون بجانب والدته وأخته يعزيهما ويخفف عنهما الم المصاب ٠ وهناك رأى مبلغ ما كانتا فيه من أسى ومقدار ما ينتاب شأنهما من ارتباك ٠ فالتجارة التى تركها والده كانت متواضعه وتصفيتهـا بدت له صعبة وفى حاجة الى وقت طويل ٠ لم يكن من اليسير على والدته ولا على أخته التى لم تتزوج بعد أن يتصرفا وحدهما فى شئون تلك التجارة وظن استيفانوس أول الأمر أنه يكفى لاصلاح أمور التركة أن يمد فى اقامته بأثينا بضعة أيام ولـكنه لم يلبث أن أدرك أن الأمـر يتطلب منه أكثر ممـا ينتظر وبقدر ما يتقدم خطوات فى طريق التخلص من هذه التجارة تبدو له النهاية بعيدة مستعصـية وقدر ما تمضى الأيام تشـتد روابطه وتتأكد صـلاته بأثينا ٠

استمر استيفانوس يكتب الى ايرينى خطابات مليئة بالود ويعدها بالعودة السريعة الى الاسكندرية ومع ذلك فقد مضـت أشهر وهو لا يزال فى بلاد اليونان ٠

وفوق ما كان يشغله من أمور ويحوطه من هموم كان يشعر بتعب جسمانى ويحس بحاجته الى الراحة مما يبذله فى سبيل ذلك كله من نشاط ٠ وكلما فكر فى العودة الى الاسكندرية وفيما ينتظر من عمل هناك وفيما يجب عليه أيضا من رعاية مصـالح والدته وأخته فى أثينا ومن الرجوع اليهما من حين لآخر شعر بانقباض فى الصدر وبثقل فى القلب ٠ كان مستوى حياته فى أثينا أقل منه فى الاسكندرية ومع هذا لم يكن متحمسا للعودة اليها ذلك لأن صورة ايرينى كانت تتراءى لعينيه فتحدق فيهما وتنتظر منه أن يمنحها ماليس فى استطاعته الا وهو الحب ٠ كان وده بالنسبة

لايريني صادقا ولكنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن ينتزعه مما هو فيه من هم وضيق ٠

لم ينقطع عن الكتابة اليها ولكن خطاباته بدأت تتخلف عن مواعيدها المنتظرة وأخذ هـذا التخلف يزداد شيئا فشيئا حتى تلاشت من خيال ايريني فكرة عودته الى الاسكندرية ولم تخدع فى هذا اذ صمم استفانوس على ألا يعـود اليهـا ٠ تركت أيريني كل أمل ولم تعد تنتظر من كائن شيئا وأخذت تعتزل العالم وتنطوى على نفسـها وبراها الضعف حتى أنهـا لم تجد لديها من القوة ما يعينها على أن تبكي شبابها الغض الذى وصل الى خريفه قبل أن ينعم بالربيع ٠

تركت المدرسة تسـير آليا كعجلة الطاحون ووكلت أمرها الى المدرس الذى خلفه وراءه استفانوس ٠ ذبل وجهها بعد نضارته وابيض شعرها بعد سواده وثقل جسمها بعد خفته ورشاقته ٠

قلما كان يعني بأمر زيارتها استراتيس فيندر أن يصطحب زوجه بوليكسيني ويذهب ليراها فى مدرسـتها حيث تقطن مع خادمتها بايو ٠

وفي أول سفر الى بلاد اليونان قام به استراتيس بعد أربع وعشرين سنة قضاها فى الاسكندرية أتيح له أن يلقى استفانوس روتاكيس اذ أنه ذهب مع أسرته لقضاء جزء من فصـل الصيف متنقلا بين ليمنوس والقديس استراتى وأثينا حيث مكث فى كل من هذه الأماكن الثلاثة خمسة عشر يوما ولقد حدث هذا السـفر قبل أن يفرغ كومبنوس من دراساته القانونية بأربع سنوات ٠

وفى ليمنوس سكنت الأسرة بيت السيدة كسافيلى الذى لم يبعد عن البحر الا قليلا لم يكن أثاث هذا البيت أكثر مما ينتظر وجوده فى مسكن من مساكن الجزر قد هجره أصحابه أثناء السنة

ليأووا اليه فى فصل الصيف • لم تكد الأسرة تحل فى هذا البيت حتى استسلمت للراحة من شدة التعب الذى كان يثقل كاهلهما أثناء العمل المتواصل فى مصر • وكانت تؤثر أسرة استراتيس الاقامة فى هذا الركن الوديع وتكتفى بالتنزه حول البيت وعلى شاطىء البحر دون أن تفكر فى الذهاب بعيدا أو التغلغل فى أحضان القرى •

كان كومينوس أقل الأبناء صبرا وأكثرهم تحفزا للذهاب الى القديس استراتى لكى يرى هذه الجزيرة ويحقق هناك ما كان يقصه عليه والده من ذكريات • رحلت بهم السفينة من ليمنوس وانحرفت عن طريقها المعهود معرجة على القديس استراتى لكى تنقل الأسرة اليها وكان ذلك نظير مبلغ باهظ • وهناك استقبلهم كومسينوس العجوز مع كاليوبيتزا ثم هيأ لهم منزلهما فى الطوابق الثلاثة المؤسس على منحدر من الأرض •

أما الطابق الأول فكان يحتوى على مدخل منفصل مفتوح فى نهايته المنحدر وما بقى بعد المدخل كان يستخدم كمطبخ ومخزن لحاجيات البيت • ومن هذا الطابق يمكن الصعود الى الطابق الثانى بواسطة سلم خشبى منفصل يعتمد على الحائط •

وأما الطابق الثانى فيشتمل على سطح واسع يشغل أكثر من نصف مساحة الطابق الأول ومسور بسور خشبى منخفض يمكن منه رؤية الطابق الأول وما هو فيه من ظلام مستمر • وهناك غير بعيد عن السلم الخشبى ينفتح السطح على ممر واسع يشغل المسافة بين السطح وأرض الطابق الأول • وفى احدى نافذتى هذه الساحة كان يوجد حوض للغسيل • وهناك أيضا قد تدلى من السقف حبلان متوازيان أصبح كل منهما على شكل مثلث بعد أن حمل على قاعدتيهما لوح من الخشب معد لحفظ العيش كأنه شىء مقدس •

وفى أعلى مكان من المنحدر كان يوجد الباب الرئيسى حيث يمكن الدخول الى الطابق الثانى بعد الصعود على سلم من الحجر ذى درجات ثلاثة فى مواجهة هـذا الباب يوجد سلم خشبى طبيعى للصعود الى الطابق الثالث وعلى يسار الداخل توجد بقيه الطابق الثانى . ويحتوى الطابق الثالث على حجرتين احداهما للاستقبال سقفها مرتفع يعتمد على عمودين من الخشب هما عبارة عن جذعين غير مشذبين لها نوافذ أربع و « وشرفة » تشرف على طريقين وكل ما فيهـــا من أثاث هو أريكتان أحداهما فى مواجهـة الاخرى وقد كسيت كل منهما ببســـاط من الصوف ذى ألوان محلية عديدة زاهية .

وأما الحجرة الاخرى فهى معدة للنوم تحتوى على سرير واحد غير أن الحائط المواجه لذلك السرير قد شد به لوحان عريضان من الخشب أحدهما فوق الآخر . قد أعدا بدورهما للنوم أيضا ويمكن الصعود اليهما بواسطة سلم جانبى من الخشب .

حلت أسرة استراتيس فى هذا البيت فشغلته كله وأما الجد فقد أوى مع زوجه الى بيت صغير آخر يملكه قريب لهما وقبل أن يعتزلا ذلك البيت وضعا فى خدمـة الأسرة فتاتين قويتين لا ينال منهما تعب أو ملل . لم يكن لخدمتهما ميدان محدود . نظافة كل شىء اعداد المائدة ثم رفعها طهو الطعام تحت رقابة الجدة احضـار الماء ثم غسل ما يمكن غسـله وأخيرا أداء خدمات ضرورية خارج البيت توحى بها ظروف خاصـــة أو يرغب فيها واحد من أفراد الأسرة . أما الطعام فكان مع تنوعه خليطا مما يتوالد فى البحـر أو يعيش فى أرض الجزيرة .

كان ينقص هذه الحياة الهادئة بعض الوسائل التى لابد منها فى حياة المدن وخصوصا الماء وكان هذا مصدر مضـــايقة للسيدة بوليكسينى . وفوق ذلك فقد كان القيظ مريعا ودرجة الحـرارة

مرتفعة باستمرار وزاد فى ذلك أن انقطع الهواء انقطاعا تاما مدة اقامة الأسرة هناك استحالت القرية والمنحدر الجبلى الى سعير ملتهب يشوى كل شىء سواء أكان بالليل أم بالنهار • ولقد زاد الطين بلة ما كان هناك من طنين البعوض ولسعه فيضيف الى آلام القيظ عذابا من نوع آخر •

ولكيلا تجرح شعور زوجها كانت بوليكسينى تحتمل ذلك كله على مضض ولا تتأفف من شىء قط أما هو فـــكان برمابذلك القيظ الشديد ولكن حرصه على أن يرفع من شأن الجزيرة التى نشأ فيها جعله يردد هذه العبارة « لم أعهد فى هذه الجزيرة مثل ذلك الحر ما حييت فيها » وكان يؤذيه بعض الشىء أيضا أن تقف زوجه وأبناؤه على ما ينقص بيت أبويه من وسائل الراحة • ولكن وجوده بجانب والديه وفى الجزيرة التى أنبتته وبين جبالها وعلى شواطىء مياهها وتحت شمسها التى تغرقها بأضوائها وازاء ما له فيها من ذكريات الطفولة كل ذلك جعله يغفل ما هو فيه من تبرم ويشعر بأنه مدين لهذه الجزيرة بقلبه بل بكيانه •

ولم يكن الأمر كذلك بالنســـبة لكومينوس الذى كان فى الرابعة عشرة من عمـره فكان يحتمل الحر ولا يتبرم من شىء بل لقد كان يجد فى ذلك فرصة يخرج فيها من البيت ليشبع نفســه من طبيعة الجزيرة مع والديه تارة وأخويه تارة أخرى • ولقد اشتد كلفه بذلك حتى أنه كان يتجاوز محيط والديه فى خروجه وتنزهه وطوافه وكان حينما لا يجد واحدا من أقربائه صحب أصدقاءه من أبناء الجزيرة الذين عرفوه فالتفوا حوله وألفوا الذهاب معه الى بعض الأماكن النائية فكنت تراه معهم طورا على ظهر حمار وطورا آخر على ظهر بغل ومرة على قدميه وأخرى فى قارب صغير • فيوما تجده معهم فى القديس ديميترى وآخر فى ألونيتسى ذات الكروم الواسعة الجميلة وحينا تلمحه فى فلاكا حيث الغابة الفسيحة من

أشجار الصنوبر وحينا آخر في الجزر الصغيرة المنتشرة فى البحر حول الجزيرة الكبرى التي يقطنون فيهـا • غير أن أحب الأماكن الى قلبه كان شاطىء البحر ذا الرمال الناعمة غير بعيد عن القرية كان يذهب الى الشاطىء مرتين وربما ثلاث مرات فى كل يوم وأقل زمن يمضيه فى كل مرة كان ساعتين كما أن أحب الأوقات الى قلبه كان ساعة الغروب حيث تنعكس أشعة الشمس الذهبية على أمواج البحر الزرقاء فتحملها معها وهى تقترب رويدا الى الشـاطىء ثم لا تلبث أن تتكسر على الرمال وهناك يمكن أن يرى عن بعد ملتصقا بالأفق جبل أكوس ذو اللون الوردى وفى شكله الهرمى •

وكما طاف كومينوس بتلك الأماكن عرف أيضـا القديس استراتى وليمنوس • وللمرة الأولى فى حياته يرى طبيعة تختلف عن طبيعة مصر ويمتزج معها امتزاجا تاما • فمصر بالنسبةللروائيين ومن ينتمون الى أوطان أخرى لا بالنسبة للمصريين أنفسهم تعتبر الى حد ما بلدا صحراويا ليس فيه من المناظر الطبيعية ما اعتاد هؤلاء أن يروه • وفى صبيحة يـوم ما دعا الجد كومينوس الصغير وطلب منه أن يخرج معه فى نزهة وكان الشيخ يفكر فى ذلك منذ أيام أملا فى أن يختلى به ويتحدث اليه ويذكر له بعض النصائـح ويدعو الله أن يبارك له فى حياته ومستقبله • وخرج الاثنان من البيت وبعد أن تجاوزا بساتين القرية اخترقا مجرى ماء فى حالة جفاف ليصلا الى حقل يمتلكه الشيخ فى شكل مستطيل • وهناك فى مدخل الحقل كان يوجد شجرتان من أشجار التين كحارسين عملاقين احداهما على يمين الداخل تنتج تينا أبيض والأخرى على اليسار تنتج تينا أسود • وفى منتصف الحقل عند نهايته على اليسار كانت هناك أيضا شجرة كبيرة من أشجار الصنوبر • كان الصغير ينظر الى تلك الأشجار نظرات تنم عن اعجاب ودهشة وغرابة ولكن الجد قاده الى نهاية الحقل حيث توجد صخرة رمادية اللون تشتمل على غار

يستظل فيه ويتقي به هطول الأمطار وهناك جلس الجد مع الصغير ثم أشعل سيجارته بعد أن لفها بنفسه وأخذ ينظر اليه اختلاسا حينما يشغل الصغير بشئون أخرى • وكلما أراد الجد أن ينطق بعبارة تلعثم لسانه ولم يطاوعه الكلام • فكر الشيخ حينا ثم قال فى نفسه • وماذا عساى أن أذكره وأنا رجل فلاح جاهل لم أتعلم الى هذا الفتي وهو بالرغم من حداثة سنه متعـلم ومن سـكان الاسكندرية تلك المدينة المشهورة الكبرى •• وعلى حين غفلة التقت نظرات الجد بنظرات الصـغير • وعندئذ أطال الجد نظراته الى الصغير ولم يلبث أن غشى الدمع عينيه فافصحت هذه الدموع عما كان يتردد فى خاطره ويضيق به صدره •

وفى أثينا كان روتاكيس يجيء فى صباح كل يوم الى الفندق الذى يقطنه استراتيس ولكن شتان بين ما هو عليه الآن وما كان عليه فيما مضى لقد تغيرت ملامحه وظهر عليه الكبر • لم يتقوس ظهره ولم يضعف تفكيره ولكن وجهه ينم عن تعب جسمانى شديد وفوق ذلك فقد ابيضت لحيته واشتعلت رأسه شيبا •

كان استراتيس فى ظمأ مستمر للحديث معه وكان يجد فى سماعه لذة لا تعدلها لذة وفى أحكامه على الأشياء هداية ورشدا لا يجدهما عند شخص آخر • وفى كل مرة يجلس معه ويصغى الى حديثه كان يخيل اليه أنه يتلقى منه درسا يختم به حياته التعليمية •

أخذ كومينوس يتفرس فى وجه ذلك الرجل الذى لم يشك فى أن والده يحبه ويجله وكثيرا ما كان يفرض عليه نفسه فيتحدث عما يعرف ويكشف عن طوايا نفسه وعن سمات خلقه وطبعه • ولكنه حينما يسمع حديث ذلك الرجل يتصوره فى صورة كتاب قديم قيم يحتاج الى أن يكتب من جديد لكى يكون فى مستوى عقله وفى متناول فهمـه • وكثيرا ماكان كومينوس يردد هذه العبارة « أتلك اذن هى أثينا التى تحدثنا عنها الكتب ويصفها لنا المدرسون

منذ اليوم الذى بدأنا فيه نقرأ حروف الهجاء ·· كان يوازنها اذ ذاك بمدينة الاسكندرية فيجدها فيما عدا بعض أحياء منها بجانب الاسكندرية متواضعة صغيرة فقيرة ينقصها الكثير من الكماليات ويعوزها الماء داخل البيوت غير أن ذلك كله كان يتلاشى من خياله كما يتلاشى الليل أمام النهار حينما يشعر بانها هى تلك المدينة فى هذه الأرض وبتلك المناظر الجميلة التى أغرم بها وأحبها قبل أن يراها ·

كان يعوز الفتى اذ ذاك بعض المعارف التى تجعله يدرك قيمة الآثار القديمة فيستشعر عند رؤيته لها سواء فى أثينا أم فى ضواحيها ذلك الماضى المجيد · وتثير هذه الرؤية فى خياله تلك الذكريات البعيدة الخالدة ·· ولذلك فان احساسه الحار بأن أثينا تراث له كان يطمس على ما يبدو فيها من نقص وفقر · ويطغى على مالديه هو من جهل بمجدها الغابر وماضيها العظيم · ولم ينس مع هذا أيضا انه بدوره ملك لتلك المدينة وان كان يعيش بعيدا عنها ·

- ١١ -

كانت السنوات الأربع التى قضاها فى الاسكندرية كومينوس بعد أن فرغ من دراساته القانونية أسعد أيام حياته لم يعرف الهم فى أثنائها سبيلا اليه وكان يجهل معنى المسئولية جهلا تاما غير أنه لم يدرك ذلك الا بعد أن قطع نصف طريق الحياة وأخذ ينظر بامعان فيما حوله ثم يرجع بذاكرته الى الوراء لكى يوازن بين حاضره وما ضيه ·

قلما ندرك ونحن فى عهد الشباب ما يجلبه لنا ذلك الشباب من فرح وهناء · وهو فى نظرنا ليس الا طريقا لا بد لنا أن نعبره لكى نصل بسرعة الى الهدف الذى نريده وهدفنا انما هو أن نبلغ

سن الرجولة زاعمين أننا نحقق فيه كل رغباتنا غير أننا حينما نقطع ذلك الطريق ونبلغ تلك الغاية حتى ولو لم ينلنا شيء من خيبة الأمل يبدو لنا عهد الشباب فى صورة جميلة مشرقة لا يمكن أن نراه عندما كنا نرفل في حلله ويغمرنا بفيضه • ان السرور الحقيقى الذى لا يعدله سرور آخر هو ذلك الذى نجهل حقيقته ولا نعرف سره ولا ندرك مداه • والمرء فى سن الشباب لا يرى للأشياء حدودا فهو حين لا يكون فريسة للمرض لا يعرف ما هى الأمراض ومادام بعيدا عن البؤس فمن العسير عليه أن يدرك وجوده عند الآخرين • وقبل أن تنشب المنية أظفارها بأحد أقربائه لا يستطيع أن يتصور ما هو الموت وربما رأى فى موت الآخرين حياة لنفسه •

ان التجارب والمعارف عبارة عن تراث ثمين ولكنها أيضا بمثابة السم فى يد الرجل الذى حصل عليها ولم يحتفظ بنقاء قلبه ولا بطهارة روحه •

لم يكن كومينوس ولا رفاقه ينعمون فقط بما هم فيه من نضارة الشباب وانما كانوا ينعمون فوق ذلك بأنهم يعيشون فى بلد لم يكدر صحو سمائه سحابة من الضيق ولا عاصفة من الهموم• ليس من شك فى أن جل المصريين اذ ذاك كانوا يعيشون عيشة يرثى لها ولكنهم كانوا يجهلون حقهم فى الشكوى ولا يدور بخلدهم أن يطالبوا برفع ما هم فيه من مستوى الحياة • كانت الحركة الوطنية ضد الانجليز مقتصرة على بعض أفراد الطبقة المثقفة ولم يتردد صداها بعد بين عامة الشعب • لم تمتد الى مصر تلك الاضطرابات الاجتماعية التى كانت تهز أوربا من حين الى آخر • كان يسود مصر اذ ذاك جو من الهدوء والدعة فيسمح لأولئك الذين يدركون معنى الوجود ولا تنقصهم الوسائل المادية ـ قلت أو كثرت ـ ان ينعموا بالحياة •

في ذلك العهد كان كومينوس دون أن يحسب لذلك حسابا يعيش لنفسه أولا ولأصحابه ثانيا ولذويه من الأبوة والاخوة ثالثا. وليس معنى هذا أنه كان يحب نفسه وأصحابه أكثر من ذويه بل انه كان يشغل بأمور نفسه وشئون أصحابه أكثر من شئون أسرته . كان يهمه أولا وبلا انقطاع حاجياته وعواطفه وأفكاره وقراءاته ومستقبله وكان يتخيل فى أصدقائه المصدر الذى يستمد منه القوة والحركة والنشاط .

كان أغلب وقته بعد أن يفرغ من عمله يقضيه مع أصحابه وكان عددهم ستة . كانوا يجتمعون طويلا فى حديث ونقاش ومزاح وضحك . وقلما كان أمر من الأمور ينتهى فى مجلسهم بغير الضحك . كانوا يتشابهون فى كثير من الشئون فكلهم من التلاميذ القدامي لمدرسة أفيروفا الذين لم يكادوا يغادرون فصولها حتى صادفتهم فى المدينة أفكار ومبادىء تختلف تماما عن تلك الأفكار والمبادىء التى تلقوها فى المدرسة . كلهم أصبحوا من دعاة اللغة الشعبية ومن الراغبين فى معرفة الأدب اليوناني الحديث والآداب الأجنبية والتيارات الفكرية والفلسفية فى أوربا . كلهم يتحدثون بالفرنسية ومنهم من يعرف فوق ذلك الانجليزية أو الألمانية .

كان أكبر الأصدقاء سنا هو ـ سبيرو سانوديس ـ آخر أبناء ـ أندريا سانوديس ـ وكان فى نفس الوقت ابن خالة كومنينوس .

كان في السادسة والعشرين من العمر حينما فرغ كومنينوس من دراساته الثانوية . ومنذ سنة وهو يمارس مهنة الطب فى الاسكندرية بعد أن درس الطب فى برلين . ومع أنه كان شغوفا بالدراسة الطبية كان يدرس فى نفس الوقت الاجتماع ولم تشغله هذه الدراسة عن تتبع الحركة الديموقراطية الاشتراكية فى ألمانيا

ولا عن الأخذ بنصيب من دراسة الأدب الاشتراكي وخصوصا ما كتبه ـ كارل ماركس ـ لقد درس وحلل تحليلا عميقاكتاب هذا الاشتراكي الكبير في المذهب الشيوعي ٠

كان مزاجه يتجاوز حدود مبادئه المثالية ولهذا كان يبدو للناس غير منطقي مع نفسه ٠ لم تكن هناك ملاءمة تامة بين ذكائه أو عقله وبين أفكاره وطريقته في الحياة كما لم تكن هناك ملاءمة تامة أيضا بين احساسه أو شعوره وبين تلك الأفكار التي كان يعلنها من حين الى حين ٠ كان يؤمن ايمانا عميقا بالاشتراكية ولكنه مع ذلك كان ينعم بالحياة وما فيها من لذائذ كما ينعم الأثرياء « البورجوازيون » أذواقه وعاداته هي أذواق الطبقة البورجوازية وعاداتها ولو رآه انسان يجهله أو كان ذلك الانسان ضيق الأفق لشك في اخلاصه بالنسبة لما يذكره في المجتمع من آراء ٠ أما هو فلم يأبه بشيء من ذلك ولم يحاول مطلقا أن يخفي أو يتنكر لما يبديه من أفكار وكانت الاسكندرية كلها سواء في ذلك اليونانيون أم الأجانب تعرفه معرفة تامة وكان الناس يسمونه ـ الاشتراكي ـ غير أن الجميع في ذلك الوقت كان يجهل معنى الاشتراكية ٠

في ذات يوم مر ـ اسبيرو ـ في شارع رشيد سمهري القامة مستدير الوجه عريض الأكتاف وديع المرأى ولكنه رزين الملامح هادىء الطبع ولكنه قوى العضلات فلقى في طريقه رجلا يعرفه ولكنه يسير مع زوجته وابنه فحياه برفع قبعته ولكن في كثير من الجلال والوقار وهنا دار الحديث بين الرجل وزوجه وابنه فقال الرجل لزوجه ٠

ـ أرأيت من حيانا منذ لحظة ؟ انه اسبيرو سانودى الطبيب و ٠٠٠ الاشتراكي ٠

وعندئذ طلبت الزوجة ٠

ـ ما هي الاشتراكية اذن ؟

فضاق الزوج بهذا السؤال وبعد تردد قال ·

ـ ان الاشتراكية أشبه شيء بما يقال مثلا ··· كل ما أملكه أعطيه الى من لا يملك شيئا أو يملك القليل من الأشياء ·

وعندئذ قال الابن على الفور وهو فى الثانية عشرة من عمره :

ـ لا تعط شيئا يا أبى قبل أن تأخذ من ـ داموبولو ـ كل ما يملك ·

كان داموبولو يعتبر واحدا من أكبر أغنياء الاسكندرية وكانت عبارة الطفل فى نظر أبويه دليلا على قوة ذكائه فاستخدماها فى محيطهما زمنا طويلا كموضوع للهو والضحك ·

لم يكن ـ اسبيرو ـ فى واقع الأمر من دعاة الاشتراكية بالرغم من أنه كان يدين بها ويؤمن بمبادئها ولذا فقد كان يخطىء الذين يتهمونه بأنه أحد أعضاء جمعية ثورية تعمل على اثارة الخواطر فى مصر وتهدد بقلب نظمامها الاجتماعى · كان حديثه عن الاشتراكيين فى أحد ظرفين · حينما يسأل عنها أو حينما يناقش فيها مناقشة جدية · وقلما يجد الفرصة للحديث عنها فى غير هذين الظرفين عندما يكون مع أصحابه اذ أن وقته معهم لم يكن يتسع لغير الدعابة واللهو والضحك والمزاح أما بالنسبة لحركة اللغة اليونانية الشعبية فكان متحمسا لها داعية من دعاتها وكان أحد المؤسسين الأصليين للجمعية الأدبية ـ نيازوبى ـ الحياة الجديدة ولمجلتها التى كانت يومئذ لسان حالها ·

ولقد شارك فى نشاط هذه الجمعية ـ جيراسيموس فيجاليتوس ـ لا لشيء آخر سوى صداقته القوية لكومنينوس ومن المحتمل أنه لولا تلك الصداقة لما اهتم بالأدب ولا بما يدور فى تلك الجمعية من أفكار · وربما كانوا على صواب أولئك الذين

يزعمون انه لم يقرأ فى حياته ماعدا الكتب المدرسية كتابا واحدا من أول صفحة فيه الى آخر صفحة ٠

ومع ذلك فليس من الضرورى دائما أن تتوفر المعرفة الواسعة الحقة لكى يصبح المرء داعية من دعاة المبادىء والمثل العليا أو يصير عضوا من أعضاء حركة أدبية أو فنية فمبدأ هذه الجمعية ونظامها كانت تمــلأ رائحتهمـــا الأجواء فى ذلك الوقت وكان النــاس يتنفسونها كما يتنفسون الهواء وكان يكفى لذلك القليل من المعرفة مع احساس دقيق قوى وعقل متحرك نشيط ٠

بدأت صداقة هؤلاء مع كومنينوس منذ السنة الأولى واستمرت حتى السنة الأخيرة من الدراســة اذ أنهم دخلوا المدرسة ســـويا وخرجوا منها سويا ٠ وكان الذى يتعهد بجراسيموس وبمصروفاته المدرسية انما هو عمه العزب ليون فبجاليتوس اذ أن والده مات وهو طفل صغير ولم يخلف له وراءه شيئا وكانت أمه فقيرة اضطرت الى أن تعمل عند الآخرين ٠ لكى تكسب قليلا من المال تصلح به من أمرها وتنفق منه على تربية ابنهـــا ولو لم يتحمل عمه مصروفاته المدرسية لعجزت أمه عن القيام بأعباء تعليمه وتثقيفه ٠ لقد كان هذا العم منصرفا تماما عن أخيه أثناء حياته ولم يرغب مطلقا فى أن تكون بينه وبين أسرة أخيه أدنى صلة ذلك لأنه تزوج من الفتاة التى تصلح أموره وتعيش بجواره كخادمة ٠ وبقى العم مصمما على أن يسلك نفس المسلك مع أسرة أخيه بعد وفاته غير أن القوم قد ائتمروا به ليغير من مسلكه فذهبوا اليه على حين غفلة ومعهم ابن أخيه اليتيم الصغير جيراسيموس ثم انصرفوا وتركوه عنده ٠ أثار منظر اليتيم عند عمه عاطفة فياضة واشفاقا قويا لم يســتطع أن يتجرد منهما أو يتغلب عليهما فرق قلبه وقبل الصغير تحت رعايته٠ وبعد أن فرغ جيراسيموس من دراساته أخذ يشتغل مــع عمه فى مكتبه ٠ كان جيراسيموس صديقا وفيا لكومنينوس وكان اخلاصه

له لا ينتهى عند غاية • لم يكن كبير الثقة فى نفسه ولا فى أحكامه على الأشياء ولذا فهو عظيم التقدير لصديقه كومنينوس الذى يملك هذه الخدمة • وحتى حينما يبدو أن كومنينوس قد خدع فيما رآه وقدره كانت الطريقة التى يتبعها دائما طريقة ايجابية • من أجل ذلك كان جيراسيموس فى حاجة الى الثقة التى يستلهمها دائما من صديقه وكان وهو بجانبه يستشعر كثيرا من الطمأنينة •

أما اريستيديس لوكيريس فكان ماهرا فى الرياضة قوى الاحساس ملتهب العواطف كان يجد من نفسه الحلول لأعقد نظريات الجبر والهندسة وكان من أجل ذلك مدرسة فى الرياضة يشيد به ويثنى عليه بين زملائه من حين لآخر • كانت فطنته الرياضية بالغة حتى قيل ان عقله قد صنع خاصة لفهم الرياضة وادراك ما غمض منها • ومع ذلك فقد كانت حواسه فى اضطراب متواصل بسبب ما يحدث له من أمور أو ما يراه فى وجوه من يعرفهم من ملامح • وكان من أولئك الذين اذا عرض لهم أمر لم يتردد لحظة واحدة أمامه فان وقع منهم موقع الرضا قبلوه مهما كانت نتائجه وأن أثار فيهم حاسة البغض رفضوه فى سخط وغضب • لم يكن يعرف معنى للتريث ولا للتحفظ ولا للسيطرة على الأعصاب • وكان للمرأة سلطان عظيم على نفسه فكان يحب كل من يرى فيها معنى من معانى الجمال • ولكن مع كثرة من يحب كان يتخير من بينهم واحدة يؤثرها بعواطفه الحارة ويتخذ منها ملاكا لعبادته • ومع ذلك فقد كان من الذين يؤمنون بصلاحية اللغة اليونانية الشعبية ويعملون جهدهم على احيائها • فكان يستعملها فى مكاتباته مع أقربائه وأصدقائه ولكن فى مهارة ودقة وصفاء •

بعد أن فرغ من دراساته الثانوية بقى فى الاسكندرية لم يبرحها حتى تيسر لوالده أن يواجه نفقات دراساته العليا فى

الخارج وأثناء انتظاره استطاع أن يعد نفسه لامتحان القبول فى مدرسة الهندسة بباريس .

وأما الشاعر باندلى فلاسيديس فكان صاحب مكتبة فى الاسكندرية وكان يتردد على هذه المكتبة أصدقاؤه والمثقفون من هواة القراءة والاطلاع . تخرج من مدرسة افروف الثانوية قبل كومنينوس بسنة واحدة ودون تردد فتح هذه المكتبة فى شارع سيدى المتولى لا رغبة فى الكسب ولكن حبا فى القراءة والاطلاع حتى انه كان أكثر أصحابه نظرا فى الكتب وقراءة لموضوعاتها . عرف بالشعر ولكنه لم يكن أصيلا فيه ومع ذلك لم يخل هذا الشعر من بعض العواطف والاحساسات التى تشرح جانبا من جوانب نفسه . كان عظيم الاعجاب بشعره وحينما لا يجد من يقرأ هذا الشعر ولا من يصغى اليه كان يترنم هو بقراءته ويصغى اليه اصغاء المفتون وكان ذا حس مرهف بالنسبة لما ينظم من الشعر فأبسط أنواع الثناء بالنسبة لشعره يجعله يطير فرحا وأقل نقد يوجه اليه يكدر عليه صفو الحياة أياما .

كان أحد اثنين عرفا بالمقدرة على الكتابة الأدبية فى تلك الجماعة من الأصدقاء أما الثانى ـ فكان ميرتيدس وكان هنا ثالث أيضا يمارس الكتابة من حين الى آخر هو ـ سيانوديس ـ غير أن كتابته لم تخرج من دائرة تسجيل بعض ملاحظات عابرة . اما بانديلى فكان ينشر ما ينظمه من الشعر فى بعض المجلات فى الاسكندرية ثم يجمعه ويطبعه فى دواوين مختلفة .

ومنذ عهد التلمذة كان لوكاس ميريتيس من أنصار اللغة الشعبية اليونانية فكان يقرأ فى نهم متخفيا من أبيه ومدرسيه من كتب بهذه اللغة الشعبية أمثال بسيكارى وبالاما وكثير غيرهم . وكان اعجابه بهذه اللغة وتقديره ، لها يفوق حد الوصف وكان شديد الحرص على أن يستعملها فى كتاباته استعمالا صحيحا

وبأساليب متنوعة وكانت المجلات الثلاث ـ نيازوبى سيرابيون ـ غراماتا ـ تتبادل نشر ما يكتبه فى النقد غير أن هذه النزعة فى صاحبنا لم تكن موضــع الرضا من أبيه الذى كان من كبار تجار القطن المعروفين فى مصر اذ أن نقاشا دار بينه وبين والده بشأن ذلك قبل أن يفرغ من دراساته الثانوية وحينما عرف وجهة نظر ابنه نحو اللغة الشعبية أصابه كثير من الذعر وأحس بخيبة أمل بل اعتقد منذ ذلك اليوم أنه فقد فى ابنه كل رجاء · وقبل أن يكل اليه عملا فى مكتبه أرسله الى أحد البنوك كموظف لــكى يمارس تلك المهنة ·

وقد اعتاد هؤلاء الأصدقاء ان يجتمعوا فى كل أسبوع مرة اما فى مكتبة فلاسيديس واما فى أحد محال الحلوى بشارع الرمل ولم يكن من شــأنهم أن يتخلف أحدهم بدون عذر · وكانوا اذا اجتمعوا يبدءون أحاديثهم كما يفرغون منها بالضــــحك والطرف والنكات الأدبية · ومن حين الى حين يعرض موضوع جدى فيصرفهم عن اللهو لكى يقتلوه بحثا ونقاشا وكثيرا ما كان سانودى يعتبر حكما فى هذه المناقشات الجدية ورأيه فيها يعتبر القول الفصــــل بالرغم من مشاركته لهم فى موضوعات الضحك واللهو · كان أغلب حديثه عن الفن والنظريات الفنية وكلمــــا حاول أن يحدد الفن ويشرحه عن طريق المادية التاريخية لم يجد من الأصدقاء من يؤيده فى الرأى سوى ميريتيس الذىلم يكن من أشياعالماركسية ولكنهمن أولئك الذين يحكمون العقل فى كل شىء ويدينون بالواقعية الى حد كبير ومن أجل ذلك كان يتلمس فى وجهات النظر المختلفة الجوانب المنزوية من الحقيقة والواقع لكى يبنى عليها حججه وأسانيده ·

ولم تشغلهم هــذه الاجتماعات الدورية عن الخروج للتنزه من وقت لآخــــر وكان أحب مكان الى أنفســــهم هو المحمودية وطريق وصولهم اليها هو عربة بجوادين لكى تسعهم جميعا وأحيانا يصلون

اليها سـيرا على الأقدام فكانوا عنـد ترعة المحمودية قبيل غروب الشمس حيث تستهويهم المناظر الطبيعية الفاتنة والمراكب الشراعية المنخفضة المنبطحة وكانت هذه المراكب ذات الأشرعة المثلثة المنطلقة فى الهواء تستحوذ على كثير من اعجابهم سواء اكانت محملة بالبضاعة أم فارغة منها • وكم كان محببا الى أنفسهم ان يروا هذه المراكب وقد أثقلتها الأحمال تسير وئيدا بواسطة رجال يجرونها بالحبال لأن الريح لا تسعفها • كان الأصدقاء يسيرون فى ذلك الطريق الجميل مستظلين بأشجاره الوارفة الفارهة العظيمة ومن وقت لآخر يتوقفون عن السير ليروا عن بعد بحيرة مريوط فى امتدادها الشاسع وبمياهها المنبسطة الساكنة •

كانوا جميعا يحضرون اجتماعات رابطة ـ نيازوبى ـ ويقرءون ما ينشر فى مجلتها من موضوعات • وحينما انفصل من هذه الرابطة الشـاعر ببتروس ماجنيس ـ ومعـه آخرون لـكى يحرروا مجلة سيرابيون ـ لحق بهم ميريتيس وبعد حين انفصل أيضا من الرابطة الناقد ديميترى زاخاريادیس واستفانو بارجا وآخرون وشرعوا فى تأسيس رابطة جديدة أطلقوا عليها اسم ـ غراماتا ـ وفى تحرير مجلة جديدة بنفس الاسم وقد انضـم الى هـذه الرابطة الجديدة ميريتيس • وهكذا وجدت فى الاسكندرية خلال بضع سنوات حركة أدبية قامت على أكتاف نحو ثلاثين من الشـبيبة اليونانية تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين • وبقدر ما كان يجد أولئك الشبان من لذة فى الأدب اليونانى كانوا يتحمسون لاحيائه ولاحياء اللغة الشعبية ومن أجل ذلك كانوا يؤلفون مراكز مختلفة يجتمـع كل فريق فى مركز خاص حيث تلقى الأحـاديث وتدور المناقشات وتعـد المقالات لتنشر فى السجلات وكانوا هم أنفسهم الذين ينفقون على هذه الحركة من أموالهم الخاصة •

كان هؤلاء الشباب يكونون الجيل الرابع من الموجة الأولى من موجات المهاجرين اليونانيين التي وصلت الى مصر منذ ١٥٠ عاما ٠ لم يكن مجهودهم في تلك الحركة واسعا كبيرا كما لم يكن ذا أصالة ولكن ذلك كان بمثابة محاولة لايقاظ فكرى فى مدينة الاسكندرية التى لم يزل يشع فيها بريق أضواء مترامية كانها تنبعث من الثقافة اليونانية القديمة٠ اضطرت هذه المحاولة الى أن تشد من أزر المعركة القائمة اذ ذاك لمصلحة اللغة الشعبية وأن ترفع من شأن الفن وتخلق شعراء جددا وكتابا قديرين كما ساهمت بنصيب كبير فى شهرة من كانوا مغمورين من الكتاب والشعراء ثم كان من نتيجتها دون قصد منها أن تحتضن شخصية الشاعر كافانى وآثاره الشعرية ٠

بدأ كومنينوس عمله فى مكتب أبيه دون تأخر كما رسم ذلك لنفسه من قبل ٠ وكان فى أيامه الأولى من عمله موضـــع الرعاية والاهتمام من أبيه وشريكه فافازوس اذ أنهما كانا يفكران أن من واجبهما أن يجعلاه يشـعر من أول الأمر أن العمـل شيء جدى ٠ لا لهو ولا هوادة فيه وانه ينبغى أن يؤخذ العمل بكثير من الجـــد والتقدير والوقار ٠ أما الفتى فلم يكن فى حـــاجة الى مثل تلك التوجيهات اذ كانت عنده وسائل المعرفة ولديه ملكات الفهم غير أنه كان يصغى اليهما ويتقبلها دون اعتراض خضوعا منه الى النظام الذى وضعه من قبل أبواه باشتراكهما مع فافازوس ٠ لقـد وكل اليه أول الأمر أبسط الأعمال فى المكتب غير أنه لم يلبث أن اندمج فى طبيعتها ثم درج عليها ٠ وبالرغم من تحمس الفتى للعمل وثقته فى مقدرته واعتزازه بكفاءته فانه أدرك مع مرور الأيام وتشـــعب الأعمال وتداخل المهام أن الأمر ليس هينا كما كان يتصور ٠٠ ومع ذلك فقد كان يقظا مثابرا الا أنه أدرك أن ليس فى استطاعته أن يسير وفق البرنامج الذى وضعه لنفسه منذ زمن بالنسبة لسير الأعمال وضبطها ومجانية ما يهددها من أخطـار وأدرك كذلك أن والده

وشريكه معه يديران العمل بعزيمة وحزم فكثيرا ما كان يلاحظهما يدرسان المسائل فى ساعات وربما فى دقائق ثم يتخذان فيها قرارا فتكون النتائج وفق رأيهما وتدبيرهما ٠

لم يكرس كومنينوس كل وقته ولا كل امكانياته العقلية لذلك العمل فكان يمنحه من ذلك ما يكفي لسيره أما ما بقى من وقته ومن امكانياته فقد كان يصرفه فى القراءة والتأمل والاطلاع ٠

أما جيراسيمو فيجاليتوس فكان منذ الخامسة عشرة من عمره يعرف ما للمرأة من سلطان على نفوس الشبان ويدرك مبلغ ما تجلبه من لذة ومتعة فى مصاحبتها ومحادثتها ومعاشرتها وكان كلفا بأن يقص على كومينيوس ما يحدث له مع الفاتنات الأوربيات٠ولم يكن من العسير عليه أن يتعرف بهن ويصاحبهن لما فيه من دماثة وعذوبة منطق ٠ ولو أسر اليه كومنينوس برغبته فى واحدة منهن لما تخلف ولجره معه فى ذلك السبيل غير أن كومنينوس لم يكن حتى ذلك اليوم يلقى بالا الى اغراء المرأة لا لأن الرغبة فيها تعوزه بل على العكس من ذلك كانت تلك الرغبة تشغله وتعذبه ولكنه كان يعتقد أن الوقت لذلك لم يحن بعد فبقى كذلك بعيدا عن هذا الجو حتى آخر عهده بالدراسة الثانوية ومع هذا فلم يكن يقنع كصاحبه بذلك الحب السريع الموقوت فكان من أولئك الذين يودون اختيار المرأة التى يحبونها ثم يحاولون غزو قلبها بعد ذلك ٠

فى نفس السنة التى بدأ فيها عمله بمكتب والده انتقلت أسرته من شدس الى مسكن جديد وسط المدينة فى شارع رشيد ٠ وفى هذا المنزل كانت تقطن أيضا السيدة ايلى ميليوتى التى كانت تعد أصغر صديقة لوالدة كومينيوس ٠ كانت فى الثانية والعشرين من العمر وقد تزوجها شيخ طاعن فى السن ولكنه عظيم الثراء رغبة فى شبابها وفتنة بجمالها ٠ لم يكد يراها الفتى كومنينوس حتى

تعجب بها • أما هي فلم ترد أول الامر أن تعرض حياتها الزوجية للخطر ولم تجد سببا يدعوها لأن تتخذ لها صاحبا اذ أن زوجها كان يحبها ولا يحس منها بأي رغبة الا أشبعها ومع ذلك فقد كانت تشعر من حين الى آخر بأن السرور الحقيقي ينقصها في بيتها وبين أصحابها فكانت لا تستطيع ولا تجد الفرصة لأن تلعب أو تلهو أو تضحك من كل قلبها • ولم تلبث أن رأت في كومنينوس صاحبا في نفس السن تستطيع أن تلهو معه دون خطر فكانت تراه من وقت لآخر بجانب والدته وكانت تتحدث معه بواسطة التليفون كلما سنحت لها فرصة كانت تجد لذة في أحاديثه وكان يغريها ويسرها ما يبديه لها من افتتان واعجاب شعر صاحبنا بعاطفة جارفة من الحب نحوها ولكنه كان يلتزم أمامها كثيرا من التحفظ والوقار كما كان يتجنب كل ما من شأنه أن يخيفها أو يجفلها • كان يكثر من الثناء عليها ولا يحاول أن يطلب شيئا منها • وبعد أشهر على هذه الوتيرة طلب اليها أن تستقبله في مسكنها • كانت السيدة ايلى تحس في قلبها بعاطفة نحوه ولكنها لم تكن تستطيع أن تكيف هذه العاطفة ولا أن تدرك لها مدى ، ومع هذا كانت لا تخشى وجوده معها كما ينبغي أن تخشى وجودها مع رجل آخر اذ أنها كانت تكبره بثلاث سنوات وبعد تفكير في أمر زيارته أذنت له صباح ذات يوم بأن يحضر في مسكنها حيث لم يكن هناك سواها • ولم يكد كومنينوس ينصرف من تلك الزيارة حتى تملكها حب جارف نحوه فتبدل تفكيرها ونسيت كل ما يعرض زوجيتها للخطر ولم تنظر الا بعين غرائزها الجنسية وطلبت منه أن يتردد اليها ومنذ الزيارة الثانية لم ترفض له طلبا •

فكر هذا الجمع من الأصدقاء في تنظيم حفل يضم شملهم للسمر واللهو والمرح ولكن كيف يمكن ذلك بدون حضور فتيات ؟ اما اخواتهم أو صديقاتهم فلم يكن من شأنهن ولا من عادتهن أن

يصطحبنهن اذ أن الصديقات لا يستطعن الخروج لليلة ساهرة دون أن يكن فى صحبة أقربائهن • والاخوات كن اما متزوجات واما ممنوعات من الذهاب لمثل هذه الاجتماعات • ومع ذلك فقد كان من الضرورى أن تحضر هذا الحفل سيدة على الأقل • وبينما الكل فى حيرة من أمر ذلك اذ أخذ جيراسيموس على عاتقه أن يحضر تلك السيدة •• فى آخر رحلة لعمه الى أوربا رجع الى مصر ومعه عاشقة فرنسية عرفها فى أحد فنادق باريس حيث كانت تعمل كسكرتيرة فى ذلك الفندق • كان ذلك العم ليون فيجاليتوس من أولئك الذين لا يستطيعون الحياة الا بجانب المرأة ولكنه كان عدوا للزواج • ومن أجل ذلك ألف العيش مع العاشقات • كان يبلغ من العمر اذ ذاك خمسين سنة وكانت صاحبته الباريسية فى الخامسة والعشرين ولكنها حسناء جذابة فاتنة • كان يخرج فى مساء كل يوم بعد العشاء ليذهب الى صالون سانودى حوالى الساعة العاشرة • وكان رواد هذا الصالون من العزاب والشباب ينتظرون فى لهفة مجىء الباريسية الحسناء ولم تكد تدخل الصالون حتى يلتهمها الجميع بنظراتهم ويحملقون فيها بأبصارهم كأن عيونهم شدت نحوها بأوتار • ومع ما لها من جمال وما فيها من فتنة كانت سمهرية القامة هيفاء زرقاء العينين كستنائية الشعر رشيقة فى ملبسها وفى حركاتها وكانت تدعى نينيت كانت فريدة فى جمالها وكانت تصل الى الصالون فى هذه الساعة المتأخرة حينما لا يكون هناك امرأة سواها فكانت تنشر بين هؤلاء الرواد المتعطشين الى المرأة عبيرا فيه من السرور والمتعة وفيه من الألم والعذاب أيضا •

كان ليون فيجاليتوس من كبار الملاك فكان يملك « عزبة » كبيرة فى مديرية الغربية وكان يدير أمور هذه العزبة فى مكتبه بالاسكندريه •

أما جيراسيموس فكان وارثه الوحيد وكان كل أصدقائه يرون فيه المالك لتلك العزبة بعد وفاة عمه ٠

ومن أبرز الصفات لدى ليون فيجالينوس الشح والغيرة وقد قاسى كثيرا من وراء تلك الغيرة بالنسبة لعاشقاته جميعا ٠ اذ أن هذا الصنف من النساء أكثر تعرضا لمغازلة الرجـال وأطوعهن الى تلبية النداء ومع ذلك فقـد وكل هـــذا الرجل المجرب أمر غادته الباريسية الى شاب لا يتجاوز العشرين سنة وكان رائده فى ذلك تفكيره الساذج فى أمرين ٠ الاول أن الفتى ليس أجنبيـا فهو ابن أخيـه وبمثابة ابنـه فى نفس الوقت والأمر الثـانى أن نينيت فى أحاديثها معه منذ أن غادرا باريس كانت تقول له ان أبغض الرجال الى قلبها هم الشبان ٠

بهـذه السذاجة أسـلم ليون فيجالينوس صاحبته الى ابن أخيه أملا فى أن يكون سميرا ومؤنسا لها حينما يذهب هو الى زيارة عزبته فى الغربية ثم ليقضى لها حاجاتها أثناء غيبته ٠ لم يكد يمضى ثلاثة أشهر على وصول نينيت الى الاسكندرية حتى حدث مالم يكن فى حسـبان الشيخ ففى ذات يوم خلا المنزل بعـد الظهيرة الا من جيراسيموس ونينيت وعندئذ أحس الشاب بموجة من السرور تجرف كل مشاعره وترك لخياله تصوير ما يمكن أن يجده من متعة ولذة مع الباريسية الحسناء بل لقد أضاف خياله على ذلك صورا أخرى مبالغا فيها وربما لا تمت الى الواقع بأى صـلة فنهض قائما وأخذ يغنى ويرقص متتبعا بحركات جسمه وصوت أقدامه توقيعات موسيقى الغناء فتارة ينقبض وأخرى ينبسط وطورا يتمايل وآخر يعتـدل ومرة يرسل ساقه فى الهواء وأخرى يضع يده على خاصرته وهكذا كمن تملكته نشوة أو أخذه هذيان ٠ وفى تلك اللحظة كانت نينيت قائمة فى وسط حجرتها مرتدية ثوبا أسود ذى طيات منسقة قد

زادها فتنة وجمالا وكانت تنظره فى اعجاب وتضحك بملء فيها ٠ أما هو فكان فى حركاته تلك يدنو منها رويدا رويدا واذا ما كانت على مقربة منه طوقها بذراعيه وطفق يدور بها فى فناء الحجرة حتى أخذها دوار فاستسلمت له استسلاما كاملا وتركته يحقق لنفسه ما رسمه لها من قبل ٠

لم يكن جيراسيموس من أولئك الذين لا يعترفون بالجميل كما لم يكن ينقصه الاجلال والاخلاص نحو عمه ولكن فيما يختص بالمرأة لم يشعر بأدنى وخز للضمير فالمرأة فى نظره ملك لمن يأخذها أو لمن يستطيع أن يأخذها ٠ وربما كان الامر غير ذلك لو أن نينيت كانت زوجا لعمه ٠

حينما أراد الأصدقاء أن تحضر امرأة حفلهم فكر جيراسيموس فى نينيت وكان غرضه من ذلك أن يشبع رغبة أصحابه وأن يدخل السرور على نفس نينيت ٠ وأن يجد فرصة يرى فيها أصدقاءه مبلغ ما له من دلال وسلطان على قلب تلك الغادة الباريسية الحسناء التى لم يكن أحد منهم يعرف مبلغ صلتها به سوى كومنينوس ٠

كان عادة ليون فيجاليتوس أن يغادر الاسكندرية قاصدا عزبته فى مساء كل خميس ليقضى فيها ليلة الجمعة ويوم الجمعة ثم يعود فى مساء الجمعة وكان يخرج من منزله فى الساعة الثالثة بعد الظهر ليأخذ أول قطار سريع الى طنطا ومن أجل ذلك اتفق جيراسيموس مع أصحابه أن يكون الحفل فى مساء خميس ٠

وفى الساعة التاسعة من مساء ذلك الخميس ذهب جيراسيموس تصحبه نينيت الى حديقة النزهة حيث كان الأصدقاء فى انتظارهما ٠ كان كل واحد يرتدى أجمل مايملك من ملابس وقد اتفقوا جميعا على تناول طعام العشاء فى مطعم الحديقة ٠ ووكلوا الى جيراسيموس اعداد قائمة الطعام واختيار أصناف الأنبذة الفرنسية ٠

وفي هذه الليلة أظهروا سخاء نادرا فأكلوا ما طاب لهم وشربوا ما لذ لنفوسهم وكان الحديث بينهم ذوو شجون • أما أريستيديس فقد حاول أن يلقي في روع نينيت أنه أسعد مخلوق في ذلك المساء وأما سبيرو فقد حاول أن يتودد اليها بكل ما يملك من أساليب الظرف والتلطف والأدب وأما بانديليس فقد وقع صريع حبها ذلك المساء ولكن في صمت وبدون أمل وأما ميريتيس فقد سلك معها مسلكا كله وقار فأخذ يزن كل شيء فيها ويقدر ما لديها من أنواع الجمال وأما كومنينوس فقد اتخذ من وجودها وسيلة للتفكير في صاحبته ايلي جيراسيمو فكان يشمخ بأنفه وتنتفخ أوداجه مثل الديك حينما يمشي مزهوا بنفسه أما الدجاجة وأما الغادة الباريسية نفسها فكانت تعلن من وقت لآخر بأنها لم تر في حياتها أسعد من تلك الصحبة في ذلك المساء •

عادت الى منزلها بعد منتصف الليل وحينما أخذت تفتح باب شقتها نظرت خلفها الى جيراسيمو وقالت له بصوت كله عذوبة وحنان : أسرع يا حبيبي •

كان هناك ليون فيجاليتوس مختفيا خلف صوان المدخل قريبا من الباب ولم يكد يسمع هذا النداء الرقيق يوجه الى ابن أخيه حتى هاجت أعصابه وثار غضبه فانسل من مخبئه وانهال ضربا بعصا في يده على جيراسيمو دون وعي وبلا تقدير لأي خطر ثم أخذ في نفس الوقت يلعن الاثنين معا ولا يدخر شيئا مما في جعبته من ألفاظ السباب • وبعد ضربات مبرحة سقط الشاب على الارض وبقي يزحف على يديه ورجليه حتى وصل الى الباب ففتحه وولى هاربا • ولما سوى حسابه مع ابن أخيه يمم نحو نينيت التي التجأت الى حجرتها لتأوي اليها وبنفس العصا وفي نفس الثورة وبنفس القسوة أمطرها ضربا واهنا فانطلقت هي من جانبها تصرخ وتولول من الخوف

والألم معا ولم يبق أمرهما سرا فاستيقظ أغلب سكان البيت من قسوة الضرب وشدة الصراخ ٠

غادرت نينيت مدينة الاسكندرية مع أول باخرة تذهب الى فرنسا وفقد جيراسيموس عطف عمه ووظيفته فى مكتبه ثم ميراثه الذى كان ينتظره منه بعد الوفاة ٠

لقد حز مصير جراسيموس فى نفس أصدقائه وتالموا لما آل اليه أمره ولعل أكثرهم ألما بسببه واشفاقا من أجله كان كومنينوس الذى سعى جهده حتى هيأ له عملا يعيش من ورائه ٠ غير أن ما فى هذه الرواية من مأساة لم يطغ على ما فيها من جانب هزلى فحينما جاء جيراسيمو لأول مرة بعد الحادث ليحضر اجتماع الأصدقاء وفى جبهته نتوء من أثر الضرب يشبه القرن تخلت الشفقة من قلوبهم عن مكانها للسخرية فأثار هذا المنظر عاصفة من الضحك لدى الجميع ٠

ولقد وجد سبيرو فى ذلك اليوم فرصة نادرة ليسخر ما وسعته السخرية من جيراسيمو ومن قرنه الذى نبت فجأة وفى غير أوان فى جبهته ذلك لأنه أوذى كثيرا من جانب جيراسيمو وكان موضوعا خصبا لسخريته فيما مضى ٠ وأما بانديليس الذى كان ضحية ثانية لنكات جيراسيمو اللاذعة فقد نهض قائما فوق كرسى ثم تلا هذا الشعر :

هاهو ذا الذى خسر أثناء لحظة واحدة نينيت والعزبة معا فى بلد الفراعنة ٠

وبعد أن شبعوا سخرية وضحكا قام كل منهم بدوره يعانق جيراسيمو ويوجه اليه عبارات الاشفاق والعزاء ٠ والآن كيف وجد

نيون فيجاليتوس مختبئا فى منزله مساء نفس اليوم الذى سافر فيه الى طنطا ؟ ٠

لم يكد يخرج من ميدان محطة طنطا حتى فوجىء بخادم عنده منذ زمن طويل يتقدم اليه ثم يحييه ٠ كان هذا الخادم سىء المسلك مع نينيت ومن أجل ذلك طردته فانتهز فرصة لقائه لسيده فى تلك المدينة النائية وأدلى له بهذه العبارات القليلة فى الفاظها والثقيلة فى مغزاها : ــ

ــ حتى اليوم يا سيدى لم أفتح فمى احتراما لك وحتى فى هذه اللحظة لن أقول لك أكثر من هذا ٠ احــــذر من ابن أخيك ٠ انه ثعبـــــان ٠

لم يجب ليون فيجاليتوس بشىء على هذا ثم ركب العربة التى كانت فى انتظاره ليتجه الى العزبة ولكن بعد أن سارت به العربة مسافة كيلومتر أمر العربجى أن يعود الى المحطة ثانيا ثم رجع الى الاسكندرية فى قطار المساء ٠ ولما لم يجد نينيت فى المنزل أعــد عدته وأخذ ينتظر عودتها ٠٠

وذات مساء بعد حديث فى نادى ــ نيــــازوبى ــ قدم سبيرو سانودى زميله كومنينوس الى شيخ يناهز الخمسين من العمر متوسط القامة نحيف الجسم حليق الوجه حيوى النظرات غير أنه يحمـــــل منظارا .

ــ هذا هو السيد كافافى ٠

لاحظ كومنينوس أن الشاعر لم يبد نحوه اهتماما كما يحدث عادة فى مثل هذه المناسبات حينما يقدم شاب غير معروف الى شيخ له مكانته الادبية ٠

وبعد أيام ذهب الشاعر كافافى الى مكتب غالانوس وطلب أن يرى كومنينوس وحينما تقدم اليه الشاب سأله عن أشياء تتصل ببعض أسهم قد اشتراها • وعندئذ أحس كومنينوس بشيء من الحرج اذ أنه لم يستطع أن يجيب هو بنفسه عما يطلبه الشاعر فتركه وانصرف توا الى مكتب أبيه ليبحث علم ذلك عنده •

وذات يوم التقيا بعد الظهر فى شارع شريف وكان الشاعر يسير بخطوات وئيدة ويبدو عليه شيء من الانحناء فحيى كومنينوس وطلب منه أن يسيرا معا بضع خطوات ثم وجه اليه هذا السؤال :

ـ هل تحب الشعر•وما هو نوع الشعر الذى يستهويك ؟ •

أجاب كومنينوس بأنه يعشق الشعر ولكنه تلجلج حينما أراد أن يحدد نوع الشعر الذى يحبه فبدا عليه شيء من الاضطراب وأخذ ينتزع الكلمات من نفسه انتزاعا لكى يفصح ما يريد وفى أثناء ذلك كان الشاعر يصغى اليه بانتباه من وقت لآخر يلقى اليه نظرة من جانب عينيه •

ولما فرغ كومنينوس من حديثه دون أن يبين فى وضوح نوع ذلك الشعر أخذ كافافى يتحدث عن الشعر وما يحويه من جمال فى أسلوب عذب شيق جذاب • فكانت تلك فرصة أحس فيها كومنينوس بسعادة لا عهد له بمثلها من قبل • كان الفتى يعرف شيئا من شعره وكان يجد غرابة فى ذلك الشعر بالرغم مما يبدو فيه من جمال لم يتضح بعد لامكانياته العقلية ولهذا لم يكن تأثير ذلك الشعر على نفسه كبيرا • وأمام حديث الشاعر نفسه أخذ الفتى ثم اكتشف ما ينطوى عليه شعره من سحر وجمال •

وفى أول لقاء بين كومنينوس وزملائه جرى الحديث عن الشاعر كافافى ودار بينهم نقاش خاص بما نظمه من شعر وكانت آراؤهم

فى ذلك مختلفة فذهب ميريتيس وفلاسيديس وسانودى الى أن هذا الشعر مجرد عن الحقيقة وفوق ذلك فليس فيه شىء من الغنائية ولا من الالهام • وحاول كومنينوس أن يبرز ما فى هذا الشعر من مزايا مع اعترافه فى نفس الوقت بأنه لا يصـــــور المثـــل الأعلى فى باب الشعر الغنائى •

وفى الحق أن انتاج الشاعر كافافى لم يكن مفهوما تماما لدى هؤلاء الشبان الذين لم ينضجوا بعد ولكنهم سيفهمون هذا الشاعر الاسكندرى ويقدرون شعره بعد أن تكبر عقولهم وتنضج آراؤهم فيحكمون عليه وعلى شعره حكما آخر •

ومع مضى الأيام تأكدت الصلة ونمت عاطفة الحب والتقدير بين كافافى وكومنينوس الذى عرف فيه نفاذ الفكر وسعة المعـــــارف ولذا فقد اتجه الى دراسة شعره وتحليل ما فيه •

- ١٢ -

وذات مساء بعد تناول طعام العشاء كان كومنينوس يجلس مع أبويه فى حجرة الاستقبال وبينما الأبوان منهمكان فى النقاش وفى التعليق على ما يجرى اذ ذاك من أحداث واذا به يفاجئهما مرة أخرى بما فكر فيه وصمم العزم على تنفيذه •

ـ لا أظن أنكما تعارضان •• سأتطوع للذهاب الى ميـــدان القتـــال •

وعندئذ اضطربت أمه ثم قالت بصوت مختنق :

ـ ولم ذلك يا كومنينوس ؟ •

ـ ألا تظنين يا أماه أن ذلك أمر طبيعى ؟ ان وطننا تلتهمه نار الحرب وهو فى حاجة الينا جميعا •

ـ ولـكنك يابنى من بين أولئـك الذين لم يؤدوا الخدمة العسكرية وفوق ذلك فانه من اليونانيين الذين يعيشون بعيـدا عن الوطن •

ـ تعلمين يا أماه أننى لو لم أكن مدربا على القتال فسأدرب فى ميدان القتال ولو لم أكن من أولئك الذين يعيشـون فى اليونان فلست أقل وطنية من أولئك الذين يقاتلون ويقتلون من أجـل اليونان •

ـ أراك يابنى تجيب على كل سؤال كما يصنع رجال القانون مع أنك لم ترد دراسة القانون •

كانت تلك هى ملاحظة السيدة غالانوس وهى تتميز من الغيظ غير أنها كانت فخورة بحضور البديهة لدى ولدها •

ـ يابنى أليس فى حسابك أى تقدير لوجود أبويك ؟ •

وعندئذ ألقت الى زوجها نظرة تنم عن غضب وقسوة فهم منها استراتيس أنها محنقة لأنه لم يلفظ بكلمة واحدة ومن أجل ذلك اضطر الى أن يشترك فى هذا الحوار •

ـ يابنى ان وجهة نظرى لا تختلف فى شىء عما ذكرته أمك فلست أرى حاجة تضطرك الى أن تتطوع للقتال كما أن وطننا ليس فى حاجة الى أبنائه الذين يعيشون بعيدا عنه ولهذا لم يوجـه اليهم نداء لأداء الخدمة العسكرية ولا للتجنيد الاجبارى ومع ذلك فسنؤدى اليه كل ما فى استطاعتنا من خدمات بطريقة أخرى •

ولم يكد استراتيس يفرغ من تلك الكلمة حتى أحس بشىء من الحرج بالنسبة لما قاله اذ أن تصميم ولده قد أزعجه وفى نفس الوقت قد أثار كل مشـاعره فحب وطنه يملأ قلبـه ولكن كيف

يســتطيع أن يكسر قلب أم رءوم هى أيضـا زوجه ؟ وفى رأيه أن الساعة لم تحن بعد لكى يذهب ولده الى جبهة القتال ٠

أما كومنينوس فقد التزم الصمت ولم يجب على شيء بعد ذلك مكتفيا بتلك المحاولة الاولى ٠ التى اختبر من ورائها شعور والديه والتى أزعجته هو بسبب ما أحس به من ألم لديهما ٠

كانت أمه تحدق فى عينيه وتنتظر منه أن يتكلم ولكن والده تصدى لينوب عنه فى الحديث :

سيفكر فى أمر ذلك كومنينوس ٠٠

وفى سنة ١٩١١ أعلنت اليونان مع البلاد البلقانية الحرب على تركيا ولم تلبث الجيوش اليونانية أن زحفت نحو ساراندابورو ومنذ اليوم الذى تولى فيه ـ ايليفتيربوس فينيزيلوس ـ دفة الحكم التأم شمل اليونانيين المقيمين فى الخارج واجتمعت كلمتهم جمعا على السير وراء آرائه السياسية وكانت الحرب مهمته الكبرى فى خلال السنتين الأوليين من حكمه ومن أجل هذا أتى فيها بأعمال تشبه المعجزات ٠

وعندئذ أحس كومنينوس احساسا قويا بأنه جزء لاينفصل من أبناء جلدته وأن الوطن قد أصبح بالنسبة له أمرا لا شك فيه وحقيقة تدب فيها الحياة ٠

لقد قرأ فى السنة الأخيرة كثيرا مما كتبه تولستوى ٠ لا فرق فى ذلك بين رواياته وآثاره الفكرية الاخرى وكان للناحية الخلقيـة فى هذه المؤلفات أثر كبير على نفسه فبدأ ينظر الى الانسان كانسان مجردا عن الوطن الذى يرتبط به ويقدره لما فيه من انســانية لا لما يمتاز به الشعب الذى ينتمى اليه ٠ نبتت فى نفسه اذن بذرة حب السلام وكان جو الاسكندرية وما فيها من خليط الشعوب المختلفة مشجعا على نمو ذلك النبت غير أن صوت أبواق الحرب كان بمثـابة

ريح عاتية اقتلعت هذا النبت الغض قبل أن تتمكن جـــذوره فى نفســـه ٠

كان كومنينوس شغوفا بفكرة ذهابه الى ميدان القتال الى حد لا يتصور ولكنه كان يضمر ذلك ولا يبديه لمن حوله ولم يكن من اليسير بعد ذلك أن يحيد عما عقد العزم على تنفيذه ٠

لم يكن هناك أى عقبة فى سبيل ذلك ســوى حبه لأمه التى كان يضعها موضع الاجلال بل التقديس ٠ والتى كان عزيزا على نفسه أن يسبب لها ازعاجا أو ألما ومن أجل ذلك كان فى حيرة من هذا الأمر ٠ ولكن بعد أن قدر الموقف ووازن بين الأمور رأى أن يضحى بها لأن عليه من حق فى سبيل ما للوطن عليه من واجب وذات يوم شرح هذا الموقف لوالده بجلاء فى مكتبه وحاول الوالد من ناحيته أن يقنعه بالعدول عن الذهاب الى ميـدان الحرب تارة بالأسلوب المنطقى وأخرى بالأسلوب العاطفى ولكنه فى غير غضب وبدون لوم أو تأنيب وحينما أدرك الوالد أن ابنه مؤمن بصحة ما فكر فيه ومصمم على تنفيذ مايرى التزم جانب الصمت ولم يبد أى اعتراض وأخذ يوجه اليه بعض النصائح التى ينبغى أن يوجهها والد الى ابنه فى مثــل تلك المواقف فأوصاه أن يكون يقظا حذرا وألا يترك لحماسة الشباب كل السلطان فلا يلقى بنفسه الى الخطر حينما لا تكون هناك فائدة أو حينما لا تدعو ضرورة ملحة ٠

أما ايلى فقد نظرت أول الأمر الى المسألة من جانبها الحســن فتساءلت ولم لا يذهب كومنينوس الى ميدان القتال والأمر لديها لا يعدو أن يكون سفرا قصيرا وعودا سريعا ٠ وكم من الزمن تدوم الحــرب ؟ بضــعة أسابيع ؟ شهرين أو ثلاثة ؟ ولكنهـــا بقــدر ما يقترب اليوم الموعود لسفره كان احساسها بالوحشـــة يزداد رويدا رويدا ونظرتها المتشائمة تطغى على ما لديها من تفاؤل قليــلا قليلا حتى تملكتها قبل غيبته عاطفة قوية من اليأس والغيرة ٠ يأس

من اخلاصه لها كما كان وغيرة مما يمكن أن يحـــدث له أثناء ذلك السفر ستتاح له فرصة رؤية فتيات جميلات وسيدات أخريات سواء أكان ذلك في اليونان أم في البلاد التي يغزوها أو يحررها من قيود المحتلين • ولقد كان ما يخشاه كومنينوس هو أن يتركها في تلك الحالة من اليأس فتنطوي على نفسها وتتألم لفراقه فتسبب له هو شيئا من الضيق والهم غير أن هذه الثورة العاطفية لم تكن الا بمثابة سحابة صيف عن قليل تنقشع فصفا الجو وهدأت الخواطر وترك كومنينوس حبيبته ايلي في هدوء • وصبر وأمل •

ومن بين الأصدقاء الذين ذهبوا الى ميدان الحرب مع كومنينوس اســبيرو وسانودي ولوكاميريتيس • أما اريستديس فقد ذهب الى باريس ليتابع دراساته وأما الشـــــاعر فلا سيديس فقد بقي في الاسكندرية لانه كما كان يزعم انه لا يستطيع أن يغلق باب متجره وأما جيراسيمو فلم يبرح الاسكندرية أيضا لأنه لم يقتنع بفكرة الحرب ولم يتحمس لها كما تحمس غيره من الزملاء •

وبالرغم مما عهد في سانودي من أنه اشتراكي عالمي الا أنه لم يتردد لحظة واحدة في أن يؤدي لوطنه ما يجب عليه من خدمات • اذ أن الاشتراكية لم تكن عنده مجرد تفكير هادىء ولا مجرد تعصب أهوج لرأي من الآراء ولكنها كانت عبارة عن شعور كريم واحساس عقلي نبيل • وهو لم يكن مدفوعا لاعتناق هذا المبدأ بدافع الرغبة في اصـــــلاح العالم بواسطة نظـام محكم قدر ما كان مدفوعا بدافع العطف لانصـاف المظلومين وانقاذ المحرومين كلمـا سنحت لذلك فرصة • وبهذا الاعتبار كان مبدأ الاشتراكية عاملا قويا لكي يتطوع في الحرب أملا في أن ينقذ أبناء وطنه اذ أنه كان يرى الحرب التي أعلنها فينيزيلوس أمرا متمما لثورة سنة ١٩٠٩ م •

وأما ميريتيس فقد كان هـــو الآخر في ذهابه الى تلك الحرب

مدفوعا بعامل خاص وباحساس شخصى آخر ذلك هو الرغبة فى الانتقام والتشفى من النقد اللاذع والسباب المر الذى كان يسمعه بين حين وآخر من أفراد حزب « شباب تركيا الحديثة » موجها فى تكبر وفى استحياء الى أبناء وطنه اليونانيين ٠

وفى نفس الباخرة التى أقلت اسبيرو ولوكا وكومنينوس كان يوجد أيضا عدد كبير من المتطوعين تلمح من بينهم بعض الشبان الذين ينتمون الى أسر يونانية عريقة قد استوطنت الاسكندرية منذ زمن طويل منهم من لايزال فى ثرائه ومنهم من فقد ثروته ولكنهم فى الغالب يتمتعون بشهرة واسعة أو بوظائف عالية ٠ لقد ابتعدت هذه الأسر عن اليونان أجيالا فانقطعت صلاتها الروحية بهــــا حتى ان بعضهم قد نسى اللغة اليونانية « وفى الناس من لا يعنى بضــياع مجد الوطن أو بتدهوره وانحطاطه » ٠

وهناك فى أثينا انتظم اسبيرو فى فرقة الجيش الطبية وانخرط كومنينوس ولوكاس فى سلك فرقة المدفعية ٠ كان كومنينوس أطول قامة من أبيه وأرق منه ملامح فى الوجه ولكنه أسمر اللون ومن هذه الناحية لم يكن يمت بصلة الى أسرة غالانوس ولهذا كانت أمه تقول له مازحة ٠ انك أجنبى عن الأسرة ـ تطلق كلمة «غالانوس» فى اليونانية على الشخص الأزرق العينين ـ وكان مع هذا قوى العضل منسق الأعضاء طليق الوجه ٠

وعندئذ وجد صاحبنا نفسه مع أفراد حديثى العهد بالخــدمة العسكرية مثله غير أنهم ينتمون الى طبقات الشعب المختلفة وأكثرهم من الطبقة العامة كما وجد نفسه مضطرا الى أن يخالطهم فى المأكل والمشرب والنوم وأن يتخذ منهم أصدقاء ويعيش معهم كما يعيش أفراد الاسرة الواحدة ٠ وأمام هذا الوســـــط الجديد كان لابد لصاحبنا أن يكبح جماح نفسه وأن يكبت فى دخيلته ما أحس به أول

الامر من امتعاض وتقزز واشمئزاز اذ أنه كان قد تعود أن يعيش كما يحلو له وأن يتخير أصدقاءه كما يهوى • وبعد أيام قضاها فى جهاد مع نفسه وما تعود من قبل التآم مع هذا الوسط الجديد بل ووجد فيه ترضية لروحه واشباعا لرغباته ومنذ تلك اللحظة فقط استطاع أن يتمشى مع مقتضيات الأمور وأن يؤدى ما عليه من واجبات لكى يخدم الغرض الذى جاء من أجله •

لم يكن يتعبه السير الطويل ولا تضنيه التمرينات العسكرية المتواصلة ولكن رئيسه الذى كان موكولا اليه أمر تلك التمرينات كان يظهر دائما شيئا من النفور بينه وبين أولئك الشبان الذين نشئوا نشأة بورجوازية وكان هذا الرئيس مقتنعا سلفا بأن أمثال هؤلاء الشبان لا يصلحون للخدمة العسكرية ولا ينتظر من ورائهم خير فيها • وكان مع هذا دائم السخط على ما يبدونه من مسلك حسن فى صلاتهم وأدب جم فى معاملاتهم وخلق كريم يميزهم عن أبناء العامة من الناس • ومن أجل ذلك لم يكن يتردد مطلقا فى اهانتهم بل كان يجد لذة فى الضغط عليهم وفى ايذائهم كلما سنحت له الفرصة • لقد درس كومنينوس نفس ذلك الرئيس وفهم عقليته فحاول جهده ألا يهيىء له أسباب السخط والانتقام وآثر أن يتودد اليه والى أمثاله من ذلك الطراز • وأول عمل حربى يساهم فيه كومنينوس بنصيب كان ذهابه ضمن فرقته العسكرية الى جزيرة ميتيلين التى لم يمض على تحريرها من يد العدو أكثر من شهر واحد • وكان ابحارهم الى تلك الجزيرة فى اليوم الذى سبق معركة الدردنيل البحرية • ولما نشبت هذه المعركة استطاعوا بأنفسهم أن يسمعوا وهم فى تلك الجزيرة صوت طلقات مدافع الاسطول التركى ولم تكد هذه المعركة تنتهى بنصر اليونانيين حتى دوى فى كل بحر ايجه اسم القائد البحرى كوندوريوتى •

وبعد أسبوع من تلك المعركة وصل الى جزيرة ميتيلين أحد ضباط الباخرة الحربية اليونانية « افيروف » ووصف الى كومنينوس كيف دار القتال بين الأسطولين · ولقد كان ذلك الوصف بعد أن عرف أحدهما الآخر فى منزل احدى قريبات السيدة غالانوس وأهم ما جاء فى ذلك الوصف وأشده تأثيرا على نفس كومنينيوس هو تلك الرسالة الخالدة التى بعث بها كوندوريوتى الى بقية الاسطول اليونانى بعد أن انفصل عنه بباخرته « افيروف » « اننى أتجه الى العدو بحماسة لا تثنيه أية قوة » وكان هدفه من وراء ذلك أن يقترب من مضيق الدردنيل ليقطع على الاسطول خط الرجعة · ولقد كان فى تلك الخطة الحربية مجازفة هائلة وخطيرة معا · ولنصغ الى القائد نفسه وهو يقص على أحد ضباطه من هيئة القيادة العليا كيف أقدم على تنفيذ خطته : كنت أرى على شاطىء المضيق ومن خلال الضباب ـ مياولى ـ مع جدى ـ جورج كوندوريوتى ـ يشيران الى أن تقدم ولا تخف وفى أثناء تلك الفترة كانت جزيرة القديس استراتى قد تحررت بدورها من الاحتلال التركى وكان كومنينوس شديد الرغبة فى أن يذهب اليها ليراها بعد أن تخلصت من المستعمرين ويرى فيها جدته وجده اللذان كانا لا يزالان يتمتعان بالحياة ولكنه لم ينجح فى نيل تلك الامنية وذهبت محاولاته عبثا فى ذلك السبيل ·

وأول معركة حربية يشترك فيها كومنينوس فعلا كانت معركة ـ كيلسيش ـ ضد البلغاريين · ولأول مرة حينما رأى الرصاص يأتى من جبهة الأعداء فيمضى من حوله ويحدث صفيرا رهيبا فى آذانه شبيها بدوى الرعد تملكه الرعب وخشى الموت وجمد دمه فى شرايينه · وفى تلك اللحظة آثر الهرب أو أن يلقى بنفسه على الارض فرارا من الموت الذى لا تنقطع أسبابه من جانب الاعداء كانت تلك من أخطر اللحظات التى قضاها فى حياته ·

ولكنه لم يلبث أن شد أعصابه وعض على نواجذه وثبت فى مكانه دون أن يبدى أدنى حركة وما هى الا ثوان حتى استهان بالموت وسخر من وابل الرصاص وبعد أن انتصر اليونانيون فى هذه المعركة صدرت الأوامر من الملك وهو القائد الأعلى للجيش اذ ذاك الى الفرقة الحربية التى يعمل فيها كومنينوس أن تتعقب الأعداء فى وحشية وبدون هوادة ولا رحمة حتى تلقى بهم وراء الحدود ٠

لم تطل غيبة كومنينوس عن الاسكندرية أكثر من سنة ثم عاد اليها ليقيم فيها خمسة عشر يوما وليرحل بعدها الى باريس ٠ بالرغم من حبه الشديد لأبويه ولأخته فانه لم يكن ليظهر لهم شيئا من ذلك ٠ وهكذا قضى الخمسة عشر يوما بين أسرته كالطيف ثم اختفى من جديد دون أن يثنيه عن تنفيذ ما أراد وتحقيق ما وضعه لنفسه من برنامج حنان والديه وحاجتهما الى اقامة أطول ليسعدا بوجوده بينهما وليرويا ظمأهما اليه ويبينا عما يكنانه من عواطف نحوه ٠ وأما صلته بصاحبته ايلى فقد تراخت من نفسها بفعل الأيام ولم يعد أحدهما يحفظ لصاحبه سوى نوع من الألفة لايزيد عما ينبغى أن يكون بين الصديقين ٠

لقد أعد نفسه لهذه الرحلة الدراسية منذ أن كان فى جبهة القتال اذ رأى أنه فى الثالثة والعشرين من العمر وليس من المصلحة فى شىء أن يرجىء سفره الى أوروبا ودراساته فى فرنسا ٠ وهناك فى باريس مكث ثلاث سنوات متوالية وبالرغم من انتسابه الى كلية الآداب فانه كان يحضر متطوعا ما يروق له من المحاضرات والدروس فى الكليات الأخرى ٠ لم يكن هدفه من وراء هذه الدراسة ان يحصل على شهادة أو دبلوم وانما كان يرمى الى ان يتثقف ثقافة عامة وان يتزود بأكبر حظ من المعرفة ٠ ومن أجل ذلك كان حرصه على زيارة المتاحف ورؤية المعارض وحضور حفلات الموسيقى والذهاب الى المسارح

وقراءة المجلات والكتب لا يقل عن حرصه على حضور دروس الأدب في السوربون • كان كومنينوس اذن أحد أولئك الذين لا يتقيدون بمنهج ولا بمعهد وتستهويهم الدراسة الحرة الى حد بعيد وكان جل عنايته يتجه الى الفن والأدب والتيارات الفكرية فى باريس •وكانت تكلفه هذه الحياة أكثر مما يرسله له والده شهريا فكان يلجأ الى ما ادخره لنفسه يوم كان يعمل فى مكتب أبيه بالاسكندرية • وبعد سنة واحدة قضاها في فرنسا اشتعلت نار الحرب ولم تكن أوروبا كلها فى نظرة اذ ذاك سوى وحـدة لا تتجزأ وذلك نتيجة قراءاته الواسعة سواء فيما كتب بالفرنسية والانجليزية أم فيما ترجم الى الفرنسية من الألمانية والروسية والايطالية وغير ذلك • ولم تكد هذه الفكرة تستقر في ذهنه حتى قامت الحرب فى أغسطس سنة ١٩١٤م فمزقت تلك الوحدة وصدعت ذلك البنيان • ومع ما كان هنالك من اختلافات بين الشعوب الأوروبيـة فقد كانت تجمعهم حضـارة واحدة وتفكير واحد ومعرفة واحدة كانوا يشتركون فى الحضارة والتفكير والعلم والاحساس ومن أجل ذلك كان كومنينوس ينظر الى تلك الحرب كأنها جريمة بين أخوة غير أن أول شعور أيقظته الحرب عنده أو كشفت عن حقيقته فى نفسه كان حبه للشـعب الفرنسى وضيق صدره بتلك النكبة التى حلت بفرنسا وعطفه على الفرنسيين الذين هبوا جميعا يبذلون كل ما لديهم لصـد عدوان المغيرين من الألمان •

ولقد أدرك كومنينوس ان الحضارة الأوروبية ليست سـوى قنطرة تجرى من تحتها تيارات مختلفة هى الشعوبية والوطنيـة المتعصـبة والتنافس الاقتصـادى وكانت تلك التيارات هى مظهر الحقيقة الكامنة •• ولم تلبث هذه التيارات أن أخذت تعـدو شيئا فشيئا حتى اذا ما قويت أطاحت بتلك القنطرة ثم جرفتها أمامها •

وفي ذات يوم لقى كومنينوس صديقه اربستيدى فى باريس ولشد ما كان انزعاجه حينما عرف ان صاحبه لا يتابع دراسة الرياضة التي جاء من أجلها وانما أخذ يعمل او بالأحرى حاول العمل بالتجارة مسترشدا بما يقال « يجب أولا كسب العيش » لم يمض على فراقهما أكثر من سنتين ومع هذا فقد تغير اريستيدس تغيرا تاما فاختفت طلاقته وغاضت بساطته وذهب ماكان لديه من مرح وحيوية وأصبح كل ما يشغله الآن هو أن يعنى بأناقته ويتكلف فى كل شيء لكى يبدو من الطراز الباريسى شأن آلاف الشبان الذين تراهم فى العاصمة الفرنسية • ولكى يجارى هذا الوسط الجديد اضطر الى شراء عدد كبير من البدل الأنيقة ومثله من أربطة الرقبة ومجموعة من الأحذية وأكثر من قفاز وقبعة ولم يكن يرضى من ذلك كله بالبسيط الرخيص وانما كان يمعن فى اختبار اجود الأصناف وأرقى الألوان حتى يكون الانسجام فيما بينها جميعا كاملا • وكما كان شديد الحرص على أناقته كان يحاول دائما وربما يتكلف فى سبيل ذلك أن يكون باشا يقظا لين الجانب لطيف المعشر ظريف النكتة • ولهذا كله أنفق نصف رأس المال الذى منحه له والده لكى يتم به دراساته • وجانب المأساة فى ذلك انه لم يكن مهيأ لمجاراة هذا الوسط جسمانيا ولا خلقيا •

لم يتردد كومنينوس فى أن يتنكر لما رآه من تغير لدى صاحبه ورأى من واجبه أن يسدى اليه بعض النصح غير أن اريستيدى لم يصغ لقوله • ولم يترك له سبيلا ينفذ منه لكى يؤثر على فكره ويقلل من ثقته بنفسه فأخذ يرد عليه قائلا :

ـ لست أفهم كيف استطعت أن تحمل معك الى باريس ما كان معهودا فيك يوم كنت فى الاسكندرية من حرص وتدبر وتفكير •• يلوح لى أنك أنت الذى تغيرت الى حال أسوأ وان اقامتك

في اليونان لم تكن في مصلحتك ومغامراتك الحربية فيها لم تؤهلك لمعاشرة الباريسيين ٠

وهكذا تغير اريستيدى في مظهره ومخبره كما حدث لكثيرين غيره من أصـــدقاء كومنينوس في الاسكندرية ولقد لمس كومنينوس نفسه هذا التغير في سائر الأصدقاء غير ان اريستيدى كان أول واحد منهم يتمثل فيه ذلك التغير أمام كومنينوس ، ومع ذلك فقد استمر الاثنان يرى أحدهما الآخر ويتزاوران من حين الى حين ٠

وفي ذات مساء قبل أن تعلن الحرب حين انصراف الموظفين من أعمالهم كان كومنينوس يسير في شارع « سان ميشيل » والناس رجالا ونساء يتسابقون الى وســائل المواصلات من ترام ومترو وأوتوبوس واذا بفتاة من بين هذا الجمع تقترب منه ثم تتقدم عليه في السير ٠ ولقد استرعت هذه الفتاة نظره بصفة خاصـــة ذلك لخطواتها المنتظمة الخفيفة ولقامتها المعتدلة الرشيقة ولطيات ثوبهـا الأنيق على سيقانها الجميلة الفاتنة ٠ لقد اعجبه بل سحره منها كل شيء رآه فيها حتى الآن ولكنه أراد أن ينظر الى وجهها كذلك ليدرك كيف صور فأسرع خطاه حتى لحق بها ثم أدار رأسه فيراها فوجد وجهها لا يقل ابداعا ولا فتنة من سائر جسمها وفي لطف ورقة أخذت تبتسم اختلاسا نحو شيء أمامها لا يراه أحد سواها ٠

لم يجرؤ صاحبنا على أن يتحدث اليها ولم يرد أن يتكلف تلك الجرأة ليخاطبها ٠ وكما كان كومنينوس يدرك الى حد ما طبيعـــة المرأة الباريســية كان يسمع كثيرا من الذين يجيدون فن الحـديث معها ويرفعون الى درجة كبيرة طبيعتها أنك اذا خاطبت الباريسية اجابتك اربع مرات من خمس ولو دعوتها لتنـــاول شيء معك أو لمصاحبتك في نزهة أو مسرح لأجابتك مرتين من خمس واجابتهـا في كلتا الحالتين دليل على احتمال صداقتها لك وائتلافها معك

وفى هذه اللحظات كانت نفس صاحبنا تحدثه لو لم تجب هذه الفتاة على ما سأعرضه عليها لازعجنى صمتها ولو أجابت بالرفض لجرح شعورى رفضها ولو قبلت من أول وهلة لأحدث قبولها بادىء الأمر على الأقل شيئا من خيبة الأمل فى نفسى • ولهذا فقد تركها تختفى ربما الى الأبد وسط هذا الطوفان من الناس الذين يتسابقون الى وسائل المواصلات •• وبعد أيام اخذ كومنينـــوس يبحث عن الترجمة الفرنسية لكتاب الفـــه أحد رجال الأدب من النرويجيين فذهب الى ثلاث من مكتبات الحى اللاتينى ولما دخل الرابعة ارسلته احدى البائعات الى الدور الأعلى لكى يبحث عما يريد وهناك فى داخل المكتبة وجد سلما خشبيا فصعد عليه ولم يكد يصل الى ذلك الدور حتى وجد اعمدة من الكتب مرصوصـــة وقاعة فى كل جانب من جوانبه ومن خلال تلك الأعمدة لمح الفتاة التى رآها من قبـــل فى شارع « سان ميشيل » فاقترب منها وأخذ يتأملها ويختبر على مهل كل جزء منها •

كان شعرها أشقر ولكنها شقرة قلما يراها المرء فى غير عالم الأحلام وكانت عيناها زرقاوين ولكنها زرقة يجللها شىء من السواد ذواتى أهداب طويلة ونظرات أخاذة وكانت ملامح وجههـــا بقدر ما فيها من فتنة تنبىء عن ذكاء نفاذ •

عرفت مونيك فى هذا الوافد أمامها ذلك الشاب الذى كان يمعن فيها نظراته يوم كانت تهرول مسرعة فى شارع «سان ميشل» ولكنها تظاهرت بأنها تجهل كل شىء من ذلك •

كانت وحدهـا فى ذلـك الطابق العلـوى تشرف على قوائم ما هنالك من كتب لتضعها فى أماكنها بانتظام وكعهدها بالوافدين بدأت حديثها :

ـ ماذا ترغب يا سيدى ؟

ـ أريد الترجمة الفرنسية لكتاب « الحالمون » تأليف ـ كنوت هامسون .

ـ آســــفة ولست ادرى ان كان هذا الـكتاب قد ترجم الى الفرنسية أم لا ؟

لم يستطع كومنينوس ان يبرح المكان دون أن يحدثها وعندئذ جمع كل قواه ثم قال :

ـ معذرة عما سأقوله لك يا آنســة . ولست أخفيك اننى لا أجد فى هذا القول شيئا من اللباقة او الذكاء ولـكننى لا أملك شيئا آخر أقوله . اريد ان اطلب اليك لماذا كنت مسرعة الخطى مساء رأيتك فى شارع سان ميشـــيل ؟ ولم يكد يفرغ من قولته حتى ضحكت مونيك ثم قالت :

ـ ألهذا اذن قد تكبدت مشـــقة الصـعود الى هنا ؟ لم يكن هامسون لديك سوى وسيلة نصل بها الى هذا السؤال ؟ غير ان كومنينوس حاول بكل وسائل الكلام ان يقنعها بغير ذلك ثم أخذ يطرى فى ثنائها ومبلغ ما اجتمع فيها من جمال ولطف ورقة ومقدار ما تركته من تأثير فى نفسه منذ أن رآها للمرة الأولى . وفى أثناء حديثه معها كانت رغبته فى أن يغزو قلب تلك الغادة الفاتنة تشتد رويدا رويدا فتضطرب لها أعصابه .

كانت مونيك تصغى بانتباه الى حديثه ولكن سرعان ما كست وجهها سحابة من الكآبة اذ تذكرت هذا الكلام المعسول عن الحب الذى كان يردده على سمعها حبيبها الأول والوحيد منذ ستة أشهر مضت ومع ذلك لم يحجم عن غدره بها وتركها ثم نسيانهـــا فهل تترك نفسها مرة أخرى تؤمن بصـــــدق ذلك القول الآن من ذلك

الشاب الاجنبى وتبدأ مجازفة جديدة أخرى ؟ وبعد لحظة من التفكير قالت :

ـ اشكرك يا سيدى لثنائك العظيم ·

أحس كومنينوس ببرودة تغزو كل جزء من جسمه وكان فى نفس الوقت يتميز غيظا اذ انه فى موقف من لا يصدق الناس قوله فى حين انه يغلى اخلاصا وصدقا ووفاء · لقد جرح شعوره اذن ولم يخف ذلك فأدركت مونيك حقيقــة أمره ثم قالت فى شىء من الرقة والحنان :

ـ ليس لدينا الآن متسع من الوقت للحديث اننى شـــديدة الأسف ولعل فرصة أخرى تتاح لنا لنستمر فى هذا الحديث · اطلبنى تليفونيا وسأفكر من جانبى فيماذا أصنع وحينما أقبل دعوتك للقاء آخر ســـــيكون ذلك للحديث وللحديث فقط ·· وامام هذا كان كومنينوس فى حالة هى وسط بين السخط والرضا ·

وبعد ذلك والى حديثها عن طريق التليفون · ثم تقابلا فائتلفا ولم تكد تمضى بضعة أسابيع حتى أحب أحدهما الآخر ·

وذات يوم حمل البريد خطـابا الى كومنينوس من والده فى الاسكندرية يحدثه فيه بأن الطبيب عبد اللطيف جمعة أخبره بوجود المثال المصرى الشاب محمود مختار فى باريس وفى استطاعته ان يذهب ليراه ويحمل اليه تحية الطبيب ·

اتيحت الفرصة اذن لكومنينوس ان يرى الشـــاب المصرى المثال فذهب اليه حيث يقطن فى شارع ـ فرانسوا جيلبير ـ حى يسوده الهدوء ويذكر فى نفس الوقت بطبيعة عواصم الأرياف وكان مسكن المثال خلف احدى محطات البضاعة الكبرى فى باريس ·كان ذلك فى فصل الربيع قبل اعلان الحرب العظمى · اخترق كومنينوس

بعض شوارع العاصمة المليئة بأشجار «الكاستينيا» الفارعة وكانت تلك الأشجار بألوانها السوداء وبما نبت فى غصــونها من براعم شفافة خضراء تحكى بصرامة عمل الربيع وما يبثه فيها من حياة • ولكيلا يتأخر فى الوصول أخذ عربة من حديقة لوكسمبورج واتجه الى مسكن مختار • وهناك استقبله المثال استقبالا حارا واحتفى به احتفاء شديدا اذ انه كان يعرف الكثير من امر كومنينوس بواسطة خطاب ارسله اليه الطبيب عبد اللطيف جمعة •

ومنذ اللحظة الأولى عرف كومنينوس فى ملامح مختار الطراز العربى الفرعونى معا ممتد العينين فى ضيق ولكن نظراته تنم عن طبيعة جذابة حزينة شعره طويل مجعد كبير الأنف غليظ الشفتين خفيف الشارب فيه كثير من سمات الرجولة وهيأته تنبى عن حزن نبيل عظيم الشبه بفرسان العرب الذين الف الغربيون رؤيتهم فى كتب تاريخ اسبانيا • كان عظيم الثقة بنفسه قوى الايمان بمستقبله ثم أخذ يتحدث الى كومنينوس بلغة فرنسية تبــدو ركيكة بعض الشيء :

ـ اننى أول مثال مصرى يولد بعد سبعة عشر قرنا وستكون آثارى الفنية بمثابة نبت جديد من الفن القديم وربما كنت أحمل معى هنا كثيرا من الذوق المصرى وما يألفه الناس فى وادى النيل •

وعندئذ بدأ يستثير ذكريات حياته فى مصر فتحدث عن عرائس الحلوى ذات الألوان الحمراء والبيضاء والمكسوة بالأوراق الذهبيـــة أو الصفراء أو الخضراء والتى الف الناس رؤيتها فى حوانيت القرى أيام الأعياد ثم ختم حديثه عن تلك العرائس قائلا :

ـ اننى أتخيلها فاحس بشيء من المتعة وكأننى أراها دائمـــا أمام عينى •

لقد كان مختار وكومنينوس متقاربين فى السن ولكنهما يختلفان فى النشأة . فذهب مختار مرغما الى كتاب القرية ليعرف القراءة والكتابة شأن أبناء القرى ولكنه كان يهرب من الكتاب كلما اتيحت له الفرصة ليذهب الى شاطىء النهر وهناك يصور من الطين ما استطاع من الأشخاص الذين يحيطون به أو يملئون خياله . لم يكن اذن وهو طفل من هواة الدراسة المنظمة وانما كان نزاعا الى المعرفة الحرة والى ان يغذى طبيعته الفنية التى نشأت معه أينما وجد ومع من أحب .

ولما برزت مواهبه فى سن الشباب أرسله أحد الأمراء على نفقته الخاصة الى مدرسة الفنون الجميلة فى باريس . وأثناء زيارة كومنينوس كان مختار قد فرغ من صنع تمثاله المشهور ـ عايدة ـ وينتظر فى خوف واضطراب رأى رجال الفن فى باريس هل سيكون من حظ هذا التمثال ان يعرف ضمن ما سيعرض من التماثيل الأخرى .

وفى الحق ان مختار كان حتى هذه اللحظة لا يزال تحت تأثير المدرسة وتوجيهاتها أما شخصيته وأصالته فى الفن والابتكار فلم تكن قد ظهرت بعد .

ولم تكد تنتهى زيارة كومنينوس الأولى للمثال المصرى حتى أحس بما أودع فى مختار من شخصية كبيرة وبما كان لهذه الشخصية فى نفسه من تأثير عظيم ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع كومنينوس عن زيارته كلما أتيحت له الفرصة .

وكما وجد كومنينوس فى مختار شخصية الفنان الطموح وجد فيه أيضا معنى الوطنية الصادقة اذ انه منذ الطفولة كان يؤمن بمبادىء مصطفى كامل ويدين بسياسته وحتى أيام وجوده فى

باريس كان ينتظر بصبر نافذ أن تواتيه الفرصة لكى يخدم وطنه ثم يحقق ما يهدف اليه من أغراض فنية •

كانت اقامة كومنينوس في باريس سـببا فى أن يألف الشعب الفرنسي ويدرك عن قرب ما يمتاز به الفرنسيون من صفات أدبية واجتماعية ولذا فانه كان يحس باحسـاسهم بعد ان أعلنت الحرب ويشاركهم بروحه وعواطفه فى كل ما كانت تجره الحرب من آلام وهموم وحرمان •

غير أن أحداث وطنه الأصلي لم تمهله كي يحضر نتائج الحرب العالمية الأولى فى البلد الذى أحبه فسافر الى سالونيك فى شهر أكتوبر سنة ١٩١٦. اذ ان احتلافا فى الرأى نشأ بين كونستانتان ملك اليونان وفينيزيلوس وأعقب ذلك ان انفجرت حرب بينهمـا وانقسمت اليونان الى فريقين احدهما يؤيد الحرب مع الحلفاء وعلى رأسه فينيزيلوس والآخر يؤيد التزام الحياد وعلى رأسه الملك • كان كومنينوس وهو فى باريس يتابع هذه الأخبار المؤلمة فى كثير من القلق وكان يعتقد ان اليونان فى مركز لا يسمح لها أبدا بالتزام الحياد اذ ان اعداء الوطن وهم الذين هزموا بالأمس يرقبون عن كثب ويتحينون الفرصة لكى ينقضوا على اليونان من كل جانب كما تنقض الذئاب الجائعة على القطعان الشادرة وكان هؤلاء الأعداء فى حلف مع المانيا • ولو لم يكن هناك من سبب آخر لكان ذلك وحده مبررا لأن تقاتل اليونان بجانب فرنسا وانجلترا • ولم يكن عقله يتصور أبدا كيف يكون من بين اليونانيين من لايدرك هذه الحقيقة الواضحة •

ومع ذلك فقد كان أخوه الأصغر انتونى الذى يدرس القانون فى سويسره والذى لم تشأ أمه ان يكون فى فرنسـا أيام الحرب بجانب أخيه العتيد لا يدرك تلك الحقيقة ويرى فى الأمر غير ما يراه

كومنينوس . وقد تبين ذلك حينما ذهب الى باريس لزيارة أخيه فى صيف سنة ١٩١٥ م .

ذات مساء اجتمع الاخوان فى غرفة كومنينوس ثم أخذا فى نقاش سياسى حاد ولم يمض على هـذا النقاش سوى دقائق حتى اشتد جدلهما وتزاحمت الفاظهما وارتفع صوتهما واخذ سـاكنو الفندق يضجون من تلك الضوضاء . كان انطونى ملكيا فى نزعاته لا يرى جانبا من المصلحة فى ان تدخل اليونان الحرب وكان يعتقد ان الملك على حق وان ألمانيـا ستنتصر فى النهاية وأن مستقبل اليونان مظلم حالك لو انها جازفت بالاشتراك مع فرنسا وانجلترا وليس فينيزيلوس فى نظره سوى مخاطر مجازف.اعتقد كومنينوس أول الأمر أن من واجبه اسداء النصح لأخيه وتصـور انه يستطيع بواسطة الحجج القوية والبراهين المنطقية ان يجعله يعدل عن رأيه ويغير وجهة نظره . غير ان أنطونى بالرغم من احترامه وتقـديره لأخيه الأكبر قد ضاق به ذرعا ولم يستطع على ذلك صبرا وحينما ضيق كومنينوس على أخيه الخناق بواسطة عباراته القاسية وألفاظه اللاذعة ضـد الملك ألقى أنطونى فى وجهه دون وعى منه هـذه العبارة :

ـ انك تهذى وتقول هراء :

وعندئذ اختصما وتسابا وتصايحا ثم انفصلا دون أن يحيى أحدهما الآخر كما جرت بذلك عادتهمـا . وفى الأيام الأولى بعد سفره الى سالونيك كان كومنينوس يتخيل انه لا يزال فى أرض فرنسية اذ أن مركز القيادة الحربية تحت رئاسة القائد ـ ساراى ـ كان يشغل جانبا من المدينة ومعسكرات الجند من الفرنسيين كانت تحتل جانبا آخر وشوارع المدينة ومؤسساتها العامة كانت غاصة بالآلاف من الجند والضباط الفرنسيين .

انخرط كومنينوس فى سلك الجيش اثر وصوله الى سالونيك وكان نصيبه فى هذه المرة أن يكون ضمن أولئك الذين يعنون بأمر التجنيد فى وزارة الحربية • وكان رئيسه المباشر اسكندر ساروبولو أحد الضباط الاحتياطيين بعد أن كان محاميا ثم نائبا من نواب حزب الأحرار • كان هذا الضابط ينتمى الى أسرة عريقة من أسر سالونيك التى مضى عليها فى تلك المدينة أكثر من قرنين • وكانت هذه الأسرة فى ثراء وتعيش فى رخاء فمنها التجار والأطباء ومنها من سافر الى بلاد أوربا الوسطى للدراسة او للكسب أو لعقد صفقات مع رجال الأعمال • أما صاحبنا هذا فقد ذهب الى أثينا لدراسة القانون بعد ان فرغ من الدراسة الثانوية فى سالونيك وهناك أتم دراسته ثم تجنس بالجنسية اليونانية وأدى الخدمة العسكرية كضابط احتياطى وأخيرا عاد الى مسقط رأسه مع الجيش اليونانى ليحارب فى صفوف فينيزيلوس •

وحينما نشبت الحرب وانقسمت اليونان على نفسها وذهب فينيزيلوس الى مقدونيا ليحارب مع الحلفاء من الفرنسيين والانجليز دعى اسكندر ضمن من دعوا من الضباط الاحتياطيين فلم يتخلف وآثر الحرب مع فينيزيلوس وهناك فى مقدونيا وجد فينيزيلوس فى شخص اسكندر مسندا متينا وعونا قويا فوكل اليه ادارة التجنيد لكى يشق الطريق سريعا الى أرقى مناصب الجيش ولكى يكون من ناحية أخرى حلقة اتصال بين الجيش وسكان مقدونيا من اليونانيين ولقد كان اسكندر عند حسن ظن الرئيس به كما كان فى وجوده على رأس ادارة التجنيد مصلحة كبرى وعون لا يقدر بالنسبة للحلفاء •

كان هذا الضابط يناهز الثانية والثلاثين من العمر ولكنه لم يتزوج بعد • وكان يقطن مع والدته الأرمل فى بيت واحد وكان

من عادتهما ان يدعوا بعض الأصدقاء لتناول الغذاء سويا فى كل يوم أحد . ولم يكن من شأن هذه الاجتماعات الأسبوعية ان تحضرها سيدة سوى ربة البيت السيدة ساروبولو التى كانت محل الصدارة فى كل الدعوات .

وذات يوم قرأ الضابط اسكندر أحد التقارير التى كتبها له كومنينوس فأحس فيها بسعة الأفق وغزارة المعرفة وسلامة التعبير وعندئذ حبب اليه ان يعرف ذلك الجندى وليد الاسكندرية معرفة خارجه عن دائرة العمل وفوق هذا فقد كانت هناك عوامل أخرى تشفع لكومنينوس وتجعله موضع عطف وتقدير رئيسه الضابط فمولده بعيدا عن وطنه وثقافته الواسعة خارج اليونان وما جبل عليه من الظرف واللطف وحسن المعاملة كل ذلك كان يجعل اليونانيين يحسون بكثير من الحنان والفخر معا بالنسبة لأبناء جلدتهم الذين نشئوا فى الخارج واستطاعوا ان يحصلوا على حظ كبير من الثقافة والتربية .

وفى أحد أيام الآحاد دعى كومنينوس لتناول طعام الغذاء ضمن من يدعون الى منزل الضابط اسكندر وقبل أن يحين ذلك اليوم قال له الضابط .

ـ كلما دعيت الى منزلى يجب أن تحضر بالزى المدنى لكيلا يكون عليك حرج فى حضور اجتماعات تضم بينها بعض الضباط وسيكون فى اجتماعك معنا قريبا فرصة تعرف فيها ابن اخى الذى يعمل كجندى معك .

لقد حضر هذه الدعوة بعض المواطنين من اصدقاء الضابط ساروبونو ثم بعض الضباط من مختلف الرتب وعدد من كبار موظفى الحكومة المؤقتة . وكان ذلك فى شتاء ١٩١٦ ـ ١٩١٧ فى صالة

الطعام الكبرى حيث اشعلت نار المدفأة فملأت جو الصالة حرارة ودفئا وبجانب ذلك كانت حماسة الشباب من بين المدعوين يضفى على هذا الجو حيوية لا توجد فى اجتماعات الشيوخ • وفى هذا الاجتماع أتيح لكومنينوس ان يرى شخصيات عن قرب لم يكن يتيسر له ان يراها خارج بيت الضابط ساروبولو وعرف أشياء لم يكن ليعرفها الا بعد أيام وأدرك أمورا خاصة ببعض كبار الناس يتنازعها الصدق والكذب ويختلط فيها الثناء والنقد ولا يسهل أبدا فصل ما هو حق بالنسبة لهم مما يشوبه من ضلال •

كان أكثر المدعوين حماسة واشدهم ثورة أنيستيس مارينوس الذى كان يناهز الثلاثين من العمر وفى نفس الوقت سكرتيرا عاما للوزارة • كان هذا متفانيا فى تقدير فينيزيلوس الى درجة العبادة ولكنه كان يتمنى ان يكون أكثر صرامة مما هو فيه اذ ذاك ويرجو ان لو بقى فينيزيلوس ثائرا كما عهدوه فى ثورة سنة ١٩٠٩ م وهنا أخذ مارينوس يشرح وجهة نظره فقال :

ـ ليس من شك فى ان فينيزيلوس يمتاز بخصلتين احداهما الحكمة فى الرأى والأخرى الشجاعة فى العمل وهو لا يقدم برائد احداهما منفصلة عن الأخرى وانما بهما معا • وهو ان رجح احداهما على الأخرى فانما يفعل ذلك بوحى تقديره الشخصى وما تمليه عليه المناسبات ومن هنا يكون موطن الخطر بالنسبة له ومن هنا يمكن أن يخدع الرجل • وفى ظنى ان فينيزيلوس قد خدع ولا يزال مخدوعا منذ عامين اذ انه يرجح جانب الحكمة فى وقت وهو أحوج ما يكون فيه الى الجرأة • وانه لا يحاول التقدم فى أمر كما لا يحاول تصفية الموقف أو حسمه انه لا يزال يطمع فى ان يعدل الملك كونستانتان عن رأيه فيجمع شمل الشعب اليونانى كله تحت كلمة واحدة وقيادة واحدة هو نفسه صاحب الكلمة ورئيس القيادة فيه غير أن هذا المطمع فى نظرى بمثابة المعجزات وهيهات ان يتحقق • الم يكن

من الخير لفينيزيلوس أن يعرف بأن هذا الملك نفسه ألد عدو لثورة سنة ١٩٠٩ وللمبادىء التي قامت عليها تلك الثورة ؟ ان الأمل في ان يعتنق الملك هذه المبادىء أو في ولائه لشعوب الغرب بمثـــابة سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا • ومن المؤكد ان الملك لن يغـير موقفه ولن يرضى أبدا عما يدعو اليــه فينيزيلوس من اتحاد الشعب والعمل على النهضة به والأخذ بأسباب الاصلاح ولن يحيد في سياسته الخارجيـــة عن السير وراء قيصر وأمثاله من الرجال •

ولم يكد مارينوس يفرغ من قوله حتى تصدى ســـاروبولو للاجابة عليه :

ـ يبدو لى انك في هذا النقد تغمض العين عن حقائق الأمور • ما هى القوة التي يستطيع بها فينيزيلوس ان يصل الى أغراضه اذا لم تكن تلك القوة هى الشعب ؟ الا تدرى ان نصف الشعب يسير وراء الملك ؟ وفى مثل هذا الموقف يجب على فينيزيلوس ان يرجح جانب الحكمة على جانب الصرامة •

وهنا قاطعه مارينوس قائلا :

ـ ان رجل الحكم القوى ليس من شأنه ان يبحث ســـلفا عن تأييد الشعب بأسره أو تأييد أغلبيته حينما تشتد الأزمة وتتعقــد الأمور • انه فى مثل هذا الموقف ينبغى أن يمضى كالسيف للوصول الى هدفه لا تثنيه معارضـــة ولا ترهبه مؤامرة • لست كما يظن اشتراكيا عالميا ولكننى مع ذلك من اولئك الذين يدعون الى اصلاح الشعب اليونانى ويتمنون الخير للوطن • ان ثورة سنة ١٩٠٩ م لم تضع برنامجا واضح المعالم ولكن حسبها أنها أقرت سيادة الشعب واخضاع كل شيء لمصلحة الشعب • ان من واجبنا الا ننسى أبدا أن أولئك الذين فكروا فى الثورة العسكرية وأعلنوها ســـنة ١٩٠٩

مضحين بكل شيء في سبيل ذلك انما كانوا من صغار الضباط ومن ابناء الشعب لا من الطبقات المترفة ولا من كبار الضباط ٠

كان كومنينوس بحكم مكانته العسكرية بسيط يصغى الى نقاش الضباط ولكن لا يشارك فيه وكانت حجج مارينوس قوية التأثير على نفسه حين يسمعها غير انه عندما انفرد ليلا فى حجرته وخلا بنفسه احس بأن تصوير مارينوس لموقف فينيزيلوس لا يخلو من زخرف القول لقد كان كومنينوس من أخلص الناس الى فينيزيلوس ومن أحرصهم على التمسك بسياسته ومن أكثرهم ثقة فى احكامه على الأمور ٠

وهناك فى نفس الاجتماع كان يوجد مع كومنينوس جندى آخر يسمع ما يقال ولكنه لا يلفظ بكلمة ذلك هو جريجورى ساروبولو ابن عم اسكندر ساروبولو ٠ كان هذا الجندى ملكى النزعة متعصبا لآراء الملك وكان شديد الحذر من أولئك الأوربيين الذين يحارب بعضهم بعضا ٠ ولم يكن يدرى ما هى أهدافهم الحقة من وراء تلك الحرب التى لابد وأنها تستر خلفها أغراضا ليست نقية ولا شريفة ٠ انهم يحاربون فى نظره للسيادة والمجد اؤ للثراء والسيطرة على حساب الضعفاء ٠ وهم فى سبيل ذلك لا يتورعون عن استعمال أشد الأسلحة فتكا ولا عن ارتكاب أفظع جريمة ضد الانسانية ٠ انهم يريقون الدماء من أجل المال أما حرب اليونانيين اذ ذاك فى نظره فكانت من نوع آخر حربا من أجل البقاء ومن أجل تحرير اخوانهم فى الوطنية الذين يعيشون تحت نير الاستعمار ولا يجدون فى سماء المغتصبين متنفسا للحرية ٠ تلك هى آراء جريجورى وكان يؤمن بأن الملك قسطنطين يحتضن نفس الآراء ويعمل بهدى منها فالملك فى عقيدته حين يصنع ذلك انما يحاول ان ينقذ اليونان من الخراب والدمار ويحتفظ بقوة الشعب كاملة لكى

يستطيع بتلك القوة ان يجابه العدو الحقيقى حينما تسنح الفرص •
وكل ما كان مخالفـــا لتلك الآراء كان جريجــورى يوليه ظهره
ولا يستطيع صبرا على سماعه وحتى لو اضطر الى سماعها كما كان
يحدث احيـــانا فى بيت ابن عمه فلم تكن فى نظره أكثر من طنين
النحل لا يلبث ان يتلاشى فى الفضاء الفسيح •

وفى أول معركة نشبت بين جيش الدفاع اليــونانى وجيش
البلغاريين فى ـ رافينى ـ من أجل الاستيلاء على خندق بلغــارى
قتل جريجورى بسبب أمر لا يدين له ولا يؤمن به ••

أما كومنينوس فقــد كان بدوره منذ أسبوعين ضمن فرقته
فى جبهة القتال عند ـ ستريمونا ـ وفى خندق مواجهه للبلغاريين
فقد أخذ الثلج فى الذوبان • وبدأ خرير الماء بين المنحدرات يغذى
فى الأرض الأمل فى الانبات وفى نفس الجند الأمل فى دفء لذيذ
كأنه يمشى الهوينا أو كأنه يتحسس خطاه فى وجل أثناء التقدم •
لقد علمهم برد الشتاء دون رحمة ولا هوادة وأخذوا يتساءلون عند
أول احساسهم بالدفء لماذا لا يبدأ الهجوم العام الآن فى هذا الجو
الجميل لكى تنتهى الحرب ويتخلصوا هم أنفسهم من ويلاتها وهمومها
وآلامها ؟ ••

أخذت المناوشة بين الجيشين المتخاصمين تشغل بال الجنود
وبدأت أصوات الفريقين يتردد صداها فى الفضاء كأنها عواء الذئاب
فى فلاة متراميــة أو زئير الأســود فى غابة موحشــة وكانت تلك
المناوشة وهذه الأصوات تنفجر فى أوقات محددة وطورا آخر فى
غرة وعلى حين غفلة وكانت فوهة المدافع والرشاشات تلفظ طلقاتها
بين الفينة والفينة فتصيب الحواجز التى حفرت خلفها الخنادق •
لقد سرت عدوى الحرب البطيئة المتقطعـــــة الراكدة من الغرب الى
الشرق كما تسرى الحرارة فى جسم المحموم •

لم يكن كومنينوس راضيا عن بقائه فى سالونيك بعيدا عن ميادين القتال فهو لم يحضر الى اليونان ويترك عشيرته ليعيش بين جدران مكتب فى زيه العسكرى كما يعيش الـكتاب وهو لم يكن مدفوعا أيضا الى الانتظام فى سلك الجندية وراء أمل براق خادع او لاحراز الشهرة بالبطولة الحربية دون ان ينقدها الثمن الصحيح . فقد رغب فى الحرب وهو يدرك تماما ما هى الحرب وما هو مقدار ما تجره من حرمان وتجلبه من أخطار . لقد كان يحز فى ضميره ويجرح شعوره ان يجد نفسه فى مأمن بمكتبه بينما غيره من الجنود فى ميدان القتال تتجمد أجسامهم من البرد ويغوصون فى مستنقعات من الوحل والطين ويشقون الشقاء كله دون راحة ولا رحمة . لم يكن هذا التخلف شرفا لنفسه كما لم تكن رغبتـه فى الذهاب الى معمعة الحرب زهدا منه فى الحياة ولكن كل ما كان يطمع فيه هو الا يشعر بالخزى أمام نفسه .

وفى ظهيرة أحد الأيام فى النصف الثـانى من شهر مارس وصلت الجرائد بعد ان احتجزتها القيادة العامة بضعة أيام تحمل خبرا عاما لا تكاد تتصوره العقول . لقد ثار الشعب يؤيد الجيش فى روسيا فخلعوا القياصرة وعينوا حكومة وطنية تنهض بأعبـاء الدولة وسر لهذا الخبر كومنينوس وأمثاله من الجند سرورا لا يعدله سرور آخر . وكان لمبعث هذا السرور امران : الأول تحرر حزب دوستويفسكى وتولستوى من الظلم الذى كان يحيق به فى روسيا الثانى هو تخلص الحلفاء الغربيين من حليف يخون المبادىء ويلوث جبين الديمقراطية ذلك هو روسيا القيصرية الطاغية المستبدة عدوة الحرية .. ولم يكن يدرى كومنينوس كما لم يكن يدرى أصدقاؤه الآخرون ان روسيا بعد أن تخلصت من عروش القياصرة وأعلنت فيها الحكومة الجديدة المؤقتة نظاما ديمقراطيا سيقوم فيها حكم أشد

ظلما واستبدادا وأقوى جبروتا وطغيـانا وأكثر كبتا للحرية من النظام السابق وان اختلف فى وضعه وتغير فى صورته ٠

وفى أواخر شهر مايو من نفس السنة ساهم كومنينوس فى معركة محدودة ضد البلغاريين هدفها الاستيلاء على مكان حصين ٠ وفى أثناء المعركة تقدم كومنينوس حاملا مدفعه الرشاش ولكنه لم يلبث ان وجد نفسه أمام أحد الخنادق فالقى بنفسه الى الجهة الأخرى منه وبينما هو معلق فى الهواء واذا برصاصـة تصيبه فى طرف قدمه اليمنى فيهوى فى الخنـدق ويقضى عليه بأن يبقى فيـه حتى ينتهى أصدقاؤه من الاستيلاء على ذلك المكان الحصين وعندئذ نقل الى مكان قريب أعد لاسعاف الجرحى ثم نقلته عربة الاسعاف بعد ذلك الى احدى المستشفيات العسكرية المتنقلة حيث قرر الطبيب أنه أصيب بجرح نافذ وكسر فى ظهر قدمه وفى نفس اليوم أحيل الى المستشفى العسكرى بمدينة سالونيك ٠ وهناك فى سرير علاجه كتب الى ابويه فى الاسـكندرية شارحا لهما حالة جرحه ٠ وفى خطابه لوالديه كان يحاول جهده أن يكون واقعيا صريحا غير انه كان يتجنب بقدر الامكان ما يسبب لهما الذعر والازعاج ٠ ومع ذلك فقد كان وقع هذا الخطاب على أبويه وشقيقته بمثابة صدمة كبرى ــ كان أخوه الأصغر لا يزال يدرس فى جنيف ــ وكان أول خاطر يهتف فى آذانهما هو السفر الى سالونيك غير ان مشقة الأسـفار وتعذرها فى تلك الظروف قد خففت بعض الشىء من حدة هذا الخاطر ثم أعقب ذلك رأى بعض اطباء الاسكندرية فى أن الجرح كما وصفه كومنينوس ليس بخطير وان حضورهما بجانبـه لا يغير من الأمر شيئا فعدلا عن السفر وانتظرا أخبار الجريح فى قلق ولهفة ٠

بقى كومنينوس فى المستشفى شهرين كاملين برىء فيهمـا قدمه والتأم جرحه ولكنه لا يزال يشعر بشىء من الألم حينما يطأ الأرض قدمه ٠ وفى أثنـاء فترة النقـاهة لاقى لدى الضابط

ساروبولو ووالدته من الرعاية والعناية والاهتمـــام ما لم يكن فى الحسبان ٠

منحته القيادة الحربية اجازة ستة أشهر فآثر ان يقضيها فى الاسكندرية بين أهله وعشيرته ولكنه لم يرد ان يعلن ذلك لأبويه تجنبا لانزعاجهما واضطراب قلبيهما أثناء اختراقه البحر بما فيـه من أخطار الغواصات ٠ كانت الباخرة التى أقلته ضمن قافلة من البواخر وهناك بالقرب من جزيرة كريت تصـــدت لتلك القافلة غواصات المانية كانت تتعقبها وتتلمس الفرص للقضاء عليها فألقت بقذائفها الواحدة تلو الأخرى ثم ابتعدت عن ميدان القتال مختفيـة تحت الماء ونتيجة ذلك أن أصيبت باخرة من القافلة فغرقت بمن فيها الا عدد من بحارتها استطاع ان يهرب من الموت ويســلك سبيل النجاة ٠

وصل كومنينوس الى الاسكندرية فى ظهر أحد الأيام ثم اتجه توا الى المنزل وفى الســاعة الثـــانية تمـاما كان أمام البيت يطرق بابه ولم تكن الأسرة قد غادرت المائدة بعــد فأسرع الخادم العجوز مرسى ليتعرف من الطارق ولم يكد يفتح الباب ويقع نظره على وجه كومنينوس حتى صاح دهشا فرحا ٠ وعندئذ ساد الأسرة لحظة من الصمت الرهيب ثم غادر الأبوان والفتاة المائدة وهرولوا جميعا نحو صياح الخـادم فوجدوا كومنينوس فى زيه العسكرى نحيل الجسم ممتقع اللون يتقدم نحوهم فى خطى مهدلة وفى يده عصاة غليظة يتوكأ عليها فألقى الثلاثة بأنفسهم بين يديه ضاحكين باكين فى نفس الوقت ٠

- ١٣ -

ملأ السرور قلب كومنينوس بعد أن طالت غيبته عن عشيرته وركدت فى نفسه عادة الحياة المنتظمة تحت سقف بيت واحد ٠

وفى الحق أن مغناطيس الحياة المنزلية الهادئة الرتيبة الذى كان يجتذبه في الماضى قد أخذ يضعف منذ اليوم الذى بدأ فيه يعمل بمكتب والده ويخالط معارفه وأصدقاءه ويغازل الفتيات ويجرى وراءهن ثم أعقب ذلك انتظامه فى سلك الجيش ومشاركته فى الحروب وسفره الى باريس فتفتحت منافذ تفكيره على آفاق أخرى وأدرك أو تذوق أمورا لا عهد له بها أدرك معنى الحب فى حرية وبغير حدود وأخذ ذلك كله يهمس فى آذانه همسات متتابعة فيملأ خياله • ولا يدع له فرصة واحدة يرجع فيها بذاكرته ليقرأ بعض صفحات الماضى أو ليستعيد ذكرياته الخوالى • لقد ملك الحاضر بأحداثه والتزاماته كل نفسه وشغل كل حسه ولم يجد للتخلص من ذلك مفرا ولا مهربا •

لقد جعلت فترة الغياب هذه من صاحبنا كومنينوس شخصا أشبه بعصفور طليق فى الهواء استهوته الحرية وسحرت لبه المناظر فانطلق يتنسم عبير الأزهار ويصدح بين الافنان حتى أصابته رصاصة في قدمه فاوقفت انطلاقه وألزمته الأرض •

لم تعد الحياة المنزلية فى نظره عبارة عن الأسرة وحدها بل أصبح جانب الأسرة ركنه الخاص الذى يأوى اليه حين يخلص لنفسه ويشغل به حين يفرغ من مشاغل الآخرين • ولما وضح فى نفسه ذلك المعنى أخذ يبتعد شيئا فشيئا دون قصد منه عن أبويه وأخويه الذين لم يستطيعوا مشاركته ميوله وملذاته فى ذلك الأفق الجديد الذى خلقه لنفسه • وها هو ذا الآن يعود بعد غيبة مليئة بالأحداث الى البيت الذى درج فيه ولكن بحنان جديد وعاطفة قوية قد غذاهما هجر وحرمان • لم يكن يدرى الىأى يوم يطول بقاؤه فى الاسكندرية اذ أن أمر ذلك كان موكولا الى حالة جرحه وما يتطلبه من الزمن للبرء التام • ولما كان قد ألف نوعا من الحياة المستقلة التى يستطيع أن يخلص فيها لنفسه وأهوائه وأفكاره فقد أخذ يضع فى حجرته

نظاما خاصا يتفق وميوله • فأبعد عنها سرير النوم مستبدلا به أريكة وثيرة أحاطها برفوف ملأها بكتبه المبعثرة هنا وهناك ثم علق في الحائط لوحة فنية للفنان ـ رينوار ـ هى عبارة عن امرأة عارية يثير النظر الى جسمها غرائز المرء ويسلبه هدوءه وصفاءه ولكن وجهها فى نظراته وفى ملامحه ينكر ذلك ويكاد ينطق بأنه يجهل مافى ذلك الجسم من لذة واثارة وأضاف الى ذلك مقعدا مريحا وثيرا ولم يزد على هذا بالرغم من تشجيع والدته على الاكثار مما يهوى شراءه واقتناءه مؤملة أن يكون فى ذلك وسيلة لاجتذابه وحبه فى البقاء وسط أهله وعشيرته •

وجد كومنينوس أيضا مدينة الاسكندرية كما عهدها رطبة فى ساعات الصباح ملتهبة فى ساعات الظهيرة لطيفة جميلة فيما قبل الغروب راكدة ثقيلة فى ساعات الليل وجدها كما عهدها بسمائها الصافية الزرقاء التى تحتضنها كما تحنو الأم الرءوم على وليدها أثناء الأخطار وشوارعها المتعرجة المتقاطعة طورا والمتقاربة طورا آخر شوارع متشابهة المناظر لايوقف النظر فيها منظر طبيعى جذاب ماعدا شارع رشيد وبحاراتها وأزقتها الضيقة المختلفة التى امتدت مابين البحر والقنال والبحيرة فصنعت منها كتلة واحدة متماسكة الأطراف وأنست المرء أنها امتداد من رمال الصحراء • وجدها كما عهدها بهدوئها المتواصل وثرائها الواسع وبيوتها ذات الأناقة المفرطة والذوق السليم المحكم حيثما يكون أصحابها من أهل اليسار كما عهدها بما فيها من الآثار القديمة وجزيرة فاروس والميناءين وبعض المرتفعات • بقى كومنينوس يعرج فى مشيته ويتوكأ دائما على عصاه ومن أجل ذلك عينت المفوضية اليونانية لجنة طبية للنظر فى أمره فمنحته أجازة سنة أخرى •

رأى صاحبنا اذن أن يعود الى العمل فى مكتب والده بعد أن أدى ديونه وصلحت حاله وبالرغم من أن الحكومة المصرية قد

وضعت قيودا شديدة على أعمال « البورصة » أثناء الحرب فألغت بعض فروعها وضيقت على البعض الآخر فان استراتيس وفافازوس استطاعا تحقيق ربح وفير ٠

هـذا ولم ينس كومنينوس أصـدقاءه القدامى فى مدينة الاسكندرية فاتصل بمن بقى منهم فيها ـ جيراسيمو فيجاليتوس وباندیلی فلاسيدى ٠

أما جيراسيمو فقد آل اليه ثلث تركة عمه ليون فيجاليتو بعد وفاته ولم يكن هذا الثلث بالقدر اليسير والثلثان الآخران صار أمرهما الى الرابطة اليونانية فى الاسكندرية وتفصيل ذلك أن العم حينما أحس بالموت يقترب منه وحبل الأمل فى الحياة ينصرم شيئا فشيئا أخذ يكتب وصيته وعندئذ تملكه احساس رهيب واستولت عليه عاطفة غريبة لم يستطع تكييفها خيل اليه أنه يرى بعين باطنية شبح المـوت يمثل أمامه ويحاول أن يخطـو الخطوة الأخيرة نحوه ثم ذكر ما يحفظه فى نفسه من سخط وكراهية ضد ابن أخيه ٠ فرأى أن هذا لا يعـد شيئا بجانب ما يراه من روعـة الموت وجبروته وحينئذ صفح عن ابن أخيه وغفر له زلته فاحتسبه فى وصيته لكى يلقى الموت رابط الجأش ثابت الجنان ٠

وقبـل أن يئول اليه هـذا الميراث كان جيراسيمو يعمل فى مكتب أحد اليهود المتصلين بالبورصة وقد نجح فى هـذا العمـل نجاحا كبيرا واستطاع أن يحقق كسبا وفيرا ٠ وفوق ذلك فقد عرف بعض الأشخاص من الأوساط الأرستقراطية ٠ ولم يكد جيراسيمو يصل الى هذا الثراء حتى أحدث تغيرا عظيما فى ملبسه ومعاملته ومصاحبته أصبح من هواة الصالونات والأندية التى لا يأوى اليها سوى خلاصة الطبقات الراقية ولكى يندمج فى هذا الوسط الجديد فقد عنى عنـاية كبرى بأمرين هما الأناقة العظيمة فى الملبس والظرف ولين الجانب فى المعاملة والحديث فكان يتحاشى جهـده

النطق بخبر مزعج أو الحديث عن أمر يشغل البال وكان يجيد فن القصص لما يعرفه من طرف وفكاهات ثم يعرف مواطن الاغراء لدى المرأة فيسبغ عليها أرق الصفات وأجمل أنواع الثناء ٠

كان طموحا مولعا بأن يدعى الى أرقى البيوت وأسمى الطبقات ولم تفلت من حبائله وتسلم من اغرائه أو تستعصى عليه من كل من عرفهن من سيدات هذه الطبقات سوى واحدة ذلك لأنها كانت تعرف حقيقة منبته اذ بقيت أمه تعمل عندها كخادمة مدة عشرين سنة ولكنها الوحيـدة التى كانت تدرك هـذا السر أما الآخرون فلا يعرفون عنه أكثر من أنه من أسرة ليون فيجاليتوس وابن أخيه ٠

كان مسلك جيراسيمو مع كومنينوس غير مسلكه مع الآخرين فكان بسيطا الى أقصى حد طبيعيا كعهده يوم كان فى السادسة عشرة من عمره كان ينسى معـه مكانته الاجتمـاعية الجـديدة وثروته الحديثة الطائلة ويعود الى ما كان معروفا عنه زمن الشباب من بساطة وتواضع ولطف وفكاهة ومرح ٠ ولولا ذلك لقـاطعه كومنينوس ورفض أن يتخذه صفيا له وصديقا حميما ٠ وينبغى ألا نفهم من وراء ذلك أن كومنينوس كان يفضى اليه بكل ما لديه من سر بل انه كان يحفظ بعضا منها لنفسه ولنفسه فقط ٠ لقد كانت صداقة كومنينوس بالنسبة لجيراسيمو ثروة روحية اذ أنها دامت نحـو عشرين سنة دون انقطاع وكان جيراسيمو يشعر فى قرارة نفسه بحاجته الى هذه الصداقة القديمة البريئة أما أصدقاؤه الجدد فكانوا من نوع أولئك الذين تخلقهم المعاملات المـادية والظروف المختلفة والعشرة التى تهدف الى غرض من الأغـراض ومن أجل ذلك كان يجد فى كومنينوس معنى لا يستطيع أن يجده لدى الآخرين وفى صداقته اياه شعورا لا يلمسه فى صداقة أخرى ٠

وأما الشاعر بانديلى فلاسيديس فقد أصبح « بولشفيا » أى من أولئك الذين يؤمنون ايمانا تاما بمبادىء الثورة الروسية الثانية

التى نادى بها وحققها لينين • ومن الغريب أنه قبل هزيمة القياصرة فى روسيا كان يجهل كل شيء عن « البلشفية » بل انه كان يجهل وجود لينين نفسه • ولم يكد يعلو انتصار الشيوعيين هنـــــاك واستيلاؤهم على الحكم حتى اعتنق شاعر الاسكندرية هذا مبـادئهم وأصبح شيوعيا متطرفا بالرغم من عدم درايته بتلك المبادىء اذ أن الرقابة على الصحف لم تكن تسمح بنشر شيء عنها ولعل الفـــكرة الوحيدة التى استحوذت عليه وسلبته ارادته وهو أن الشـيوعيين كانوا يؤكدون للناس أنهم سينشـــئون على الارض عالما جديدا لم يعرف من قبل وسيزيلون طبقة من الناس أشبه شيء بالطفيليات التى تعيش وتنعم على كد الآخرين لكى يستولى الشعب على أموالهم ومراكزهم فى المجتمع •

ومن العجيب أن نتيجة هذه الثورة الشيوعية أن نضب معين شعر بانديلى واستعصى عليـــه نظم القوافى بالرغم من محاولاته المتكررة وحينما أراد أن يشرح للناس أمره قال « ان مهمة شعرى الآن هى بيان تلك الظاهرة الشيوعية الجديدة ومن أجل ذلك لا يمكن الا أن يكون شعرا اشتراكيا يشيد بالعمل ويثنى على العاملين ولما كنت أعيش فى ظل نظام بورجوازى سينقشع بعد قليل فانى أرانى أشبه شيء بسمكة قذف بها المد على الرمال ثم انحسر عنها المـــاء فهى فى انتظار موجة أخرى تصل اليهـــا لكى تهيىء لهـــا فرصة جديدة للحياة » •

كان جيراسيمو يذهب من حين الى حين الى مكتبة بانديلى لكى يشترى رواية فرنسية يهديها الى احدى صاحباته وذات مرة سمعه يقول تلك العبارة فاستظرفها ثم وجد فيها فرصة للتندر فقال : ولو نسيتك الموجة على الرمال ولم تعد لتحملك الى الماء فماذا عساك تصنع يا بانديلى ؟ أنفقدك كشاعر الى الأبد ؟ أليس فى ذلك خسارة كبرى ؟ •

ولم يكد جيراسيمو يفرغ من قولته حتى أجابه بانديلى بهذه العبارة • لا تنزعج أيها الطفيلى فالموجة آتية لا محالة •

وأما صاحبنا كومنينوس فكان موقفه من الثورة الروسية موقف من يرى نفسه أمام البحر وتحت وهج الشمس فهو فى حيرة من أمره أيلقى بنفسه فى الماء ليطفىء حرارة جسمه ؟ أم يبقى فى مكانه من الشاطىء خوفا من الغرق ؟ ان فكرته عن الانسان وما لديه من مثل وحيوية قد جعلته يعير أكبر اهتمام فى المظاهر الشيوعية وذلك نتيجة دراساته الاجتماعية فى باريس وقراءاته الواسعة عن الاشتراكية وفوق ذلك فانه كان يتتبع آثار الاشتراكية ورحلات المنظمات العمالية فى كل أوربا • كان يعترف بقيمة ونفع الكثير مما حققته الاشتراكية من آثار فى الميدان الاجتماعى والاقتصادى ولكنه لم يصل به الأمر الى أن يصير ماركسيا كما استطاع أن يتخلص من نظرية الحكم القديمة وينكر ما يقال عن الرأسمالية أو المادية التاريخية ولهذا فضل البقاء على الحياد ولم يرتم فى أحضان الشيوعية قبل أن يرى آثارها ويدرسها على ضوء نتائجها •

تجاوبت أصداء العالم بهذه الثورة الشيوعية فى روسيا وتردد فى كل مكان ما كان ينادى به الشيوعيون من برامج للحكم ويعطونه للشعوب الأخرى من مواعيد فنادوا بتحقيق دولة شيوعية حقيقية وأنكروا على القياصرة الروس نظامها الامبراطورى ووعدوا بالغاء المواثيق والأحلاف التى أخذها أولئك الحلفاء غصبا من حلفائهم فى القسطنطينية وفى الدردنيل • كما وعدوا باعطاء الشعوب المغلوبة على أمرها ــ كالبولنديين الفنلانديين وغيرهم من شعوب البلطيق ــ حرية الاختيار بين البقاء فى تبعية روسيا وبين الحرية الخالصة والاستقلال التام • ومع ذلك فقد لاحظ كومنينوس أن هؤلاء الشيوعيين من الروس منذ استيلائهم على الحكم واغتصابهم لأمور الدولة حتى ذلك الحين لم يحققوا شيئا مما وعدوا به فلا هم نجحوا

فى خلق دولة شيوعية أو اشتراكية بالمعنى الصحيح كما كانوا يتغنون بذلك من قبل سواء أكان هذا لعجزهم هم أنفسهم عن وضع أسس ذلك النظام الاشتراكى الصحيح أم لأن هذا النظام الاجتماعى كما يراه المتطرفون من الماركسيين يعتبر فى روسيا ضربا من المحال ولا هم صدقوا فى ازالة ما كان هناك من استبداد بل لجئوا اليه أنفسهم كوسيلة يقتلون بها حرية الرأى فى داخل روسيا وفى خارجها على السواء ولا هم احترموا حقوق الشعوب الأخرى فى التمتع بالحرية · بل انهم أخضعوهم لارادتهم كلما استطاعوا ذلك وأذاقوهم الأمرين بواسطة الأحزاب الشيوعية التى تكونت خارج حدود روسيا ولكنها لا تعمل الا بوحيهم ولا تنفذ غير رغباتهم مضيفة بذلك الى ذل القياصرة واستعبادهم فى روسيا سلسلة طويلة من الذل والاستعباد فى داخل البلاد الأخرى ·

منذ ترك كومنينوس باريس وهو يكتب فى كل أسبوع مرة الى مونيك · كان يحدثها فى شىء من التفصيل عما يصنعه وما يحدث له فقد كان يحبها حقا وكانت صورتها لا تبرح خياله أبدا وقد وجد فيها الصديقة والحبيبة التى كان يحلم بها ·

أما هى فكانت تجيب على كل خطاب يصلها منه وكان يسعدها ويملأ قلبها غبطة وسرورا أنها وجدت كومنينوس الشخص الذى يدرك ويقدر فيها الجمال لقد ألفت نوع الحياة التى كان يحياها فى باريس من دراسة واطلاع ومتع بجمال الطبيعة ولذة بالذهاب الى المسارح ولم تكن تطلب منه سوى أن يحبها ويخلص لها فى ذلك الحب « ولشد ما كان يبدو لها ذلك بسيطا غاية فى البساطة ولكنه يضم بين جوانحه كل نظرية الحب » لم تكن تفكر أبدا فيما يأتى به الغد وكان أبعد الأمور الى ذهنها أمر الزواج · وكل ما كان يعكر عليها صفاء السعادة والحب يوم كان معها فى باريس انما هو فكرة عودته يوما الى بلده واحتمال نسيانه لها بين أهله وعشيرته · لكم

كان مفجعا لها حينما تركها وذهب الى ميادين القتال فى اليـــونان ولكنها سرعان ما سيطرت على عواطفها الجامحة وتغلبت على آلامها المبرحة اذ أن الحرب كانت حقيقة ملموسة لها تشغل عقلها وقلبهـا وخيالها وتملأ الجو الذى يحيط بها وكان أخوها وجمع من أقربائها يصطلون بنارها فى جبهة القتال ٠

لم يكد ينصرم شهر واحد بعـــــد انقضاء الحرب حتى كان كومنينوس فى باريس يبحث عن مونيك اذ أنه كان لا يزال يشعر بألم فى قدمه ومن أجل ذلك أعفته الهيئة الطبية فى قيادة الجيش من الخدمة العسكرية واعتبرته ضمن الجنود الاحتياطيين ٠ سرت مونيك به عندما رأته فى باريس ٠ وطار قلبها فرحا حينما عرفت أنه جاء هنا من أجلها ومن أجلها فقط ٠ عاشا شهرين معا وأيام السرور تمر سريعة ٠ وفى أثناء ذلك كان كومنينوس يتجنب أن يعدها بشىء فى المستقبل فالوعد فى نظره دين لابد من الوفاء به وذلك لم يكن فى مقدوره ٠ غير انه تحدث اليها حديثا عابرا عن احتمال سفرها الى مصر واتفقا سويا على مناقشة ذلك فيما يتبادلانه من خطابات فى المستقبل أما الآن فليســعدا باللقاء فى باريس وبما يهب عليها من نسيم الحرية وترفل فيه من حلل الأعياد بعد أن انقشعت سحابة الحرب الثقيلة وزالت ظلمة الليل الحالكة وأخذ الناس ينسون الحرب وفواجعها ويضرعون الى السماء بأن تكون آخر ما يرونها فى الحياة ٠

وبعد أربع سنوات قضاها انطونى غالانوس فى جنيف يدرس القانون عاد الى الاسكندرية يحمل شهادة الليسانس وكان ذلك فى السنة التى تلت نهاية الحرب ٠

بقى كومنينوس حتى الخامسة عشرة من عمره يوزع وقته بين المدرسة وصحبة أخويه تارة فى منزل شدس أو فى حديقته الوارقة وتارة أخرى فى «الكازينو» أو على شاطىء البحر أمام «سان‌ستفانو»

تبعا لمقتضيات الفصول من السنة • وبعد ذلك التاريخ عزفت نفسه عن صحبة أخويه ولم يعد يجد أى متعة فى مخالطة « الأطفال » كما كان يقول اذ كان يكبر أخته زوى بثلاث سنوات وأخاه انطونى بست سنين • وأظنك مدركا معى مبلغ ما أحس به الأخوان من ندم مرير ووحشة تمزق الاحشاء عندما رأيا أخاهما الأكبر ينفصـــــل عنهما ويحرمهما من صحبته لقد ضاقت فى أعينهما الدنيا حينما أغلق فى وجهيهما أفق هذا الرفيق الأمين • لم ينس انطونى ذلك اليوم الذى كان يلعب فيه مع أخته فى حديقة المنزل ريثما يجىء أخوهما الأكبر• ولما طال انتظارهما له ذهب اليه يستعجله فوجده فى كرسيه مغرقا فى تفكيره فقال له بلهجة الطفولة البريئة تعال يا كومنو اننا فى انتظارك • فأجابه بصوت نم عن هم وغضب ونفور • اذهب عنى لا تضايقنى العبا وحدكما • ومنـــذ ذلك الحين اعتبر كومنينوس نفسه متجاوزا سن الطفولة • ولم يعد يأنس فيها تجاوبا لأصداء نفسه وأفكاره •

لم يكن أنطونى من هؤلاء الذين نطلق عليهم « حاضرى البديهة » ولا من أولئك الذين نسميهم « حادى الذكاء » كما لم يكن من البله ولا من الأغبياء بل كان وسطا بين هؤلاء وأولئـــك وكانت صفاته وامكانياته العقلية من نوع تلك التى تخضع للمعايير والمقاييس • وهو من أجل ذلك لم يكن من الشبان اللامعين فعقله عاجز عن التعمق فى قلب الأشياء منذ النظرة الاولى ولم يكن لديه من سهولة التعبير وقدرة التحليل والافصاح ما يجتذب السامعين ويحببهم فى الانصات اليه • كان غامضا فى شخصيته وفى حاجة الى أن يقترب من الموضوع لكى يتحسس جوانبه ويزنه من كل نواحيه ثم يفهم على مهل ظاهره وباطنه وبعد ذلك يرسم خطة لعرضه ومع ذلك كله كان يعرضه فى شىء من العى والثقل • ولعلك بعد هذا سائل عن صفاته الخلقية • كان طلق المحيا ورث عن أمه سماتها الجميلة وعن أبيه لونه الأشقر

ولكن في قليل من السمرة · كان أزرق العينين سمهرى القـــامة متناسب الأجزاء بطيء الحركة هادىء الطبع لا شيء يستثيره ولا ينفعل لأمر مهما جل شأنه ·

بدأ حياته العملية كمحام فى عهد المران فسجل نفســه فى المحاكم المختلطة وفى المحكمة القنصلية اليونانية وكان المشرفَ عليه فى تلك المدة محامى والده وفى مكتبه ·

أما زوى فكانت مصدر هم لأمها كانت قبيحة المنظر ورثت هذا القبح وليتها ورثت شيئا آخر عن احدى خالاتها التي كانت تعيش في جزيرة ليمنوس قصيرة القامة متخنة الجسم صغيرة الرأس في شكل دائرى ملامحها لا تفصـــح عن شيء صغيرة الأنف ضيقة الفم ولعل موطن الجمال الوحيد لديها كان فى عينيها اللتين تشعان على كل وجهها شيئا من البشر والطلاقة والهدوء · لقد أنهت دراستها في مدرسة البنات اليونانية حيث عرفت بعض اللغات الاجنبية والعزف على البيانو غير انها كانت تمارس هذا النوع من الموسيقى ريثما تتاح لهـــا فرصة الزواج ولقد أكسبها ذلك شيئا من رقة الطبع ولطف المعاملة ولين الجانب ·

وفى نوفمبر سنة ١٩٢٠م أى بعد أن أجريت الانتخابات العامة في اليونان باسبوعين اثنين حيث سقط فيها فينيزيلوس وحزبه جاء الى الاسكندرية اسكندر ساروبولولكى يخفف عن نفسه هموم نتائج هــذه الانتخابات التى كانت بمثابة صفعة قوية اختل لهـــا توازن أعصابه · ولقد تخير مدينة الاسكندرية لأن فيها جالية يونانية كبيرة أكثرها من أنصار فينيزيلوس ومن المعتنقين لمبادئه السياسية · ولو انك استبطنت أمـــر ساروبولو في ذلك الحـين لظهر لك ان جزعه وحزنه لهزيمة فينيزيلوس كان أشـــد على نفسه من جزعه وحزنه لهزيمته هو أمام منافسيه فى انتخابات مدينة سالونيك · وفى اليوم

التـــالى لوصوله الى مدينة الاسكندرية ذهب ليرى كومنينوس فى مكتبه • وبقدر ما سر كومنينـوس برؤية صاحبه كان متـأثرا أعمق الأثر هو أيضا بالنسبة لنتائج الانتخابات فى اليونان غـير انه وجد فيه الشخص الذى يستطيع أن يتحدث اليه عن اليونان وسياستها فيفضى اليه عمـــا يكنه فى نفسه ويختزنه فى قلبه وسرعان ما دار بينهما هذا الحوار فقال ساروبولو :

ـ لم يخسر فينيزيلوس شيئا فى هذه الانتخابات ولكن اليونان هى التى خسرتها وتلك هى المصيبة الكبرى •• لقد كان فينيزيلوس الأداة الصالحة لجمع أفراد الشعب اليـونانى على أرض ذلك الوطن العريق كما تجمع قطعة المغناطيس من حولها شظايا الحديد • ولكن اليـــونانيين حينما هزموه فى المعركة الانتخابية قد قصوا أجنحته وسدوا فى وجهه طريق العمل والوحدة والاصلاح • وأخشى ما أخشاه هو أن يكون ذلك الغرض النبيل والهدف الأسمى قد فقدته اليونان الى الأبد •

ـ ولكن ألا نظن ان خلفاءه فى الحكم سينشدون نفس الهدف ويسلكون نفس الطريق ؟

ولم يمض على ذلك أكثر من سنتين حتى منى اليونانيون فى آسيا الصغرى وعلى رأســهم الجيش اليونانى بأكبر هزيمة سجلها لهم التاريخ فطردوا من هذه الأرض أشد طرده وأوذوا أتعس ايذاء وكانوا فى مغادرتهم لتلك الارض أشبه بباخرة فى عرض البحر قد أطاحت بها العواصف من كل ناحية ولما لم تستطع المقاومة استسلمت للغرق فهلك من هلك وفقد من فقد ومن كتبت له النجاة وصل الى اليونان وهو لا يملك شروى نقير •

وستتساءل اليونان فى هم وضيق خلال القرون المستقبلة هل كان مقدرا لبرنامج فينيزيلوس أن يعيش طويلا فى آسيا الصغرى

وهل لو بقي هو فى الحكم لاستطاع أن يحتفـــظ به ويكسبه قوة وثباتا وهل لو لم يهزم في الانتخابات لاستمر الحلفاء يسندون ظهره ويمدونه بالعون والقوة ولو بقى الشعب اليونانى يقاوم هجوم أعدائه على جبهتين للقتال فى الشمال وفى الشرق .. ولكن القدر لم يمهل فينيزيلوس فيتركه يكمل ما بدأ به بل قوضه بعـــد أن أضاف الى أسطورة الزعيم سرا آخر لا يزال النـاس فى حـيرة من أمر شرحه وتفصيله .

استضـاف كومنينوس صـــاحبه فى المنزل فأكرمت وفادته الاسرة كلها وسرعان ما تأكدت الروابط بينها وبينه وأخذ هو من جانبه يتردد على البيت دون تكليف ويوالى خروجه مع كومنينوس تارة الى المتنزهات وأخرى الى المسارح. ولقد وجد ساروبولو فى هذه الأسرة وداوصداقة واخلاصا كما وجد لديها عزاء لما يثقل كاهله من حزن ويملأ قلبه من ألم بالنسبة لسـياسة وطنه المنكود ويبدو أنه منذ النظرة الاولى قد ملك على زوى قلبها وحواسها ولم يتردد هو من جانبه في أن يبادلها حبا وعاطفة وتقديرا .

كان ساروبولو من أولئك الذين تستهويهم المبادىء قبل أن يستهويهم شىء آخر سواء أكان ذلك فى ميدان السياسة أم فىميدان القضـــاء أم فى الميدان الاجتماعى . كان حرا لا لأنه يعتنق مبادىء حزب الاحرار ولـكن لأنه يؤمن بحرية الفرد وبحقـــوقه الشخصية والطبيعية والاجتماعية أمام الدولة وأمام أى سلطـان آخر . كانت نظرته الى الحرية نظرة فاحصة عادلة لا شطط فيهـــا ولا جور من ورائهـــا فحرية الفرد يجب أن تكون مطلقة ولكن ليس على حساب حرية الآخرين وواجب الدولة انمــا هو حماية هذه الحرية وشد أزرها في حالة الفقر والمرض والعجز عن الكسب .

أما عالم العواطف بالنسبة له فكان عالما محدودا لا تعقيد فيه والحب في نظره مظهر من مظاهر حاجة طبيعية في الانسان. لم يسمح في حياته لأى امرأة أن تستحوذ على مشاعره فتشغله وتزداد من أجلها نبضات قلبه . كان من أولئك الذين يستثيرهم جمال المرأة ولكن ليس الى الدرجة التي يفقد عندها السيطرة على النفس ولم يعرف عنه حتى الزواج سوى ذلك النوع من الحب الذى ينبت حينما تتاح له الفرص ثم لا يلبث أن يذبل عندما تنتهي تلك الفرص .

وبمضى الأيام وتعدد الزيارات وجد ساروبولو في أسرة غالانوس ودا وبشرا وصداقة وائتلافا وبنفس الشعور كان يرى زوى ويجاذبها أطراف الحديث لم تكن في نظره جميلة ولكنه كان مقتنعا في قرارة نفسه بأنها زوجة طيبة وربة أسرة صالحة ومن أجل ذلك لم يتردد في أن يخطبها للزواج سرت الاسرة كلها لهذه الخطبة واستولى على زوى نفسها نشوة كبيرة من الفرح لم تستطع أن تخفيها اذ كان هذا الزوج يجمع من الخلال الكريمة ما يندر وجوده جملة عند كثير من الأزواج كان لطيف العشرة كريم الخلق من المحامين البارزين في سالونيك ومن نوابها القدماء وفوق ذلك فقد كان من الأثرياء . ولهذه الصفة الاخيرة كانت أسرة غالانوس مستريحة الخاطر مزهوة فخورة لكيلا يظن أحد أنه أقدم على خطبتها طمعا في مهرها . وفي وسط عاصفة من الفرح والتأثير أعلن استراتيس موافقته على ذلك الزواج قائلا انه لا يجد أى مأخذ على ساروبولو . وقد تمت مراسم الزواج في مدينة سالونيك بين أفراد أسرتي الزوجين في ربيع سنة ١٩٢١ وفي نفس السنة أعقبت زوى من زوجها ولدا أسمته لامبروس .

وبقدر ما كانت والدة كومنينوس طروبة بهذا الزواج كانت فخورة بابنها غير انها لم تكن راضية عن مسلكه في الحياة ولا عن نظرته بالنسبة للمجتمع . كانت ترجو أن يكون ولدها أكثر ادراكا

لحقيقة المجتمع وأشد ائتلافا به وامتزاجا معه لكى يهيىء للناس فرصة خبرته وتقدير ما فيه من مزايا وخلال · كان يحز فى نفسها أن تجده ذكيا مثقفا ولكنه لا ينتفع بهذه الثقافة ولا يجنى خيرا من وراء ذلك الذكاء كجمرة متوهجة تراكمت عليها طبقات من الرماد ويقطع قلبها أن تجده لا يرتبط الا بمن يهواهم من الناس متجنبا طبقة الحكام ورجال الادارة ومن في يدهم أمور المدينة بما فيها من هيئات ومعاهد ومؤسسات فتمضي حياته وئيدا وفي صمت بين هذه الاوساط وتتغنى الصحافة ببعض الأسماء فلا تلبث أن تلمع فى سماء الاسكندرية دون أن تذكر عنه هو شيئا · وكانت كثيرا ما تردد عليه هذه العبارة فى حسرة ومضاضة · لن تجنى شيئا من وراء هذا الصمت ولا من خلف ذلك الاعتزال ان من واجبك أن تلقى بدلوك بين الدلاء وأن تساير المجتمع فى أهدافه وتشاركه فى مجهوداته حتى يكون لك حظك من تلك الاهداف ·

وأشق ما فى ذلك على نفس كومنينوس هو أن يرى والدته فى هم بسببه وضيق من أجله ولقد حاول جهده أن يقنعها بسلامة مسلكه وبأنها ليست فى حاجة الى أن تثقل نفسها بهموم المجتمع اذ الامر ليس خطيرا · اننى لم أصنع لادارة الجمعيات الخيرية كما لم أصنع كذلك لاقتناص وحوش الغابات لكى انتخب عضوا فى ادارة تلك الجمعيات حسبى أن أكون عضوا بسيطا فى احدى هذه الجمعيات · اننى أعترف لك بفائدتها بل وبضرورة وجود بعضها وأعدك بأننى على استعداد حينما يجد الجد ويحزب الأمر أن أقدم نفسى كجندى بسيط يذود عن حياضها ويدفع الخطر عنها · ولشد ما يسعدنى أن أرى كثيرا من النـــاس يقبلون عن رضا وطيب خاطر هذه المهمة وتلك التضحية · ومن الحق أن أقول أيضـا أن ما يصنعه هؤلاء لا أجيد أنا صنعه ·

ولو أنك فحصت نفسية كومنينوس وقلبت أموره رغبة في أن تصدر حكما صادقا عليه لوجدت أنه لم يكن منسجما تمام الانسجام مع الوسط الذى يعيش فيه كما لم يكن كذلك ساخطا عليه سخطا يبرر أن يثور ضده كان ينقصه أن ينحرف هو قليلا لكى يلتقى مع هذا الوسط فى نقطة يسيران بعدها فى وفاق ووئام ٠

وكان استراتيس يرى فى ابنه ما تراه فيه زوجه غير أنه كان أرحب منهـا صدرا وأقل تزمتا وأوسع تفكيرا كان يفهم طبيعته ولا يحاول أن يضع من شخصيته ٠ وبالرغم من أنه قد بلغ الستين من العمر فقد بقى له من المرونة فى التفكير ما يسمح له بأن يدرك طبيعة التطور فى الزمن ويفهم عقلية الجيل الجديد ويعترف بمايمكن أن يكون هناك من تفاوت بين عصرين بصور متعددة ٠ كان يعرف تمام المعرفة ان ابنه أبعد مايكون عن الكتابة فى الصحف وعن أن يحاضر فى جمهور من الناس ولكنه يعرف تمام المعرفة أيضا انه واسع الثقافة وأن آراءه وأحكامه على الاشياء يتردد صداها فيما حوله وبين أهله وأصدقائه وليس ذلك بالأمر الهين الذى ينبغى أن يمضى فى صمت أو ألا نلقى اليه بالا اذ انه قد نهل هو نفسه من ذلك النبع وذاق ما فيه من منفعة وخير حينما كان فى صحبة أستاذه روذاكيس٠

كان من عادة استراتيس أن يجلس بعض الوقت مع ابنه كومنينوس عندما يستقبل هذا الأخير أصدقاءه فى البيت ولميكن من شأنه أن يشترك معهم فى الحديث أو الجدل بل كان يقنع بأن يسمع اليهم ويزن آراءهم ثم يسجل ما يعن له من ملاحظات ٠ كان يسترعى نظره بصفة خاصة أنه لا يجد فى أحاديثهم أى ترديد لصدى الحب ولا أدنى نغمة من نغمات العواطف كما كان يدهشه كذلك أن يراهم يتحدثون ويتناقشون فى ثقة من أنفسهم وفى عزيمة وحسم لما يبدو لهم من أمور كانوا واضحين ان شرحوا موضوعاتهم وواقعيين ان أدلوا بما لديهم من حجج وبراهين وغير أن أحاديثهم كانت تخلو

تماما من هذه الكلمات : ـ الله ـ الروح ـ الدين كانوا لا يرحمون لهم خصما ولا يحتملون من يخالفهم فى الرأى وجزاء هؤلاء لديهم أن يصبحوا هدفا لاستهزائهم وموضوعا لسخريتهم وكانوا اذا تحدثوا عن الفن ومظاهره عز على استراتيس أن يفهم ما يقولون وخيل اليه انهم قد دلفوا الى مهمه ولا يدرك شيئا من معالمه • والعجيب انهم كانوا يسخرون من كل موضوع يهز نفسه ويستثير احساساته • ولكنه كان يتدارك الأمر فيقول ومع ذلك هؤلاء هم الذين يصرفون اليوم أمورنا أما نحن فقد قعد بنا الزمن واحتسبنا من المخلفين •

كان كومنينوس يذهب فى صيف كل سنة الى فرنسا حيث يقضى شهرين أو ثلاثة مع صاحبته مونيك ولكنه فى سنة ما عرج أولا على اليونان ليرى أخته زوى وزوجها ساروبولو وابنها لامبروس• الذى لم يكن يتجاوز الثالثة من عمره اذ ذاك • وفي تلك السنة شغلته زياراته فى اليونان وألهته رحلاته الى جزرها الجميلة عن الذهاب الى باريس • ولم يكد يعود الى الاسكندرية حتى بعث بخطاب الى مونيك يدعوها فيه الى قضاء فصل الشتاء فى أرض مصر الطيبة وتحت سمائها الجميلة المحببة ولكنه نبهها الى انهما سيذهبان سويا الى القاهرة والى مصر العليا اذ ليس من السهل لهما أن يغضا الطرف عن تقاليد الاسكندرية وعادات المجتمع فيها • ولقد حاول كومنينوس أن يشرح لها ذلك المعنى ويضع أمام عينها صورة تستطيع بواسطتها أن تلمح فرق ما بين الاسكندرية وباريس فذكر لها ان الاسكندرية لا تعدو أن تكون كاحدى عواصم المقاطعات فى فرنسا وان المجتمع فيها محدود وعينه يقظة وان كل حركة من حركات الافراد محسوبة عليهم وكثيرا ما تؤول تأويلا مصدره الريبة والشك • ويكفى أن يظهر فى أحد الاندية وبجانبه فتاة أجنبية جميلة مثل مونيك لكى تنطلق الألسنة من عقالها ويدور الهمس وتنتشر الشائعات فى اجواء المدينة ومن أجل هذا يجب أن يتجنب ذلك لأمرين حرصه على ألا

تمس سمعتها وايثاره ألا يبلغ والدته شيء من أقاويل الناس فيجرح شعورها ويمزق قلبها ·

كان وصول هذا الخطاب الى مونيك بمثابة استيقاظ من حلم لذيذ على حقيقة مرة اذ لم تكد تقرأه حتى ثارت ثورتها وأخذت تهدر كما يهدر البعير وتتحدث الى نفسها كمن فقد رشده ·· ألم يكفه أن أقضى الحياة فى انتظار صنيع بينيلوب ؟ ألم يكفه اننى لم أفاتحه فى أمر مستقبلى ؟ والآن وقد أتيحت لى الفرصة لزيارة مصر ذلك البلد الذى كنت أحلم به منذ طويل يحرم على البقاء فى مدينة الاسكندرية؟ ثم ماذا ؟ أبلغ مجتمع الاسكندرية الى هذا الحد من التأخر والاستيحاش ؟ أليس فى اخلاصى له ووفائى من أجله مايبرر تناسيه لشيء من سخط والدته ؟ لقد كنت أجهل منه تلك الانانية المفرطة ؟ حبى له وحياة الرهبنة التى ارتضيتها لنفسى عشرة أشهر فى كل سنة لا يشفعن له أمام حكم مواطنيه الجائر وتعكير مزاج أمه العجوز السيدة غالانوس ؟ لا ··· هذا كثير ·

لقد أتاح هذا الخطاب فرصة تستطيع فيها مونيك أن تكون واقعية الى حد ما فتنام عواطفها ويستيقظ عقلها كان من المؤلم لفتاة مثلها أن ترتبط بشاب احدى عشرة سنة كاملة لاتعاشره ولا تسعد بصحبته في خلالها سوى ثلاث سنوات فقط وأما ما بقي من تلك المدة فكانت تقضيه على أحر من الجمر بين انتظار مقدمه ووصول خطاب ينقل اليها شيئا من أخباره دون أن تفكر يوما ما فيما يدخره لها الغيب ويخبئه لها القدر ومن يدرى ؟ لعل البريد يحمل اليها فى المستقبل خبرا يكون وقعه عليها أشد من الصاعقة فتعرف بسببه أن من يحبها قدوجد ثرثارة ممهورة بثروة طائلة فتزوجها··؟ آه··لا··

حقا كانت مونيك تحب كومنينوس وتجد فى صحبته وقربه غذاء ممتعا لروحها وعواطفها · حقا لم يكن نصيبها من السعادة الا

تمتلك قلبه الحار وتسمع حديثه الحلو الساحر · حقا انهـا كانت الضحية بالـرغم من أنه كان يغمـرها بهداياه الثمينة المختـارة وبخطاباته العاطفية المتتابعة اذ أنها أسلمته زمام قلبها وأهدته نضرة جمالها وقدمت له كل ما تملك من وفاء واخلاص · ومع رضاها بكل ذلك واحتمالها ما يعجز عن احتـماله قلب فتاة فقد صدمها خطاب كومنينوس الاخير فكان بمثابة سهم قـد مزق في مروقه ثقتها فيه وحبهـا له ولم تستطع بعد ذلك صبرا · كان رد مونيك على ذلك الخطاب قصيرا حاسما ذكرت له انها استتابت الى رشدها فأدركت ماكانت فيه من موقف مزيف خاطىء وطلبت اليه أن يتحرر كل منهما مما كان بينهما من قيود الحب ·

اذهب كومنينوس خطاب مونيـك اذ انه لم يكن مهيئا لتلك الخاتمة المحزنة ولا مسـتعدا لنسـيان صاحبته التى ألف أن يراها منشرحة الصدر ضاحكة الاسـارير وأن يتخيلها طروبة سعيدة · لم يترك ، هـذا الخطاب فرصة التريث فى الأمر فثار معترضا على تنفيذ ما صممت عليه ثم أخذ يرجوها ويستعطفها أو يتلمس رضاها ويعرض عليها أمر زواجه بها ·· ولـكن مونيك كانت فى عزيمتها كالصخرة العاتية لا تلينها الرياح ولا تنال منها العواصف فنفضت يدها من كل صلة به ولكنها كانتتحس بجرح بليغ فى قلبها وتشعر بألم دفين لذكرى أملها الخائب وحبها الضائع ·

أما صاحبنا كومنينوس فقد بدأ يتجرع كئوسا من المر لهذه القطيعة وأخذ الندم يمتص طلاقة وجهه كالثعبان يمتصصغار الفراخ والحسرة تلتهم عواطفه نحو المرأة كما تلتهم النار الهشيم وكلما خلا لنفسه جرد من شـخصه انسانا يناجيه تارة ويحاوره أخرى عله يثبت براءته ويتخلص من مسئولية الضمير الجسيمة ولكن هيهات فقد كان صوت الضمير ينبعث من حين الى حين فيطمس ماسجده من حجج ويهـدم ما شيده من براهين ثم يسر فى أذنه أن مونيك قد

احتملت من أجلك ما لاطاقة لانسان على احتماله ٠٠ مكث كومنينوس موزعا بين مد العواطف وجزرها ٠ معذبا بين حزن القلب وهواجس الضمير بضعة أشهر لا تستهويه صحبة النساء لا بل انه مكث حياته لا يذوق طعم الحب الذى شرب كأسه مع صاحبته مونيك ٠

***

عاد سبيرو سانودى ولوكاس ميريتيس من الحرب الى الاسكندرية بعد هزيمة اليونان فى آسيا الصغرى ٠ أما ميريتيس فقد اشترك فى كل ميادين القتال وتعرض لخطر الموت أكثر من مرة ولكنه عاد قوى الجسم ضعيف الروح المعنوية بالنسبة لنتائج تلك الحروب فاليونان خرجت منها مهزومة الجيش متفرقة الكلمة والمنتصرون فى أوربا لم يتمكنوا من السيطرة على الموقف الذى أعقب الحرب والمنهزمون يتأرجحون كالثمالى بين الثورة والافلاس والثورة فى روسيا تسرى فى جسم الشعب آخذة صورة الحرب الأهلية طورا وصورة الاستبداد والفتك والتشريد طورا آخر والشيوعيون فى روسيا أنفسهم حاولوا ما استطاعوا أن يمتد نظامهم وينتشر فى ايطاليا وألمانيا ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ لم تبؤ محاولتهم بالفشل فقط بل انها أحدثت رد فعل هو من الخطورة بمكان ٠ نبت اثر ذلك فى هذين البلدين نظام الفاشية والنازية ٠

كان ميريتيس يرى ان الدكتاتورية الفاشية أمر لابد منه فى بلد ضعف فيه النظام الديمقراطى وأصبح رمزا للعجز والتدهور والانحلال لكى يستطيع مواجهة الشيوعية وصد تيارها الجارف ٠

أما سانودى فلم يتحرر من مبادىء النظام الاشتراكى غير انه كان فى شك وحذر معا من النظام الشيوعى ذلك لان أسسه قامت على دعائم اقتصادية مستمدة فى أكثر الأحيان من أنظمة بدائية تعتمد على الارتجال والطفرة والمجازفة ٠

أصبحت الاسكندرية اذن بمثابة منتدى لاصدقاء كومنينوس القدامى وعاد كل منهم على عمله اليومى ومهامه الخاصة واحتسبوا جميعا فى سجل المحاربين القدماء ومضى الزمن يجر فى أذياله الأيام والشهور وأخذت ذكريات الحرب تذبل كأوراق الخريف غير أن هؤلاء الذين تجرعوا كأسها وذاقوا ويلاتها مكثوا يترقبون مأساة العالم التى بدأت تنسج خيوطها من جديد لكى تنتهى به مرة أخرى الى الحرب الثانية ٠

ومن المحقق أن الحرب العالمية الاولى قد أيقظت معنى الحرية لدى الشعوب المستعمرة أو التى تحت حماية الاقوياء اذ أنها لم تكد تنتهى حتى نهضت تلك الشعوب الضعيفة تنفض عن نفسها غبار الذل وتنادى بالحرية وتزلزل أقدام من كانوا بالأمس سادة وحكاما٠ فمنذ غداة اعلان الهدنة ثارت مصر ضد انجلترا ٠ واستعرت هذه الثورة كالماء فى المرجل تارة تضطرم ناره فيشتد غليانه ويحطم كل ما يصادفه وأخرى تهدأ بعض الشىء فيسكن قليلا ولكنه دائما فى اضطراب وهكذا دواليك مدة ثمانية عشر عاما حتى استطاعت مصر أن تنتزع استقلالها انتزاعا من يد انجلترا ٠

وذات يوم جرى حديث بين كومنينوس وسانودى من ناحية وبين الدكتور عبد اللطيف جمعة من ناحية أخرى فقال الدكتور :

ـ اذا كنا قد وقعنا اتفاقا مع انجلترا فذلك لأننا نشك فى نيات الايطاليين ونرتاب فى مطامعهم بعد أن طوقونا فى الغرب وفى الجنوب وبعد أن اشتدت عقيدة العالم فى ان الحرب آتية لا محالة ٠ واذا كان الانجليز قد قبلوا من جانبهم هذا الوضع أيضا فانما ذلك لنفس الأسباب ٠ على أننا لم نخدع بما تنازلوا عنه لنا ولن تلين قناتنا فى طلب الحرية الكاملة والاستقلال التام ٠ اننا نؤمن ايمانا عميقا بأنه طالما يوجد فى مصر أو فى السودان جنود بريطانيون فان

حياتنا رهن بمشيئتهم ومستقبلنا متعلق بأيديهم ولكى تفهموا أهمية السـودان بالنسبة لمصر حسبكم أن تعلموا ان سعد زغلول حينما أجرى محادثات مع الانجليز منـذ اثنى عشر عاما اقترح أن تتنازل مصر عن الاسكندرية نظير أن يجلو الانجليز عن السودان •

وعندما سمع كومنينوس هذه العبارة أثارت فى ذاكرته تاريخ الاسكندرية وما كانت تحمله قديما من اسمين مختلفين أحدهما مصرى والآخر ليبى •

- ١٤ -

فوجىء لامبروس ووالدته وهما فى الاسكندرية باعلان الحرب العالمية الثانية وأمام ذلك ألحت أسرة غالانوس كلها فى بقائهما بمدينة الاسكندرية اذ لم يبق لهما فى اليونان أحد من الأقربين بعد أن مات اسكندر ساروبولو منذ خمسة عشر شهرا ومن المحتمل جدا أن تحول الحـرب بينهما وبين الاسـكندرية أمدا قد تطول أيامه كان اسكندر ساروبولو الذى لم يترك لعواطفه سلطانا على نفسه وارادته مكتوف اليدين مسلوب القوى مستسلما لجذوة عنيفة من الحب قد تأججت فى نفس اليوم الذى ولد فيه ابنه لامبروس • كان هـذا الحب مزيجا من السرور العميق والاهتمام المفرط وكان هو نفسه يبذل كثيرا من الجهد ليخفى عن والده ذلك الحب غير ان موقفه منه وعنايته بأمره ويقظته المتناهية من أجل ارضائه كان ذلك كله يفصح عن كثـير مما يحاول اخفاءه • وبالرغم من ملازمة الطفل لأمه فقد كان يعنى بطعامه ولعبه وكثيرا ما كان يخرج به فى الهواء مع حاضنته ولما بلغ الخامسة من العمر أخذ يهتم بأمر تعليمه وتربيته كان يمكث معه ساعة فى الظهر ونصف ساعة فى المساء قبل أن يذهب الطفل الى سريره •

تعلم الطفل من أبيه حروف الهجاء والأعداد وكان والده يحرص على أن يقص عليه شيئا من التاريخ وبعض الأساطير المختارة لما فيها من أدب وحكمة وخلق ثم لا يجد حرجا فى ان يسير معه ويشاركه فى العابه . لم يكد لامبروس يرقى فى مداركه حتى أحس بضعف والده أمامه وبحظوته عنده ودلاله عليه فترك العنان لغرائزه الطبيعية وأهوائه النفسية وسرعان ما أصبح شبيها بالبكر الأرعن أو الفرس الجموح . ظهرت عليه بوادر الجشع والتمرد والعصيان والعناد فصار يأمر بدل أن يرجو ويلح بدل أن يصبر ويجمح بدل أن يتودد وفوق ذلك كان ينتظر من الناس جميعا أن ترجوه هو وتخطب وده وتنفذ على عجل رغباته .

أتم لامبروس دراسته الأولية والثانوية فى أثينا فالتحق أولا بمدرسة خاصة ثم دخل بعد ذلك فى (الكوديج) .

لم يكن من أوائل التلاميذ الأذكياء ولكنه لم يكن أيضا من بين الأغبياء . لقد كان يزهده أن يكون من الأوائل ما يلحظه فى تلك الطائفة من التلاميذ من عوامل نفسية ودوافع لا يبرر هو وجودها ولا يعيرها من جانبه أدنى اهتمام كان أولئك التلاميذ يحرصون على أن يكونوا من الأوائل لا لشىء سوى التقرب من المدرسين وكسب عطفهم ورضاهم . أما هو فكان رائده فى ذلك أن يجيب على ما يوجه اليه من أسئلة اجابة صحيحة مرضية ولايعنيه بعد ذلك ما يراه بشأنه المدرسين .

ومنذ الثانية عشرة من عمره آنس لامبروس من نفسه نزوعا قويا الى الدراسات العلمية وقد صادف هذا النزوع هوى قويا لدى والده ومن أجل ذلك قرر أن يلحقه بعد الفراغ من الدراسة الثانوية بمدرسة العلوم فى أثينا أو فى الخارج كان لامبروس يجىء من وقت الى آخر فى صحبة والدته الى مدينة الاسكندرية حيث يقضى أياما

بين أسرة والدته وحينما يتخلف عن زيارة الاسكندرية سنة مـــا يذهب لرؤيته بين والديه فى اليونان جداه وربما أخواله أيضا فقد كان بمثابة الطفل المدلل فى الأسرتين اذ لم يكن لخاليه طفل سواه فكومنينوس لم يتزوج بعد وانطونى تزوج من فتاة يعمل والدها كطبيب فى الاسكندرية ولكنهما اتفقا على ألا يعقبا ابناء ٠

نجح انطونى فى مهنة المحاماة وسرعان ما أصبح عضوا هاما فى مجتمع الاسكندرية وكانت زوجه مارجريتا على جانب عظيم من الجمال فارعة الطول رشيقة القوام شديدة سواد الشعر والاهداب بيضاء البشرة سوداء العينين تلمح فيهما جاذبية ساحرة وبريقا أخاذا أرجوانية الشفتين دقيقة الأسنان تلمح فيها بريق اللؤلؤ كانت مع هـــذا مستطيلة الوجه فى تناسب وانسجام ٠ لم تكن مارجريتا تجهل ما هى عليه من جمال ـ كما كان هذا القدر من الجمال أكبر شاغل لها فكانت تضحى فى سبيله بكل شىء وتسخر من أجله كل ما لديه من امكانيات ولكيلا يذبل هذا الجمال ولكيلا تفقد حريتها رفضت أن تكون أما لأبناء ٠

حينما وصل لامبروس الى سن الشباب بدأ بغريزة فطـرية لديه يختبر الناس والاشياء ثم يعطى لكل حظه من التقدير ولم يلبث طويلا حتى أصبح من طبعه أن يهوى من الناس من يتحـلى بالذكاء ورقة الطبع وحسن العشرة ولين الجانب ٠ ومن الأشياء ما هو رفيع القيمة أنيق بهيج وكان حبه لأبويه من النوع الذى يسميه بالحب الفاتر ٠

كان ملما بأهم النظريات العلمية المعاصرة وكان كثير القراءة والاطلاع على ما يكتشفه ويؤلفه العلماء أما مظاهر الفن أو أشـكاله لم يكن لها على نفسه كبير أثر كان يراها فيعجب بها لساعته غير ان هذا الاعجاب لا يلبث أن يتوارى اذا اختفت عنه تلك الأشكال

وكان لا يستهويه من الشعر سوى ذلك الذى يفصح عن زوايا العقل وخبايا الروح وكان بينه وبين الشعر العاطفى بغض وكراهية وعداء .. ولعل أهم ما ورثه أخلاقيا عن أبيه هو عدم الاهتمام بالمرأة كان يرى فى الموعد والانتظار مضيعة للوقت ومشغلة للبال غير انه لم يكن يأبى الاجتماع بالفتيات والتحدث اليهن بل كانت لديه مرونة عجيبة فى صحبتهن وسهولة نادرة فى الحديث معهن .

لم ترسخ المبادىء الدينية رسوخا تاما فى نفسه ولم يكن ايمانه بها ايمانا خالصا صادقا ولكنه كان يحترمها احتراما تقليديا ولا يخالفها حتى لا يخرج على النظم الاجتماعية ومن أجل ذلك كان يتحاشى جهده النقاش فى النظريات الدينية والمسائل الطبيعية . أما الوطن وما يدور حوله من معانى الوطنية فقد تجسم أمامه ذلك كله كما تتجسم الحقائق المادية وكان يرعاه رعاية تامة ولكن فى غير ماتطرف ولا تعصب . وكان فى مدرسته اجتماعيا الى أقصى حد فكان يشارك زملاءه فى ألعابهم وفى اجتماعاتهم وفى رحلاتهم وخصوصا تلك الرحلات التى تنظم فوق الجبال وعلى سفوح المرتفعات حيث الحياة البسيطة البدائية والطبيعة الخالصة الباسمة كان أميل الى الطول والنحافة وكان مستقيم الملامح متناسب الاجزاء كان طلق المحيا تلحظ فى نظراته ثبات الجنان . وقوة الارادة . كان يخالف أباه فى آرائه السياسية أو بالاحرى لم يكن أمر السياسة يعنيه ولا النقاش فيها من ديدنه . وكل همه هو أن يدرس ويتزود من العلم والمعرفة لكى يستطيع فى المستقبل أن يطبق نظرياته العلمية ويكون لنفسه فى هذا الميدان مكانة مرموقة ممتازة .

كان فى موت والده صدمة عنيفة له ولكنه اكتشف من ورائها بعض الزوايا المغلقة فى نفسه وتبين من بعدها شخصيته على فطرتها وعرف بسببها انه كان يجهل الكثير من أمره . كان يجهل مقدرته

على البكاء ولكن عينه قد ذرفت الدمع مدرارا أثر تلك الفجيعة حتى لقد كان يحمر خجلا من هذا الدمع أمام الناس كان لا يعرف أن قلبه يحتوى على معين لا ينضب من الحنان فلم يكد يتوارى والده ويشعر بوحدة أمه حتى انفجر حنان المعين وفاض على تلك الأم رحمة وشفقة وعناية .

قضى آخر فصل من دراساته الثانوية فى الاسكندرية حينما كان عمره لا يتجاوز الثامنة وكانت نار الحرب لا تزال على أشدها وقد أخذ موسولينى يرسل بواخره نحو اليونان . ولم يستطع لامبروس أن يذهب لدراساته العليا فى أثينا ولا فى أى بلد أوربى آخر .

لم يكد يصل الى الاسكندرية خبر رفض متياكاس الاستسلام الى انذار موسولينى بقولته التاريخية المأثورة « أوخى » حتى تستولى على قلوب اليونانيين فى مصر رجفة يصحبها ضيق شديد وغيظ عميق . ولقد كان هذا الخبر بمثابة حافز قوى جعل اومنينوس لا ينقطع عن لقاء سانودى وميريتيس ومنذ رفض متياكاس بقى الثلاثة نحو خمسة عشر يوما على أحر من الجمر يتميزون غيظا وينظرون بصبر فارغ ما يأتى به القدر . أيدخل اليونان موسولينى دخول الظافر أم سينكص على عقبه وترده صدور اليونانيين ؟

كان لنصر اليونانيين على الجيوش الايطالية الجرارة فرحة لا توصف ولكن هذه الفرحة لم تلبث حتى توارت وأعقبها حزن عميق حينما عرف كومنينوس وصحبه أن الجيوش الالمانية قد غزت اليونان واحتلت أرضها . وسرعان ما تكون من فلول اليونانيين فى الشرق الأوسط فرق حربية من مختلف الاسلحة لتوالى الحرب فى صفوف الحلفاء ضد العدو المشترك .

وفى أوائل سنة ١٩٤٣ بعد موقعة العلمين استدعى لامبروس

لأداء الخدمة العسكرية فى مدينة غزة وفى نفس الايام جـــاء من فلسطين ابن عم استراتس غالانوس ليقضى أجازته فى الاســكندرية بعد سنتين قضاهما فى صفوف الجيش كان يدعى انجلوس فارديلوس. وكان قد خبر حالة الجند فى مختلف الأسلحة وأدرك مالدى هؤلاء الجند من مبادى وأفكار ومنظمات فحاول أن يصف لكومنينوس ما لم يكن له به علم من قبل • ذكر ما رآه من « منظمة محاربة الفاشية » وما كان لها من نفوذ بين كل الفرق الحربية ثم قال ان هـــذه المنظمة يديرها ويشرف عليها « هيئة مركزية » ولقد اســتهوى كومنينوس هذا الوصف فدار بينه وبين انجلوس هذا الحوار •

ـ وماذا يبغى هؤلاء من وراء تلك التنظيمات ؟

ـ انهم يبغون من وراء ذلك اثارة الرأى وغرس الأفكـــار الســـياسية •

اليسارية حتى تكون منظمتهم « جبهة الدفاع القومية » فى مأمن من استخدام القوى المسلحة ضدها •

ـ وأين وجد هؤلاء من ينشر هذه المبادىء ويدعو اليها •

ـ لقد بعثت بهم المنظمة الرئيسية من اليونان •

ـ وماذا يصنع ضباط الجيش أمام ذلك ؟

ـ بعض الضباط يدين بهذه المبادىء وعدد كثير وقع ضحية هذه الدعاية فأصبحوا تحت تأثيرها كالثمل يترنح فى خطاه • ولا يعنيه شىء مما يدور حوله • ومن بقى من هؤلاء وأولئك وهم غـير قليلين يتبرمون بما يسمعون ويشورون عليه ولكنهم يتهمون بالفاشيين ويحاربون بمختلف الوسائل •

ـ وما هو مسلك رؤساء الجيش ؟

ـ بعضهم يفرض نوعا من العقاب الصارم على من يقوم بهذه الدعاية والبعض الآخر يظن ان مستقبل الجيش فى يد هذه المنظمة اليسارية فهو يحتاط لنفسه ويخشى أن يعرض مستقبله لخطر الانتقام ·

ولم يكد كومنينوس يسمع هذه العبارة حتى قال ساخرا :

ـ وما أجدر صنيع هؤلاء ·

وبعدئذ القى شارديذوس بحزمة من الاعلانات الى كومنينوس ثم قال :

ـ كل هذه الاعلانات تنطق بآراء تلك المنظمة التى حدثتك عنها وتطوف فى جوانب الجيش وزواياه ·

كانت هذه الاعلانات تحمل عناوين مثيرة مختلفة مثل · فاشيستية ـ حقيقة ـ نجمة ـ حرية ·

أخذ كومنينوس يتصفحها ويقرأ بصوت مرتفع بعض عباراتها من ذلك ·

« الدفاع عن النفس وزيادة اليقظة والحذر »

« يجب تنفيذ قواعد المؤامرة السرية »

« منظمات محاربة الفاشية فى القوى المسلحة »

« أين الخلية المسلحة للمنظمة فى الشرق الأوسط لهى قوام الشعب اليونانى وكيانه » ·

وعندما وقع نظر كومنينوس على هذه العبارة لم يتمالك نفسه فضحك بملء فيه « ان رفض الانذار الذى وجهه موسولينى الى الحكومة اليونانية بتلك الكلمة الخالدة « أوخى » كان بارادة الشعب ومن

تصميمه لا باردة تلك العصبة المستبدة التى تحكمه وتستغل موارده وامكانياته منذ سنوات أربع • فقد ضاق صدره بهذه العبارة ولم يطق صبرا فانفجر قائلا :

ـ واذن فقد قال كل اليونانيين « أوخى » ماعدا متباكساس فقد قال « نى » ـ نعم ـ أى قحة وأى جهالة قد رانت على قلوبهم فأعمتهم عن الحقيقة وابعدتهم عن الطريق السوى •• ثم والى قراءة ما بقى لديه من الأوراق ممعنا متفحصا بعض عبارات منها •

« صائد فى الماء العكر ـ حثالة ـ عبد القنا ـ خادم أعـــداء الشعب وغزاته ـ فاشيستى ـ خائر العزيمة ضعيف الخلق •• ان المعركة التى نصطلى بنارها الآن انما هى معركة التخلص من الخزى والفضيحة والظلم والجوع والاستغلال والكذب والعبودية •• »

ولم يكد يفرغ كومنينوس من هذه العبارة حتى طوى الأوراق فى هدوء ، ثم أعطاها الى العدو قائلا :

ـ انه لهوس الثورة •

منذ حين استولت على لامبروس ظلال كثيفة من الحيرةوالشك وكان كمن أخذ قلبه يدق استعدادا لانفجار أزمة خطيرة • لم يكن من أولئك الذين تشغلهم أمور السياسة ولا تستهويهم المناقشـات السياسية فكان يحاول جهده أن يتجنبها وينفض يده من أحاديثها عكس ما كان يصنعه والده فى حياته • غير أنه بعد أن اشتعلت نار الحرب بدأ يفكر بينه وبين نفســه فى أنظمة الحـكم المختلفـــة تفكيرا يشوبه شىء من الغموض فيحجب بعض معالمه الرئيســية ويخفى منه نهاية المطاف • كان يكره الفوضى ولا يرضى بالخروج عن النظام ويبغض أشد البغض عدم الاســتقرار اذ أن ذلك كله لم يكن يتلاءم مطلقا مع أفكاره العلمية التى انطبعت فى نفسه نتيجة

دراساته · ومن أجل ذلك كان ينظر بعين الرضى الى ما أحدثه القائد متباكساس من استقرار اقتصادى واجتماعى ومن موقفه الحازم فى الحكم ولكنه لم يكن يظهر شيئا من ذلك أمام والده كما أنه كان ينظر بعين السخط الى ما وراء ذلك من آراء متباكساس ومراميه ولنفس الاسباب كان شديد السخط على الشيوعية وكان يرى فى مبادئها معاول هدم ووسائل تخريب وتدمير ولم يغب عن خياله صور ذلك كله فى روسيا أو فى غيرها من البلاد التى يتآمر فيها الشيوعيون ·

أما الأنظمة الديموقراطية فلم يعد لها فى عينه ذلك البريق الأخاذ وكان يراها صائرة حتما الى زوال ذلك لأنها أخذت تنكمش فى نفسها وتضطرب كالمحموم وهما من تهديد هتلر وموسولينى وفزعا مما يلقيانه من وعيد وانذار · ولقد أكدت هذه المزاعم ما أحرزه هتلر من انتصارات مدوية فى السنتين الأوليين من الحرب · غير ان أحداث روسيا السوفيتية وما أظهرته للعالم كله من يقظة واستعداد وحسن تدبير قد أخذ يطمس جانبا كبيرا من آرائه ويجعله يفكر من جديد وعلى ضوء تلك الأحداث فى شئون السياسة اذ ان روسيا بالرغم من هزائمها المتوالية أول الأمر لم تلبث أن تجمع قواها وتحزم أمرها لكى تثب وثبتها التى أدهشت الدنيا وحيرت كبار القواد وأفسدت على الألمان خططهم الحربية وتدبيراتهم العسكرية · استيقظت على حين غرة وفى غير انتصار فوقفت بكل ما لديها من قوة فى وجه الأعداء · لا لتدافع فقط عن أرضها وكيانها بل لتهاجم أكبر قوى جيش فى العالم اذ ذاك ثم تلحق به أشنع الهزائم وتتعقب فلوله فى مختلف الأقطار ·· تساءل لامبروس عن سر تلك الأحداث التى غيرت صفحة التاريخ وما ظهرت به روسيا من ادارة محكمة ونظام متقن وجيش باسل · وانتاج حربى يتجاوز ادراكه اطار لوحة الخيال

أيكون مستقبل العالم بعد أن يخرج من جحيم هذه الحرب في يد الشيوعية ويوحى من مبادئها .

لم يكن لامبروس ملما بالنظام الشيوعي الماما تاما ولم تكن دراسته لهذا النظام دراسة عميقه ولعل أوضح شيء قد ارتسم في ذهنه عن هذا النظام هو ما فيه من كبت الحرية ولكنه حينما أخذ يناقش هذه القضية ويحاول أن يجد حجبا يبرر بواسطتها نزعته الجديدة بالنسبة لهذا النظام خيل اليه أن الحرية نوع من الترف ولكيلا يتلاشى تماما ما هو في حاجة ملحة الى ادارة ونظام ومن يستطيع أن يوفرهما له ؟ هل الديمقراطية التى تترنح في موقفها كالثمل ؟ لم يبق على ظهر الأرض في نظر لامبروس قوة تستطيع أن تحقق ذلك سوى الشيوعية . ومنذ تلك اللحظة صمم لامبروس وهو في أزمته النفسية يضطرب كالريشة في مهب الريح على اعتناق الشيوعية وشرع من وقته يتصل بالمنظمات الشيوعية في الجيش .

كان يرى من الأنانية والاجحاف أنه يسلك طريقا غير الذى يسلكه من حوله من معتنقى هذه المبادىء . فيذودون عنها ويجازفون بأرواحهم من أجلها وحدهم . سر الشيوعيون بانضمام لامبروس الى منظماتها ، وأملوا من ورائه كسبا وفيرا اذ أنه كان على جانب كبير من الثقافة وفوق ذلك فهو ابن نائب سابق . ولكي يختبروه ويحولوا في نفس الوقت بينه وبين العدول عن رأيه وكلوا اليه مهمة الدعاية لهذه المنظمات بين صفوف الشبان من الضباط . وفي أول محاولة من محاولاته ألقى به القدر أمام ضابط شديد التعصب للقومية . عنيف الكراهية للشيوعية فثار عليه وقسا في زجره وتأنيبه . ولم يستطع لامبروس صبرا على ذلك ففقد السيطرة على أعصابه وتملكه الغضب فأفرغ كل ما في جعبته واتهم هؤلاء الضباط بالرجعيين .

وصل خبر الحادث الى رؤساء الجيش عن طريق هذا الضابط

الشاب فقبضوا على لامبروس وأوقفوه عن العمل وعرف ذلك أحد أصدقائه من الضباط الذين يعملون فى القيادة العليا فنقل الخبر الى كومنينوس الذى جاء مع والده على عجل ليتبين جلية الأمر بعد أن حصلا على اذن خاص من ادارة الجيش • وهناك فى غزة أجلستهما ادارة الجيش فى أحـد المكاتب ثم أحضرت لامبروس مصحوبا بأحد الضباط وأخلت بينه وبينهما •

ولأول وهلة أدرك كومنينوس خطورة الموقف وأنه ليس بالامر الهين ان ينجح فى اقناع ابن أخته وأن يقتلع من رأسه تلك الفكرة التى أصبح لها عبدا فقد انتشر فى كثير من الاوساط مرض الشيوعية كما تنتشر عدوى الطاعون • وكثير من « البورجوازيين » الذين كانوا منذ عشرين سنة فقط يستعيذون بالله كلما سمعوا لفظ «البلشفية» أصبحوا الآن أرقاء للشيوعية ولا يفتأون يتغنون بما أحرزته روسيا من انتصارات عظيمة ضد هتلر • لقد كان لهذه الانتصارات مفعول السحر على عقول الناس فأخذوا يشيدون بروسيا ونظامها ومبادئها ويرون فى كل ما تحققه من أمر معجزة من المعجزات • وكثير من الناس يغرهم المظهر ويخدعهم بريق السراب فلو ان هتلر بقى مظفرا فى حروبه وعلا سنام المجد بانتصاراته لنال من تقدير الناس أكثر مما نالته روسيا ولأحرزت مبادئه فى الشعوب نجاحا ليس بعـده نجاح •

ورغم ذلك كله فقد هيأ كومنينوس نفسه للنقاش مع لامبروس علّه ينجح فى زحزحته عن هذا الموقف العصيب • أما استراتيس فقد التزم الصمت اذ أنه لو نطق بكلمة واحدة لما استطاع أن يكفكف الدمع الذى يتأرجح فى مآقيه •

كان حديث كومنينوس مع لامبروس مشوبا بكثير من العاطفـة والحنان وكانت نغمة الحب الحار ترتسم على كل عبارة من عباراته

فلم يقس فى نقاشه ولم يجانب طريق المنطق الصريح ولم يلجأ الى غير العبارات الموجزة وكان كل هدفه هو أن يدافع عن الحرية ويبين مقدار ضرورة الناس اليها فهى الجو الطبيعى الذى يستطيع فيه عالمنا الحديث أن يستنشق نسيم الحياة وفى غيره لا يمكن أن ينمو العقل ولا ينبت الفن ولا يترعرع العلم ٠

هذه الحرية لا وجود لها فى روسيا لقد أوصدت دونها الأبواب لأنها تخشى أن تتسرب اليها أفكار الناس الطليقة وآراؤهم الحرة والا فلماذا قبلت أن تعيش بمعزل خلف ستار من الحديد ؟ أليس فى ذلك دليل على أن نظامها أوهى من بيت العنكبوت يزلزل خيوطه أقل لمس ويتداعى أمام لفحات النسيم ؟ ولقد أكد كومنينوس الى ابن أخته ان هذه المنظمة التى يتبعها والتى يستنير بمبادئها ليست الا منظمة شيوعية يديرها شيوعيون لا يعنيهم غير مصلحة روسيا ولكى يغرروا بالآخرين يحاولون جهدهم أن يلقوا فى روعهم أنهم يعملون ماديا وروحيا لمصلحة الشعوب جميعا والشعب اليونانى واحد منها وتراهم يقسمون على ذلك ولكنهم لا يستطيعون أن يقدموا أى دليل مادى على ما يقولون ٠ ثم تساءل كومنينوس فى شىء من التبرم هل من الممكن أن توجد مثل هذه المنظمات فى صفوف جيش من الجيوش وخصوصا فى وقت الحرب دون أن يكون ذلك ايذانا بتحلله وفساده واستغلاله لمصلحة العدو ؟

كان لامبروس يصغى الى ذلك كله فى ثبات ولكنه ثبات الصخرة لا تنال منها العواصف وكانت ملامحه تدل دلالة قاطعة على أنه لم يغير رأيه ولم يتزعزع فى عقيدته ٠ ولم يكد يفرغ من الحديث خاله حتى قال :

وماذا تنتظرون منى أن أصنعه ؟

ـ كل ما نطلبه هو آن تعد ضابطك بالا تشتغل بالسياسة داخل صفوف الجيش ٠

ـ ان في ذلك شرفي فهل تريدون أن أكون خائنا ؟

وعندئذ تبين لهما الا سبيل فى اقناعه وأن كل مجهوداتهم قد ذهبت عبثا ولم يبق لهما بعد ذلك سوى الانصراف ٠ وقبل أن يغادرا مكانهما قال الجد بصوت متهدج ونبرات حزينه :

ـ بنى ٠٠ لماذا تبتعد عنا وتولى ظهرك قبل ما نؤمن به وما تؤمن به والدتك وما كان يدين به والدك وما كنت تعتقده أنت حتى الأمس القريب ؟

كانت هذه الكلمات بمثابة شرارة من اللهب ألقيت فى مستودع من الألغام فانفجر بعدها لامبروس بكاء وانتحابا ثم قال :

ـ لا طاقة لى بما تأمرانى

تبادل كل من استراتيس وكومنينوس نظرات تفيض حزنا وأدبا وبأسا ولم ينطقا بكلمة واحدة ثم عانقا لامبروس وودعاه وانصرفا ٠

***

وأقلهما قطار بين غزة والاسكندرية وكانا وحيدين فى قسم خاص من عربة ذلك القطار وكان استراتيس يصوب باستمرار نظره خارج القطار دون ان يرى شيئا مما جعل كومنينوس يضيق صدرا من سهوم والده ٠

كان استراتيس مستغرقا فى التفكير لانه رجع بعقله الى الماضى فأثار ذكرياته البعيدة وحركه من سباته العميق ثم التفت الى ابنه وقال :

ـ لقد كانت حياتى عبثا ‥ ماذا جنيت ؟ وفى أى شىء أحرزت نجاحا ؟ كلما قلبت النظر فيما بذلته من جهد مرير اثناء حياتى رأيته قد انتهى الى غير ما أتمناه ـ وبدون أن أضع لنفسى هدفا اسير وراءه كنت أثب دائما الى الأمام مدفوعا بعوامل عنيفة لكى أحقق احساسات ليس لها فى نفسى معالم واضحة . لقد هجرت وطنى أملا فى ان أصير أحسن حالا مما كنت ثم عركت الحياة لكى أدرك اسرارها وخفاياها ثم تزوجت لكى أمهد سبيل الحياة الى حين ثم اعقبت أولادا لكى أكرس لهم حياتى ثم شقيت ليسعد أبنائى فلا يتذوقون طعم الحرمان ... وهأنذا اليوم أفقد آخر برعم من سلالتى .

فقد كانت هذه الكلمات بمثابة مشرط حاد يمزق قلب كومنيوس .

وبالرغم من بلوغه السابعة والسبعين من العمر كان استراتيس لا يزال فى حلة من الصحة وثوب من العافية قد انحسر شعره فى جبينه ولكنه بدا خفيفا أبيض فوق رأسه يخاله من يراه حليقا وكان لا يزال ينبعث من عينه بريق أخاذ . لم يعد نحيفا كما كان فى شبابه فقد أخذ جسمه ورأسه الوضع الأخير فبدا كل منهما مستديرا ممتدا . كانت وجنتاه مشربتين بحمرة تخالها حمرة الورد ولكنها كانت فى ذلك اليوم منطفئة كمن غشيه الموت وتوسد فى الأكفان .

لقد كانت تستحوذ عليه فى ذلك اليوم عاطفة غامضة هى مزيج من الحزن والتشاؤم فرجع بذاكرته الى الماضى البعيد يفتش فقط عما أدركه فى لياليه الخوالى من خيبة وشقاء وعندئذ ارتسمت أمامه لوحة ذلك الماضى وقد برزت فيها نكباته وخسارته . وهزائمه وأخطاؤه وما أصابه من فشل بروزا طمس بجانبه ما أحرزه من نجاح وناله من سعادة .

ثم أبناؤه ؟ ألم يكن يحبهم حبا ملك عليه شغاف قلبه ؟ ولكن كم كان كده فى الحياة لكى يدرك مآربهم ومسايرهم فى التفكير وكم احتمل من تضحيات واهمل من مبادىء وضعها لشخصه وعقائد كانت تطمئن اليها نفسه فى سبيل ارضاء مطامعهم واشباع رغباتهم .

ولكي ينتزع أباه من تلك الأزمة النفسية التى وضعته داخل اطار من عذاب الفكر قال كومنينوس لوالده . ـ أبتى .. سأحدثك عن مثل هولاندى : لابد لكل انسان فى الحياة من أن يزل ومن لم يرتكب تلك الزلة فى شبابه كان فى شيخوخته أسوأ الناس حظا وأكثرهم زللا .

وحينئذ ارتسم على شفتى استراتيس خيال ابتسامة حزينة ثم قال :

ـ بنى .. لهذا المثل معنى وفيه حكمة .

ـ فى هذه اللحظة يرتكب لامبروس زلته . وليس هناك من زلة تحمد عقباها ومع ذلك فلو نهض من هذه الزلة كان من السهل أن يغتفرها الناس له .

انتهي

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧١/٢٤٢٢



الهيئة المصرية العام

الثمن ٣٠ قرشًا